

الدكتور محمد الرميحي





أولويات العرب.. قراءة في المجهول



خمسون مقالاً يبحث عن الحقيقة

رمـــيـــحـــيـــات

أولويات العرب.. قراءة في المعلن

خمسون مقالاً يبحث عن الحقيقة

الدكتور محمـــد الرميحي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

رمـــيـحـيـــات

أولويات العرب.. قراءة في المستقبل

خمسـون مقالاً يبحث عن الحـقـيـقـة

Twitter: @abdullah_1395



الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0110-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويـــات

(مقدمة)

أولويات العرب... قراءة في المعكوس

معظـــم ما يكتب أو يعلّق عليه ويحوز على اهتمام أكبر عدد من القـــراء في ديارنـــا العربية لا يخرج عن ثلاث قضايا تسود في الدائرة الـــسياسية: فلـــسطين، الحروب العربية الاهلية، العلاقة مع الولايات المـــتحدة. وعلى رغم أن هذه القضايا لها علاقة بمعظم ما يواجهنا، من مـــشكلات حيث تتفرع وتفرّخ قضايا أخرى لا تقل أهمية عن اصلها. الآن إنهـــا أولـــويات مقلوبة على رأسها، وهروب من مواجهة الحقائق الماثلة بين ايدينا بالقفز عليها بعيداً عن المستحقات الآنية، التي إن وجد الحـــل لهـــا فقد يقود ذلك الحل في نهاية المطاف، إلى مدخل مناسب لتجاوز تلك القضايا الثلاث التي يعتبرها كثيرون مركزية.

تدمير القدرة على الصمود أمام ما تشكّله القضايا العربية الكبرى مـــن تحد، أو ضعف مواجهتها يكمن في الفشل في مواجهة التحديات التنموية الشاملة للعرب، العطب من الداخل، كغياب التنمية، والعجز، مواكبة العصر بكل ما يعنيه ذلك من مواجهة - تبدأ بالتعليم ولا تنتهي بتمكين المرأة وحقوق الإنسان.

قليلا ما نلحظ الحديث المكثّف عن أسباب ومظاهر هذا العطب الداخلـــي العربـــي، وقليلاً ما نقرأ مثلاً عن التربية والتعليم، ومستوى خريجـــي الجامعـــات العربية المتدني، ونشير إلى حالة البحث العلمي في بلادنا وتخلّفها، وتدنّي مكانة المرأة ونقص في حقوق الإنسان، وتخلف

الـــرعاية الصحية... إلى آخره من قضايا هي سبيلنا إلى تنمية حقيقية، ووســـليتنا لمواجهة المعضلات الكبرى. إلا أننا ننصرف في سباق محموم لمناقــشة من يلي الأمر، وكيف يجدد له، ولا يستغنى عن عبقريته، التي فــشلت ســـنة بعـــد أخرى، وعقد بعد عقد، أو مناقشة الشخص لا أفكاره، والاهتمام بقضايا الآخرة عن قضايا الدنيا. اما النظر عن قرب لقـــضايا مركزية مثل التعليم والبحث العلمي، وحقوق الإنسان وترقية الاقتصاد، على سبيل المثال لا الحصر، وهو ما اعتبرته تقارير اليونسكو والتقاريـــر الدولـــية الموثوقة، أنه اهم التحديات الأربعة[1] التي تواجه البشرية في القرن الواحد والعشرين، فهي في الغالب من هوامش همومنا.

معظـــم مدارســـنا وجامعاتـــنا يقـــوم بتأهيل طلابنا على نمط "الاســـتهلاك" لا القدرة على الإنتاج، وعلى التفكير الخرافي لا التفكير العلمـــي، وهـــذه المؤسسات تضخ كل عام آلاف الخريجين إلى ساحة البطالة المباشرة أو المقنّعة، ليس لأنهم عاجزون أوغير راغبين في العمل، بل لأن تأهيلهم لم يصل إلى حد تنمية قدراتهم الذاتية، وسوق العمل لا تتوافـــر فـــيها أيـــة فـــرص، لذا فإنهم يخرجون إلى الشوارع جاهزين للاخـــتطاف مـــن جانب خطاب التطرف، وهو خطاب يستفيد من التجهيل والفقر لتجنيد العشرات من أجل زيادة التخلّف والعجز.

وعلى رغم أهمية ومركزية هذه الموضوعات، التعليم والتدريب والبحث العلمي، والتفكير النقدي - فانها معزولة للتناول فقط بين المتخصصين في أروقتهم العالية، ومخفية في ملفاتهم المتضخمة، بعيداً عن التناول العام والساخن المفروض ان يكون من أولويات الاهتمام العام.

---

(1) التعليم، حقوق الإنسان، التنمية الاقتصادية، تمكين المرأة.

نـــأتي إلى أولـــوية أخرى من أولوياتنا لنراها أيضاً مقلوبة رأسا على عقب، فالحديث يطول ويتشعب عن الحلال والحرام، مقتطفا من اجتهادات تاريخـــية قال بها رجال عصر مضى، هدفها دخول جنة الرضوان في ما بعد الحـــياة الدنـــيا من وجهة نظرهم، وتتجاوز مثل هذه الأطروحات حقيقية مركزية هي ان الدين هو حياة الناس التي يعيشونها وكل التعاليم الايجابية في أي ديـــن، هـــي تعاليم لها علاقة مباشرة بتحسين وترقية حياة البشر على الأرض، التي تقود، إن نجحت في الأرض إلى حياة أفضل في السماء. ونرى من بعض ما نرى فتية لم يحصّلوا من العلم الا قليلاً يتصدون للإفتاء في كل شاردة وواردة، تضج بهم فضائياتنا العربية التي تتكاثر كالفطر.

مـــا هو متاح للقارئ اليوم - أو المشاهد - في الكثير من منتجنا الـــثقافي المقروء أو المرئي هو أفضلية الحياة الأخرى على الحياة الحالية، حـــتى لو كانت الحياة الحالية تئن من التخلف والفقر والحاجة والجهل والمرض والبطالة والحروب، وهو العكس تماماً لما دعت إليه الرسالات، وما بشّرت به، مباشرة أو بطريق غير مباشر من احياء الارض.

وإذا كـــان الأمـــر هـــو الحديث عن مستوى الحياة، فإن تقرير الـــشفافية الدولـــية الذي نشر أخيراً وأعيد تكراره يصنّف، من دون مواربة، موقع العرب المتدني (في متوسطهم) من سلم العيش التنموي في هـــذا العالم المزدحم بالمنافسة. فقد جاء موقع كثير من الدول العربية في آخـــر السلم متأخراً عن كثير من الدول، صغيرها وكبيرها، وهو أمر يقـــود إلى الاســـتنتاج بأن الفساد متفش ومعطّل للتنمية، وهو جدار ضـــخم، أي الفساد، وغياب تفعيل عمل المؤسسات، من بين عدد من الجـــدران، يحول بين العرب وبين التقدم[1]، وعلى الرغم من ذلك فإن

---

(1) تعـــريف الفـــساد في نظر المؤلف هو استخدام سلطة للحصول على منفعة، وبمعنى آخر غياب وجود وعمل المؤسسات، وتعطيل المحاسبة.

حاجـــز التعتيم أو قل تجاهل سور الفساد وغياب المؤسسات والمحاسبة، الـــذي لم يتوفر له ما يستحق من حبر وجهد فكري في كتاباتنا العربية ربـــع مـــا توفر لجدار الفصل العنصري الإسرائيلي، رغم أن الأول، في التحليل الأخير، يفوق ضرره الثاني، لأنه بارتفاع حاجز الفساد وغياب المؤسسات، يظل جدار الفصل العنصري عالياً ومتمكناً.

يـــبدو أيـــضاً ان انقسام العرب في السابق بين معسكر اشتراكي وأخر رأسمالي أو تحت مسميات مختلفة كعرب الاعتدال وعرب المقاومة الـــذي وصل إلى الأوطان كما في الحالة الفلسطينية واللبنانية، هو الذي يـــسود الآن ويستمر، وإن كان تحت مظلة أخرى وشعار آخر. فهناك مـــن هو معلّق بواشنطن بشكل أو بأخر، وهناك من يرى أن الارتباط بأوروبـــا اليوم أو بالصين في المستقبل المنظور هو أفضل الحلول المتاحة لـــبقاء الـــرأس العربـــي فوق الماء، بل أن البعض يرى في التحالف الاقليمي، مثلاً مع ايران، مربط الفرس...

ولا يتوفر نقد حقيقي في خطابنا العربـــي لمثل هذه الأطروحات الجـــزئية، وكل ما هو مطروح هو امتداد لما تم في الماضي، وهو انقسام العـــرب بين أطراف دولية أو اقليمية مختلفة ويجري الصراع على أرضنا وبينـــنا، كانت في الماضي معسكراً رأسمالياً ومعسكراً اشتراكياً، وهي الـــيوم معـــسكر أوروبـــي وأميركي، أو صيني وفي المستقبل قد تكون ايرانية أو تركية. إلا أن الحقيقة التي يعرفها الجميع أن هذا الانقسام هو تأكـــيد للشرذمة الضارة، التي يدفع الإنسان العربـــي ثمنا باهظا لها، في الوقت الذي تتشكل التكتلات العالمية للدفاع عن مصالحها المشتركة.

أمـــا الخـــيار المنطقـــي في هذا المقام، وهو إيجاد طريق عربـــي مـــتقارب، يحمـــل الحـــد الأدنى المشترك بين مصالح العرب كما فعل الأوروبيون بينهم أو كما فعل غيرهم، أو كما تفعل دول شرق آسيا،

أو أي تجمـــع عقلاني اقتصادي سياسي في هذا العصر، لكن يبدو ذلك بعـــيد المنال وليس له أولوية في النقاش، بل هناك إصرار من البعض إما على هيمنة وأتباع أو على مراهنات غير مجدية على الجوار، مع استعداد الطـــرفين، مـــن يـــريد الهيمنة والمراهن على قوى اقليمية، لتقديم كل التنازلات المطلوبة للأطراف الغربية أو الاقليمية، في حين ان المنجي من الانـــزلاق هو اجندة عربية واضحة ومعمول بها.

الأمثلة كثيرة في هذا المقام، فهناك اتفاقات اقتصادية تتم اليوم بين بعـــض الـــدول العـــربية وبين - مثلا - الولايات المتحدة، تقدم فيها تـــنازلات أكثر مما تقدم جارة عربية لجارة قريبة، بل يجري التشدد مع الجار، ويكثر التساهل مع البعيد.

ولعل المسكوت عنه في نقاشنا العام، ما أصبح معروفا على نطاق واسع في العالم ولا تكاد مقالة تظهر عن حال العرب اليوم إلا وتتناوله، وهي المعادلة التي تقول "ان الركود السياسي في بلادنا، يؤدي إلى عدم الإســـتقرار الداخلي، وتظهر آثاره في أعمال الإرهاب من جانب، أو الهجرة الشابة المتدفقة إلى الغرب من جانب آخر".

وعلـــى رغم بساطة هذه المعادلة ووضوحها، وعلى رغم حقيقتها الـــساطعة وأخـــذها مأخذ الجد من الدول الكبرى، نجد ان أولويات الـــنقاش العالـــق في مـــا بيننا، والتي يعتمدها كثيرون على صفحات صحفنا، هي طرح السؤال الساذج: "أيجب ان يجري التغيير من الداخل أم مـــن الخارج؟"، وكأن الداخل أو الخارج سينتظر إلى ان تحل معضلة البيـــضة مـــن الدجاجة أو العكس.. مثل هذا النقاش ألا يذكر بعضنا بالاختلاف على جنس الملائكة. في الوقت الذي تفضح حالنا "كشوف العـــولمة" مـــن تقارير حقوق الإنسان إلى تقرير الشفافية إلى مؤشرات التنمية إلى أخيراً الانجازات العلمية.

رغم الزيادة في الوعي العربـــي نسبيا وازدحام فضائنا بفضائيات عربية تكاد تبلغ نسبة وتناسب محطة تلفزيونية واحدة لكل نصف مليون عاطـــل عربـــي عن العمل، أو محطة تلفزيونية واحدة لكل مئة سجين سياســـي، ومع ذلك يعتقد البعض أن الوعي العربـــي ما زال مغيبا عن مـــا يجـــري في العـــالم، بل وفي بلده، ويرى الإنسان العربـــي التقدم الاقتـــصادي والسياسي الذي يجري حثيثا في العالم من أدناه إلى أقصاه فيتحسر، والتقدم في حفظ حقوق الإنسان في العالم فيأسف، كثير من العرب أصبحوا يعرفوا - من الخليج إلى المحيط - أن التنمية ليست فقط دخل مطرد ومرتفع عن طريق التشغيل الكامل لكل الراغبين في العمل، بـــل هي بجانب ذلك البعد المادي الهام لها بعد غير مادي، وهو المساواة وحكـــم القانـــون وإطلاق طاقات البشر في بيئة سياسية صحية، تمكّن المواطن من المشاركة في عملية إدارة الحكم.

على رغم ذلك فلا يزال معظم النقاش دائرا وحارا حول فلسطين والعـــراق والجدار العنصري، ومن يفوز في انتخابات الولايات المتحدة ومـــن هو أفضل للعرب، كيري أو بوش (أواخر عام 2004) أو باراك حسين اوباما أو جون ماكين (اواخر عام 2008) وهي ملفات لن تحل شيئاً مهما طال نقاشها إن لم نقلب معادلة النقاش لتقف على رأسها.

الـــسر في تجنّب النقاش حول الأولويات العربية هو تدني سقف الحـــريات، فمتاح لك كعربـــي ان تناقش وربما - تشتم - ان اردت الـــسياسية الأمريكية وحتى السياسيين الأمريكان، إلا أن الحديث عن حديقتك الخلفية دونه اسوار من الترهيب أو الترغيب.

في المقالات الخمسون التي سوف طالها القارئ الكريم هنا في هذا الكتاب، وهي مقالات كتبت في أوقات سابقة، وقام كاتبها بتحريرها بعـــد ذلـــك، في هذه المقالات سيجد القارئ ان الكثير من المشكلات

العــربية لا زالت تراوح مكانها، وكأنها تعيد تفريخ القضايا من جديد. كمــا ســوف يجد ان الكثير من الأفكار التي كانت تنبؤية - إن صح التعــبير - قد تحققت. ليس لأن الكاتب يرى في بلورة مسحورة، بل لأن تحكــيم العقــل والقراءة الصحيحة للأحداث هي التي جعلت من المــتوقع ممكن، فالمقالات هنا هي مجموعة من المنقطع المتصل في شوؤننا العربية.

وما هذا الكتاب إلا محاولة للتذكير لا غير...

محمد الرميحي

بيان - الكويت - خريف عام 2010

(1)

من جامعة للدول...
الى جامعة للإنسان العربي

خطـــاب سياســـي واوبريت غنائية ومباريات كرة قدم في نهائي كـــاس الكـــؤوس العربية واجتماعات تقليدية لوزراء عرب يناقشون جـــدول أعمال تقليديا ثم يختم كل هذه الفعاليات بالأمنيات الطيبة ان يطيل الله عمر جامعتنا العربية في عيدها الخمسين وما بعد الخمسين[1]

ولكـــن هذا هو بالضبط ما لا نريده لهذه الجامعة، فنحن في اشد الحاجـــة إلى وقفـــة معها... وقفة مع الذات العربية لنرى حصاد ستين عامـــاً وأكثر، من العمل العربـــي المشترك ممثلة في هذا البيت العربـــي الـــذي أصـــبح عتيقا. في الثاني والعشرين من آذار "مارس" عام 1945 نـــشأت جامعة الدول العربية، وذلك التاريخ ومعظم النقد الذي يوجّه للعمـــل العربـــي المشترك منصّب أيضاً على الجامعة العربية. في غضون خمس وستين عاما الآن (2010) لا زالت الجامعة العربية تراوح مكانها. الذنب ليس ذنبها كمؤسسة، بل هو ذنب ثقافة سياسية عربية متناطحة في الجوار ومتعارضة في الداخل.

---

(1) في العيد الخمسين (عام 1995) احتفلت الجامعة العربية بيوبيلها الذهبي، وها هـــي أكثر من خمسة عشر سنة، أي بلوغها سن الخامسة والستين، ولا زال الأمر كما هو!

في الخمسينيات من القرن الماضي، عندما اجتاحت العالم العربي موجة راديكالية كان أحد تجلياتها الانقلابات السياسية وسادت نغمة- ولو خفية- أن الجامعة العربية هي صنيعة الاستعمار البريطاني بعدما تأكد أنه راحل، شهدت الجامعة العربية طوال تلك الفترة صراعات وانقسامات وتحالفات متضادة، وكلها عربية... عربية. خلال كل هذه الدراما، كان الجميع يعلّق أسباب مشاكله أو الصعوبات التي يلقاها في الداخل والخارج على مشجب الجامعة العربية.

نشأت الجامعة العربية كمؤسسة وعاشت كمرآة للعمل العربي المشترك وكلما تعثّر العمل العربي تعثّرت الجامعة العربية إلى درجة نقلها من مقرها الأساسي والمتفق عليه في ميثاقها في القاهرة إلى مقر آخر مؤقت في تونس، نكاية لا أكثر، حتى ان عودتها إلى مقرها سبّب مشكلة عربية أخرى لا تزال آثارها باقية...

طبيعة عمل الجامعة العربية تحتاج منا إلى إعادة النظر، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الجامعة هي هدف في حد ذاته أم وسيلة لتحقيق هدف أو أهداف يرغب في تحقيقها العرب؟ إذا كانت هي - كمؤسسة - هدفاً في حد ذاتها، فإننا سنعيد تاريخ العقود الستة الماضية من جديد، وقد نكرر احداثها كما فعلنا في السابق بالضبط. واقتراحي ان تكون هذه المؤسسة وسيلة أو إحدى الوسائل لتحقيق الأهداف العربية الجماعية، إلا أن ذلك يتطلب تحديد الهدف أو الأهداف التي يريد العرب تحقيقها، وفي ذلك صعوبة عربية شهدناها في كل سنوات الجامعة العربية، وفي غياب الأهداف المتفق عليها، تتعطل الوسيلة.

لعلنا نتذكر أن مجلسا إقليميا كمجلس التعاون الخليجي نشأت فكرته وحفّز على إقامته إبان اجتماع الجامعة العربية في المملكة

الأردنية الهاشمية، هذا الاجتماع الذي قاطعته أو على وجه الدقة لم تحضره ست دول عربية عام 1980، طرحت فكرة "مجلس التعاون".

وكان السؤال وقتها إذا كان العمل العربـــي الجماعي غير مهم حتى ولـــو بالحـــضور إلى اجتماعات القمة، فلابد من البحث عن صيغة أخـــرى لبعض الاجنحة العربية التي تواجه مصائر لا تنتظر الاجماع. وكان أن ظهر مجلس التعاون الخليجي، من أجل عمل مشترك أكثر فاعلـــية، ولـــو على نطاق الخليج، الذي كان يواجه حربا ضروسا وقتها هي الحرب العراقية الإيرانية (1980- 1988) ثم ظهرت مجالس تعاون أخرى في المغرب وفي المشرق وكأنها استقطاب لمجموعة الدول هـــنا وهـــناك خارج الجامعة العربية، الوحيد الذي بقى هو مجلس التعاون، أما البقية من مجالس التعاون، فقد اضمحلت وذابت قبل أن يجف حبر انشائها.

ولعل من المفيد ان نلقي نظرة عامة على المناخ الذي تحركت فيه الجامعـــة علـــى مدى السنوات الطويلة الماضية، إذ نشأت حقاً بعد ان أعطـــتها الـــسلطات الـــبريطانية التي كانت تحكم دول المنطقة الضوء الأخـــضر. ولكنها كانت عنوان الحلم العربـــي للتحرر والتعاون، وقد تجاوزت هذا الضوء منذ ولادتها واهتمت بقضية العرب الأولى في ذلك الـــوقت وأعـــني بها قضية فلسطين منذ نشأتها الأولى وحتى الآن، ولقد حكمـــت هـــذه القضية كل الخطوط الأساسية لمسيرة الجامعة العربية وكانت السبب المباشر في بقائها والسبب المباشر في عجزها أيضاً، فقد دخلـــنا كل حروبنا مع إسرائيل متفرقين... ودخلنا مسيرة السلام معها متفرقين أيضاً، لم تجمعنا سوى مؤتمرات القمة ولم يستمر فيها التضامن العربـــــي الا خـــلال ساعات الاجتماعات فقط، لقد كانت الجامعة صـــيغة شـــكلية، حرص الجميع على استبعادها من مجال العمل. وقد

يكون مفهوما ان تحاول الولايات المتحدة استبعادها عن مسيرة السلام في الشرق الأوسط حين انطلقت من مؤتمر مدريد (عام 1992) وما بعده على الرغم أنها قد دعت لهذا المؤتمر كل من له وليس له علاقة بالصراع العربي - الإسرائيلي، وقد يكون مفهوما أيضاً الحساسية الإسرائيلية الفائقة تجاه الجامعة... فهي لا تريد أي إجماع عربي من أي نوع، ولأن هذه الجامعة كانت أحيانا هي المؤشر الوحيد لخطورة إسرائيل على العمل العربي المشترك منذ ان انشأت صندوق فلسطين في عام 1945 وحتى مؤتمر القدس الذي عقد عام 1995 وهي أيضاً التي تقود عملية المقاطعة ضدها، ولا تخفي إسرائيل رغبتها الحادة والملحة في إلغاء هذه الجامعة أو على الأقل تغييرها إلى جامعة باهتة تضم تجمّعاً جغرافياً باهتاً يسمى جامعة الشرق الأوسط، ولكن من غير المفهوم ان تساهم بعض الدول العربية في استبعاد الجامعة أيضاً. فهل يمكن أن تقاوم الجامعة هذا التيار الشرق أوسطي الجديد؟ وهل تستطيع الدول الأعضاء فيها ان تقاوم إغراء ان تصبح جزء مرضيا عنه من النظام العالمي الجديد وان تتمتع ببعض مصادر القوة المستمدة منه ومن دفء احضانه.

هناك قضايا ملحة وتحديات لابد للجامعة ان تجتازها قبل ان تصبح مؤهلة لمواجهة مثل هذا التيار المعطل... إنها في حاجة إلى فكر جديد مرن يقبل هذه المتغيرات الدولية ويتعامل معها من منطلق المصلحة العربية أولاً، وعليها أن تدرك وأن تساهم في توعية بعض الدول العربية بأن السلام غير القائم على العدل لا يولّد إلا وضعاً قلقاً وحروباً مؤجلة. وهي بذلك يمكنها أن تكون قوة استقطاب في مواجهة مشاريع السلام الأمريكية - الإسرائيلية، كما أن عليها أن تجد سنداً في منظمات أخرى إقليمية مثل منظمة المؤتمر الإسلامي والوحدة الإفريقية

ودول عــدم الانحياز، بل ومنظمات المجتمع الاهلي العربية، حتى تحسّن مــسار العلاقــات بين دولها من جهة وبين الدول الأخرى من جانب آخــر... ولعلها تنجو بذلك من عنق زجاجة المشروع الشرق أوسطي الــذي يحاولون إدخال المنطقة كلها في جوفه، وهو مروع يختفي لفترة ليظهر من جديد.

وفي المــرحلة الحالية لا اعتقد ان الجامعة العربية قادرة على اجتياز هذا الاختبار الصعب... فعلى مدى تاريخها عانت من معوقات كثيرة. والمعوقات التي تعاني منها الجامعة العربية ليست وليدة الظرف التاريخي فقــط ولا أسيرة ميثاقها الذي صيغ بشكل توافقي وغير ملزم إلى حد كــبير لأعــضائها، ولكنها ترتبط أيضاً ببنية العقل العربــي وبآليات الــسلوك الــتي تحكــم هذا العقل في مواجهة الظروف والقضايا التي تواجهها المجتمعات العربية. ويمكننا ان نرى جانبا من هذه المعوقات في ضوء الملاحظات الآتية:-

أولاً: طبيعة العلاقات العربية - العربية فهي علاقة معقّدة حتى من قبل قيام الجامعة. ليس لها منطق ثابت. فقد كان من الطبيعي ان تخــتلف، وان تــصبح ثانوية على العلاقات مع الدول الأجنبية فلا يحكمها منطق المصلحة العامة الصارم الذي يسود العلاقات المنطقية الأخرى، بل تحكمها علاقات شخصانية. وقد حرص ميثاق الجامعة علــى تأكــيد خــصوصية العلاقــة وحتّم ألا يتم اللجوء فيها إلى النــــزاعات المــسلحة مهما كانت الخلافات بين اعضائها، وعدّد كــثيرا مــن أوجه التعاون والتشاور والتآخي. ولكن الملاحظ ان العلاقــات العربية - العربية ازدادت إيغالا في التشرذم وازديادا في الشك والريبة منذ ان نشأت فكرة الرابطة القومية وقامت الجامعة. ولقد أصبحت الدول العربية أكثر تشددا في مواجهة بعضها بعضاً،

وباعـــدت أنظمـــة الحكم المختلفة بين الحدود المتقاربة بدلاً من ان تقرّب بين الأطراف المتباعدة.

ثانـــياً: افتقاد الفاعلية. ففي مواجهة النـــزاعات العربية، التي تكـــررت عبر هذه العقود الخمس الماضية، كان هناك افتقار واضح مـــن الجامعة لآليات حل هذه النـــزاعات. فلم تؤسس محكمة عدل عـــربية تـــواجه الجـــوانب القانونية لأي نـــزاع بيني عربـــي وما أكثرها، ولا قوات خاصة تفصل بين المتحاربين في حال نشوء صدام عسكري، وقد تعدّد، ولا حتى لجنة حكماء تحاول بحث جذور هذا النـــزاع أو ذاك ووسائل حله وطريقة فرضه على الاطراف. ناهيك عن أنه ليس هناك أي أدوات للضغط تقوم بها الجامعة على أي من الأطراف... لقد اعتمدت العلاقات العربية أسلوب الوساطة الفردية بـــدلاً مـــن السلطة الجماعية، وهو امتداد لأسلوب المصالحة القبلية القـــديم، ولكن مثلما اكتوى الشاعر القديم الذي حاول التوسط في حـــرب البسوس بنيران هذه الحرب، فقتل ابنه وخسر وساطته، مثل ذلـــك كان فشل الوساطة في حرب احتلال وتحرير الكويت مريرا، وفـــشلها في حل النـــزاعات الحدودية كما بين قطر والبحرين أكثر مرارة وأيضاً في حل معضلة الصحراء، أو الحروب الاهلية من لبنان إلى السودان.

ثالثا: العجز عن تبني فكرة الحوار. فلم توجد أبدا بيننا كعرب مـــساحة كافـــية للإخـــتلاف في الرأي دون التحوّل إلى القطيعة الشخصية أو الوطنية. تجلى ذلك بأكثر ما يكون فوق مقاعد الجامعة العربية وبين وفودها، إذ كان المندوبون العرب يجلسون في أماكنهم، وظهـــورهم إلى الحائط، لا يملكون أن يبدوا أو يأخذوا قررا. وكان علـــيهم ان يعـــودوا أولاً إلى وزير الخارجية الذي يعود بدوره إلى

الرئيس حتى في أدق التفاصيل وأصغر الجزئيات، لقد تضاءلت بذلك الحركة المتاحة للمناورة وتصلّبت المواقف وتباعدت وجهات النظر وتحـــولت الجلسات الطويلة المليئة بالخطب الرنانة إلى أخاديد عميقة تقف حائلا بين تفاعل وجهات النظر والوصول إلى حلول وسطى، كما يفعل العالم أجمع.

فكـــيف يمكـــن أن نتطلع إلى مستقبل، ان مستقبل الجامعة ليس غامـــضا كما يتراءى لي... فلن تكسب الجامعة صلابتها الحقيقية ولا قـــدرة على مواجهة التحديات التي تنتظرها في المستقبل. وهي في هذه الحالـــة من الضعف. هل نحن بحاجة إليها للستين عاماً القادمة أيضاً... ربما تواجه الجامعة العربية ثلاثة تحديات رئيسية:

- تحـــد سياســـي: فهي تدخل عامها الخامس والستين (عام 2010) وأمامها ركام من المشاكل السياسية في المنطقة... ولعل أهمها تلك المعركة الدائرة بين مصر من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى من أجل نـــزع السلاح النووي من المنطقة. ومن المهم ألا تدخل مصر هـــذه المعـــركة وحيدة حتى لا يخضعها سلاح المعونات الأمريكية المسلط على رقبتها وتضطر للتراجع. كما ان هناك المأساة المتكررة للأراضي العربية تحت الاحتلال... الضفة الغربية والجولان وبعض جـــنوب لبنان، ويضاف إلى ذلك أيضاً الجزر الإماراتية الثلاثة التي اســـتولت عليها إيران، والنـــزاعات الحدودية المعلّقة في أكثر من مكـــان بـــين العـــرب انفسهم، بالإضافة إلى ذلك كله المصالحة العربية - العربية بين الاسطفافات المختلفة والمتغيرة...
- تحـــد اقتصادي: فالجامعة العربية والمنطقة العربية بأكملها تواجهها ثلاثـــة تكتلات اقتصادية ضخمة أولها، هي المجموعة الأوروبية التي تـــسعى إلى ســـوق متكامل تزول فيه الحواجز الجمركية، وتتوحد

العملـــة لتـــصبح واحدة من أقوى الكتل الاقتصادية وهناك كتلة "النافـــتا" الـــتي تكونت في أمريكا الشمالية من كندا والولايات المـــتحدة والمكسيك. وثالثة هي هذه الكتل الضخمة هي التجمع الاقتصادي في المحيط الهادي والذي يضم عمالقة الانتاج في جنوب شـــرق اســـيا، كما تواجه عملاقين اقتصاديين هما الهند والصين، الـــذين بـــزغت قـــدرهما الاقتـــصادية بداية من القرن الواحد والعـــشرين. ان هذه التكتلات تمثل تحديا خطيرا على دول الجامعة العربية من المنظور الاقتصادي، كان يجب أن يُواجَه منطقياً بمحاولة جـــادة لزيادة المبادلات التجارية والاقتصادية بين أعضائها، وإزالة العوائق السياسية والبروقراطية، أمام انتقال المعلومات والتكنولوجيا ورأس المـــال والبضائع والبشر بين الدول العربية، وفوق ذلك كله علـــيها ان تضع سياسية واقعية للتكامل الاقتصادي تخضع للتنوع المـــشاهد في كـــل دولة، ولا تتخفى وراء أهداف طموحة صعبة التحقيق.

- تحـــدي اجتماعي: فعلى مدى هذه الأعوام الستين والنيف الماضية ظلت الجامعة للدول، ونحن نريدها للإنسان العربـــي. نريد جامعة تـــضع ميثاقا لحقوق الإنسان العربـــي وتقف ضد الانتهاكات التي يتعرض لها على أيدي الأنظمة القمعية، ولا تتخلى عنه لمجرد أنها لا تريد التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة، نريدها جامعة تدافع عـــن الديمقراطية والمشاركة، ولا تتواني في نقد الدول التي لا تتيح هامشا للمواطن للتعبير عن نفسه، وأن يكون الانضمام إليها شرفاً ولـــيس واجبا أو "كمالة عدد". ان الجامعة في حاجة إلى ان تفتح مجالا لمشاركة شعبية، لأن هذا الأمر هو الذي سوف يعطيها قيمتها الحقيقـــية ويطـــيل من عمرها للعقود المقبلة.. فلا بد من مراجعة

فكرية وسياسية عميقة لعمل الجامعة، فكل محاولة إصلاح - حتى الآن - جرى افشالها. فالمحاولات الاخيرة التي جرت للإصلاح تبيّن أنها ذر للرماد في العيون.

(2)

على هامش محاولة الاعتداء على مبارك،
الدين والسياسة: حنين أم ذريعة؟!

يخطــئ مـــن يعــتقد ان هــــناك فروقاً كبيرة في الأهداف بين الرصاصـــات التي أطلقت على الرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابـــا(عـــام 1995) وبين حكم محكمة الاستئناف القاهرية - في نفس العـــام - التي قضت بالتفريق بين الدكتور نصر حامد أبو زيد وزوجته على اعتبار أنه مرتد على الإسلام[1].

ولفهـــم هذا الرابط يكفي دليل عملي ان الجماعة التي أصدرت بـــيانا تدعـــي فيه مسؤوليتها عن محاولة الاغتيال للرئيس مبارك، هي نفـــسها التي أصدرت بياناً قبل أيام فقط من المحاولة الفاشلة أعلنت فيه إهدارها دم أبـــي زيد، وطالبت أعضاءها بتنفيذ حكم الردة عليه.. أي قتله.

القـــضية الأكبر والأساس هي أن هناك فئة من الناس تعيش بيننا وهـــم عرب مسلمون يعتقدون بأنهم دون غيرهم حملة رسالة مقدسة وهـــي إقامـــة الدولة الإسلامية كما يتصورونها وذلك عن طريق مزج السياسة بالدين، ويبررون لأنفسهم الطرق والوسائل أيا كانت للوصول

---

(1) توفي نصر حامد ابوزيد في يوليو 2010 بمرض غامض، وحتى في وفاته لم يسلم من الشماتة من مناهضي فكره.

إلى ذلك الهدف، سواء بقتل رئيس دولة أو كاتب مناهض لأفكارهم، أو مجرد مختلف عنهم بالرأي، وهي صوره من الإرهاب الفكري الذي يستهدف الفرد للوصول إلى الجماعة.

وبعيداً عن ردود الأفعال السريعة والعاطفية على الحادثتين، محاولة الاغتيال والحكم بالتفريق، وقد تناولتها بعض وسائل الإعلام العربي في حينها - بشيء من الخفة والتفسير السطحي - المطلوب هو الغوص تحت سطح الظاهرة، ومعرفة دوافعها الحقيقية ومسبباتها وأين تكمن جذورها، وما هو العلاج الناجح لمواجهتها بغير الألفاظ والعواطف.

الظاهرة بادئ ذي بدء ليست جديدة لا في تاريخ العرب القديم ولا في المعاصر، تيار سياسي يتلبس لبوس "الدين" كي يصل إلى "السلطة" وطريقه هو الدعوة بواسطة العصبية، أكانت قبيلة أم حزب.

إلا ان جذور الظاهرة الحديثة تكمن في ثلاثة مستويات، وترتكز على قاعدتين.

أما المستويات الثلاثة فهي:

الأول: الحرب العربية - العربية الباردة التي اشتعلت منذ الخمسينيات حتى السبعينيات تقريباً، وكانت والحق يقال في جزء منها امتداداً للحرب الباردة العالمية المشتعلة بين المعسكرين الكبيرين آن ذاك، هذه الحرب تمترس المختلفون العرب فيها حول متراسين متضادين - أو أريد لهما ان يكونا متضادين - الدعوة إلى القومية العربية بألوان اشتراكية، والدعوة الإسلامية على أساس أن العرب مسلمون قبل ان يكونوا شيئاً آخر، وأن هناك جذور مقاومة في الفكر الإسلامي لكل ما هو تعصّبي عرقي عربي أو أممي وتأميم اشتراكي. وجرت بين المعسكرين حربا نفسية وإعلامية كثيفة، وانتقلت أحزاب وفرق ودول

من هذه الجبهة إلى تلك وتبنّى كل فريق مواجهة طروحات بل وأشخاص الفريق الأخر في حرب إعلامية وإيديولوجية لم تلبث، في بعض الأوقات، ان تحولت إلى معارك عسكرية أي حربا حقيقية ساخنة!

وجاء المستوى الثاني فيما عرف بحرب تحرير أفغانستان، فكانت الثمانينيات عقد تسخير كل طاقة العرب أو معظمهم - بعد أن هدأت الحرب الباردة بينهم إلى الكفاح وطرد المعتدين من أفغانستان المسلمة، وكانت معركة سياسية أريد لها - من أجل الوصول إلى زخم أكبر - أن تتحول إلى معركة دينية، فتدفق شباب عرب متحمسون من كل مكان تشجعهم دولهم وجماعتهم المنظمة أو تتغاضى عنهم بعض الأنظمة التي لا تؤمن بحقيقة مهمتهم وأن كانت تتحاشى السير ضد التيار الغالب آن ذاك، حتى لا تتهم بما ينتقص من عقيدها أمام الشارع، أو تتهم بممالأة القطب الدولي الأخر "السوفيتي" في ذلك الحين.

وكان المتدفقون على أفغانستان يحدوهم أمل في إقامة دولة إسلامية هناك وطرد الكفار والمهرطقين، وتزامن كل ذلك مع رغبة الولايات المتحدة وحلفائها للأخذ بثأر الهزائم السياسية والعسكرية العديدة السابقة - خاصة في فيتنام - من العملاق السوفيتي الذي بدا يشيخ، واستفاد الصراع الدولي من حماس قطاعات واسعة من شباب المسلمين، لديهم الوازع الديني للجهاد دون نظرية سياسية تؤطره، ولم يكن أحد وقتها معنياً بتحديد نظرية سياسية واضحة.

وعندما انتهى ذلك الصراع، قرب نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، بقى جنوده ومنظروه المتحمسون الصادقون له دون ان يحدد لهم من دعاهم إلى الحشد أول مرة، الفرق بين الساحات المختلفة، فشكلوا احتياطياً ضارباً ومدرباً سريعاً ما أخذ يفتش عن أهداف

وســـاحات تماثـــل الأهداف السابقة، فوجدها قريبة منه في الوطن، أو أرادها ان تكون قريبة، بعد ان تلاشى الهدف أو العمل الجهادي القديم.

أمـــا عـــن المستوى الثالث فقد كان في الوطن نفسه، متمثلاً في الازمة الاقتصادية الداخلية وما ولدته من حرمان وفقر، إضافة إلى بعض ممارســـات الفساد السياسي والإداري - شجع شباب الجهاد، على ان يستبدل ما هو ابعد بما هو أقرب، وصورت تلك الجماعات لنفسها ان مرجع هذا الاضطراب، الاجتماعي، السياسي، ديني في الأساس لتبرير الخروج على مجتمعاتها الوطنية وإعلان الحرب عليها.

العوامل الثلاثة السابقة لعبت دورا في تاجيج العنف، مرتكزا على قاعـــدتين: الأولى أن الفكـــر الإســـلامي الاجتماعي هو فكر ثوري انقلابـــــي بالمعنى الحديث للكلمة، لأنه كان دائماً يحث على التغير، وهـــو دائماً مناهضاً للقهر والاضطهاد ومنحازاً للأكثرية المغلوبة على أمرها الفقيرة المحرومة، وبالتعبير الذي أصبح دارجاً منحازاً للمستضعفين في الأرض وما أكثرهم.

القاعـــدة الثانـــية تتمثل في أن وسائل الإعلام ومناهج التعليم في البلدان العربية أو معظمها تستخدم المواد نفسها التي يعتاش عليها الفكر المتطـــرف، ومـــن سخرية الأقدار أن واضعي هذا البرنامج في التعليم والإعـــلام يعـــتقدون خطـــأً أنهم يهدفون إلى توسيع قاعدة الموالين، المخالفين للتطرف، أو أنهم يحاربون هذا الفكر الرافض ببعض أسلحته، وهـــم في الحقـــيقة يقدّمون له - من حيث لا يعلمون - وقوداً جديداً للإمعـــان في التطـــرف. وتلك معضلة لا اعتقد ان البعض يعيها بكل أبعادهـــا، لأن بعض التطرف يغري بالمزايدة عليه من أعضاء الجماعات الأكثـــر تطرفا، ويكون الناتج الوسط على أحسن الفروض، هو تطرفاً جديداً، وهكذا تدور عجلة التطرف لتكبر.

هـــذا العمل الإعلامي - المكمل لرسالة المتشددين - جعل أطرافهم المدنية ودعاتهم يوغلون في الإرهاب الفكري، بل أن هذا الإرهاب الفكري وجّه من جهة أخرى ضد شرائح عديدة من الليبرالية العربية أو المجموعات الحداثـــية، بـــل ان بعض هذه الشرائح اللبرالية، مثل مثيلاتها في إيران قبل الـــثورة، وقـــف أو يقـــف مـــوقفا سلبيا أمام ما يجرى، وبعضها انضم لطروحات التطرف وبرّرها نتيجة ما يراه على الجانب الأخر من تضييق.

لقد تحوّلت إيران إلى ما يصفه حكامها بالدولة الإسلامية سنة 1979 ومـــا لبث أن تحوّل السودان بعد ذلك بعشر سنوات 1989 إلى ما يصفه حكامهـــا بالتجـــربة الإســـلامية، ونشطت حركات الانشقاق والتمرد والمقاومة ذات الأصل السياسي الاقتصادي تحت شعارات دينية في الجزائر وفي لبنان وغيرها من بلدان العرب، ونمت تنظيمات تحت الأرض أو فوقها في بلدان عربية أخرى مستفيدة من تهيئة المسرح وبطء عمليات المشاركة وعدم حيوية وتحلّل شرائح الليبراليين وانعزالهم، وانسداداً في افق التغير.

وأخـــذت هذه الجماعات تستخدم مصطلحات الجهاد والخروج في ســـبيل الله والاحتـــساب، ومواجهة المرتدين والمنافقين وغير ذلك وكلها كلمات ومفاهيم تضفي الهيبة على النفس خاصة لدى الشباب، وتحقّـــر من شان الأعداء والمخالفين، تمهيدا لإزاحتهم. هذه التنظيمات كـــذلك لا تقبل أي تفسيرات أو اجتهادات قادمة من خارجها، لذلك فـــإن أكثـــر مـــا يضيرها هو أي اجتهاد من خارجها يدحض خطابها ويكـــون مؤسسا على معرفة بجذور هذا الخطاب لذلك عندما اجتهد شـــخص مـــثل نـــصر حامد أبو زيد قامت عليه قيامة أطراف الدعوة المدنيين في الأساس، ثم بعد ان نضج الأمر ترك للمتشددين إنهاء المهمة عقابا له وردعا للآخرين أيضاً. لذلك فإن أكثر ما يضير هذه الجماعات لـــيس الملاحقة بالرصاص، بل الملاحقة بالفكر إلى درجة أن معتدلين لا

يـــشك أحـــد في نقاء دعوتهم الدينية من أمثال كمال أبو المجد، ومحمد الغـــزالي وآخرون لم يسلموا من رشاش القول المتطرف على مواقفهم الفكـــرية، إلى درجـــة أن البعض من غير من ذكرناهم تحت التهديد الفكري أنكروا ما قالوه ومالؤوا التطرف طلبا للسلامة(1).

ان اســـتخدام الدعـــوة للوصول إلى الحكم ليس شيء جديد في تاريخـــنا العربـــي، وعندما نتفحص التاريخ نجد أن مشروعات طلب الـــسلطة والـــسيطرة علـــى الحكم من خلال الدعوة المبنية على الدين تـــتماثل، ولا تخـــتلف إلا في التفاصيل، من ابن تومر في القرن الحادي عـــشر عندما إنشاء دولة الموحدين، إلى مشروع المهدي في نهاية القرن التاســـع عـــشر مـــروراً بالسنوسية وعشرات من المشروعات الفاشلة والمختلف عليها.

ولابـــد أن نقـــر والحال كما هو في تدهور اقتصادي وضيق في مجـــالات التعـــبير السياسي، أن يعرف العامل الديني نوعا من استعادة النشاط، كما الناس عند الفجر، كذلك المجتمعات عندما تستفيق لا تجد أمامهـــا إلا سحنة الأمس ووعيه، ولكن هل زمن "الدعوات" قد عاد؟ لقد اعتقد ابن خلدون عندما كتب مقدمته أنه انتهى، ولن أقامر بالقول بنهايـــته، فالـــرد الوحـــيد للحفـــاظ على النفس عند المسلمين أمام الصدمات - سواء كانت خارجية أم اقتصادية أم ثقافية - هو الإسلام. وأمـــام فـــشل طـــروحات القومـــية والاشتراكية بل وبعض تجارب الدمقـــرطة - وهـــي تجارب تفشل من الداخل كما من الخارج - لا يوجد هناك بديل واضح أمام الجماهير.

بقي القول ان هذه الدعوات ليست لديها برامج معاصرة وحقيقية في تصوير شكل الدولة القادم، وتتركز دعواتها إما إلى حنين إلى ماض

---

(1) على سبيل المثال لا الحصر سيد القمني في مصر.

فات ولم تعد ظروفه قائمة اليوم، أو تريد الوصول إلى السلطة فقط من أجل الوصول.

في غياب الدعوة لبديل حضاري وهوية أصلية وعصرية تحقق الحد الأدنى من مطالب الناس، سوف نظل في هذه الدائرة المغلقة من العنف والعنف المضاد في فضائنا العربـــي قائمة.

والمعـــركة في رأيي ليست أساساً معركة بالرصاص - مهما كانت الرصاصـــات الـــتي أطلقت على مبارك مفزعة وخبيثة - وليست المعركة إعلامـــية وسياسية فقط كما ظنها البعض. ساحة المعركة الحقيقية والأولى هـــي الثقافية وتشكيل وعي جديد يرسم خططا حديثة للخروج من المأزق وان تجاهل السياسيون ذلك ووضعوا اللوم على هذا البلد أو ذاك في شحن للـــشعور الوطني وكأن القضية حرب بين المتجاورين، اختزال المعضلة في هـــذه الحدود، إنما يعني فشلا حقيقيا في معرفة لماذا يطلق بعضهم الرصاص على البعض الآخر... ولماذا يكفّر البعض البعض الأخر؟

وحمـــداً لله أن صوت العقل، والحسابات السياسية الصحيحة، لم تدفـــع لشرارة حادث أديس أبابا إلى إشعال حرب مصرية - سودانية. ولعـــل فـــضل ذلك التريث - الذي نتمنى ان يستمر - يعود إلى خبرة السياسة المصرية وتراثها الواعي بأن نيران الحروب الإقليمية لا تخلف إلا هـــشيما. ولعله نوع من الذكاء المضاد أراد ان يجهض شهوة التيارات المهيمـــنة تحت سطح النظام السوداني لنيران حرب تجهد النظام المصري تمهيدا لإسقاطه الذي تأمله هذه الأوساط السودانية توهما منها ان مقعد الحكم مهدد بالسقوط وسيكون مهيأ لبديل من جنسهم العقائدي، هذا وهم حتى الآن يحول دون تحقيقه - في رأيي - عدم مواتاة الظروف إلى هذه القفزة على مقعد الحكم المصري الذي ما زال يقف دونه مسألتان: عمـــق تاريخ المركزية في النظام المصري ووسطية التركيبة الاجتماعية

المصرية. ولا سبيل - حتى الآن - إلى اختراق ذلك إلا بحدث انقلابي ضخم، وهو أيضاً مما يستبعده واقع الحال، فالجيش المصري لا يعرف مثل هذه التقلبات التي شهدها مثيله في السودان، إضافة إلى أن تسلل عناصر التطرف إلى مؤسسة الجيش في مصر - بشهادات الظاهر من الأمور وهو ظاهر له دلالاته - لا تزال محدودة إلى درجة العجز عن إحداث أي تأثير ناهيك عن التغيير.

لقد توقفت أمام هذه النقطة لأقول ان إطلاق الرصاص والرصاص المضاد ليس جوهر المعضلة، بل هو لا يضيف إليها إلا مزيداً من التعقيد. صحيح ان اليد التي ترفع السلاح على المسالمين والمدنيين والمفكرين خاصة ينبغي كفها، لكن عجلة التطرف الجهنمية التي تفرز العنف ضمن ما تفرز في دورانها لا يمكن إيقافها بيد أمنية فقط ولا إعلامية دارجة ولا حتى اقتصادية مثمرة، بل الأساس أنها في حاجة - حتى تتوقف عن دورانها الشرير - إلى اقصر الأيادي حساسية وأشدها بأساً - في ظني - وهي يد الثقافة المنفتحة التي ينبغي ان تتاح لها فرصة خلاقة وواسعة للتعبير تواجه اتساع منابر الخطاب المغلق على نفسه.

ومن هنا يتساوى تكفير أبو زيد مع إطلاق النار على الرئيس مبارك، فهما جميعاً سبب ونتيجة في الوقت نفسه[1].

---

(1) العنف السياسي سيظل معنا تحت عباءة ما يمكن تسميته بـ (الإسلام السياسي) وهو سلوك غضبي وردود فعل منفصمة عن النضال السياسي طويل الامد. ولن يتاتي للعنف السياسي - كما حدث له في التاريخ - أن ينتصر. المعضلة في القدرة على ترشيد اختزال الإسلام في السياسة، وهي تحتاج إلى فكر تجديدي لم يتضح حتى الآن، يوائم بين التراث والحداثة بشكل مبتكر.

(3)

تأملات في حرب الحاخامات:
معرفة الذات بقراءة الأخر

الكتابة عن إسرائيل، أو بالأحرى عما يحدث في إسرائيل، ان لم تكن مسبوقة بالإدانة أو الرفض أو النفي، توقع بالإنسان العربي في مواضع الحرج. هكذا تعودنا، أو عوّدتنا التربية السياسية المغلوطة التي سادت عالمنا العربي فترات طويلة، وتفوّق فيها الهتاف الزاعق على الرغبة الحقيقية في المعرفة. و مع ان هذه التربية السياسية لم تعد سائدة، إلا ان أصداءها لا تزال قوية في الرؤوس والنفوس، و لم تبدأ بالانحسار قليلاً إلا لدى القلة.

لهذا أجدني وأنا بصدد الكتابة عن إسرائيل، أو ما يحدث في إسرائيل في هذه الأيام، ادرأ الشبهات بالتأكيد.

على إنني لا أكتب من موقع الإعجاب بل من موقع الألم العربي، ومن أفق الأمل العربي الذي تسد الطرق إليه، وتغلق نوافذه وأبوابه تلك الأساليب العربية المألوفة في رفض المعرفة إذا كانت تعري الذات، وتكشف ما فيها من جروح وقروح وتشوهات.

ولعل عشقنا الطويل - أطول من اللازم - لرنين الخطابة، وطلاوة العبارة وإنشاؤنا المنمّق أكثر من اللازم - بقصائد المدح أو القدح الزاعقة - قد أورثانا حب سماع ما يدغدغ عواطفنا ويخبرنا أنه ليس في

الإمكـــان أفضل مما كان، أو يأخذ بثأرنا ونحن قعود حبيسي الكلمات والخيال.

كـــان لابـــد من هذه المقدمة، قبل ان أهم بالحديث عن أمرين إســـرائيليين، أؤكد أن همي وشاغلي أثناء متابعتهما لم يكن إلا محاولة لـــرؤية مقارنة لبعض من أمورنا العربية. فكثيرا ما تكون قراءة الآخر، هي نوع من القراءة المعكوسة للذات، خصوصا إذا عزت المرايا العربية التي لا تكشف للذات إلا حسنها!

هذان الأمران الإسرائيليان تواكبا عندي في فترة واحدة، أولهما ما يحـــدث مـــنذ صدور فتوى حاخامات اليمين الإسرائيلي "هكذا أسمته الـــصحافة" بتحـــريض الجـــنود الإسرائيليين على عدم إطاعة الأوامر العسكرية إذا صدرت إليهم من قادتهم للانسحاب من قواعد عسكرية ســـتؤول إلى الفلسطينيين بموجب عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية التي تكثر الوعود حولها وتتبخر.

الأمـــر الثاني وهو قراءتي لكتاب كان في مكتبتي منذ فترة و لم أتوصـــل إلى قراءته إلا أخيراً بعنوان: "مكان بين الأمم - إسرائيل والعالم" ومؤلفه هو بنيامين نتانياهو، وهو زعيم الليكود الديناميكي الذي قد يصبح اسمه متداولا بيننا قريبا، وقد قامت بنشر الكتاب دار "عبر العالم" ذات الانتشار الواسع في البلدان المتحدثة بالانجليزية[1]. وجـــاءت قـــراءتي للكتاب في هذه الفترة بما يشبه المصادفة ولكنها حلت في وقتها، إذ ألقى الكتاب مزيداً من الضوء على ما يحدث من تفاعلات جراء فتوى الحاخامات، تلك التي شكلت ما يمكن تسميته "حرب الحاخامات" إذا جازت تسميته، وهي حرب شدت وقائعها

---

(1) بنيامـــين نانتـــياهو هو اليوم (2010) رئيس وزراء إسرائيل، الذي يفاوض الفلسطنيين، وقد كتبت المقالة ونشرت قبل سنوات في جريدة الحياة اليومية.

اهتمامي بشدة، وبالكيفية التي تحدثت عنها في حديث رؤية الذات في تأمل الآخر.

الذي حدث ان 15 حاخاما من بينهم الحاخام الأكبر في إسرائيل سـابقاً "ابراهام شابيرو" اجتمعوا ذات أربعاء ورأوا ان "التوراة تحظر إخـلاء قواعد عسكرية للجيش الإسرائيلي من الضفة الغربية المحتلة في إطـار الحكم الذاتي الفلسطيني" ودعوا بذلك آلاف الجنود الإسرائيليين في الخدمـة العـسكرية إلى رفض الأوامر القاضية بانسحابهم من هذه القواعد ان صدرت إليهم من قادتهم العسكريين.

وقامت قيامة إسرائيل وقتها. ووقائع هذه القيامة متعددة المشارب والاتجاهـات ولابـد لكي نقرأها أن نلم بأطرافها... سواء في صف الحزب الحاكم أو خارجه داخل إسرائيل أو ابعد من حدودها، في دائرة رجال الدين أو في ساحة الاسرائليين العلمانيين.

ففي صف الحكم وبعض المؤتلفين معه، قال رئيس الدولة الأسبق عيزرا وايزمان أنه يخشى حصول شرخ عميق داخل الشعب يؤدي إلى خطر وقوع حرب أهلية، ودعا الحاخامات إلى إلغاء قرارهم بينما كان رد رئيس الوزراء الأسبق اسحق رابين عنيفا إذ قال: "هذا أمر لا سابق لـه وغير مقبول بتاتاً وخطر جداً، وهو يتعارض مع أسس الديمقراطية لدولة إسرائيل التي لم تسمح بأن تتحول إلى جمهورية موز" إلى الجانب الأخـر مـن الحكم كان أبرز ردود أفعال المعارضة ما بلوره صاحب الكـتاب الذي تحدثت عنه وسأتحدث... بنيامين نتانياهو زعيم تكتل الليكود، الذي يعتبر أكبر حزب يميني معارض (رئيس الوزراء الحالي فى إسرائيل)[1] إذ قال: "ان قرار الحاخامات مخالف للقانون، لكن سياسة

---

(1) وقـت كـتابة المقـال كـان اسـحق شـامير، رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي.

الحكـــومة هي التي تخلّف شرخاً في صفوف الشعب" ولم تبتعد معظم الأوساط السياسية المعارضة عن مثل هذا الطرح.

أمـــا في الأوســـاط الدينية سواء داخل إسرائيل أو خارجها، فإن الأمـــر شـــهد اختلافاً مماثلاً، إذ دعم فتوى الحاخامات أنصار الحزب الـــوطني الديني ممثّلاً بنائبه هنان بوارت. بينما اعترض على الفتاوى من هذا الحزب وزير التربية الأسبق زيفولون هامير مبرراً اعتراضه بأنه "يريد تجنب نقمة المجتمع". أما الذين عارضوا الفتوى بشكل واضح من رجال الـــدين الإسرائيليين فمنهم الحاخام شلومو افينيري الذي قال ان "هناك حقيقة دينية لكن الوقت غير مناسب لإعلانها لأن الشعب غير موافق" وقال بالمثل "إسرائيل لو" كبير الحاخامات الإسرائيليين وقتها، إذ اعتبر ان "هذه الفتوى يمكن أن تؤدي إلى الفوضى" ولم يخل أمر المعارضة من مـــساهمات حاخامـــية آتية من وراء الأطلسي، فدان أربعة حاخامات أمـــريكيون يمـــثلون 600 حاخام يهودي الأمر ورأوا أنها "ستؤدي إلى زعـــزعة الاســـتقرار في المجتمع الإسرائيلي" وأكدوا ان هذه الفتوى لا تعكس شعور أغلبية الإسرائيليين.

علـــى مـــستوى الـــرأي العام الإسرائيلي اظهر استطلاع نشرته صحيفة يديعوت احرونوت ان 77% من الإسرائيليين معارضون للفتوى التي أصدرها الحاخامات، وعنونت الصحيفة صفحتها الأولى ب "أجواء حـــرب بين الإخوة في العقد الاجتماعي في إسرائيل" لأنها المرة الأولى التي يطلب فيها من الجنود عصيان الأوامر".

وكان الجيش الإسرائيلي في صميم هذا الغليان، فصرّح ناطق من صـــفوفه قـــائلا انه: "يتوقع ان تتذكر القوات ان القيادة العسكرية لها وحـــدها حـــق إصدار الأوامر". ولم يخرج عن هذا الإطار مسؤولون عـــسكريون سابقون حتى وهم خارج المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.

فقال رافائيل ايتان رئيس حزب "تسوميت" المتشدد وهو رئيس سابق لأركان الجيش الإسرائيلي "ان الجيش الذي يتلقى الأوامر من الحاخامات وليس الحكومة من شانه ان يهزم في الحرب".

أمام هذا الغليان الذي حركته فتوى الحاخامات الموصوفين صحفياً "باليمينية"، يكون السؤال الأهم عن ردود الفعل الفاصلة متمثّلة في شقين أولهما: ماذا عن الجنود الذين وجهت إليهم الفتوى؟ وثانيهما ماذا عن الحكم الذي وُجّهت إليه الفتوى - بشكل أو بآخر؟ - على اعتبار أنه يتبنى عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية التي فجرت الفتوى وتفجرت آراء الفرقاء من حولها.

الإجابة مدهشة من جانبيها، وهي أكثر ما يدعو إليه التأمل. فرأي الجنود ومنهم ناحوم باتشينيك الجندي في إحدى الوحدات الخاصة الذي تعلم في مدرسة تلمودية والذي قال أنه سينفذ أوامر قادته في الجيش "مرغما" موضحا ان غالبية الجنود المتدينين سيحذون حذوه.

أما في الجانب العملي من الحكم، فقد قرر المستشار القانوني للحكومة ميخائيل بن يائير: "عدم ملاحقة مصدرَيْ الفتوى قضائياً إذ أن الانسحاب من القواعد العسكرية في الضفة الغربية هو من صلب النقاش الوطني".

وقبل ان نصل إلى قلب قراءتنا لوقائع هذه الحرب، حرب الحاخامات، التي أراها كما يراها كثير من المراقبين اخطر شقاق وقع في المجتمع الإسرائيلي، على اعتبار أنه شقاق بين التركيبتين الأكثر شاناً في هذا المجتمع، وهما الفعاليات الدينية والمؤسسة العسكرية، أود الانعطاف إلى كتاب بنيامين نتانياهو، لعلي "افرش" منه أرضا للقراءة التي ابتغيها.

بادئ ذي بدء لفتني نوع التأهيل الذي تلقاه هذا الكادر السياسي الإسرائيلي الذي شغل منصب نائب وزير الخارجية سابقاً. ومندوب

إسرائيل السابق في الأمم المتحدة. وزعيم تكتل الليكود (ورئيس الحكومة حاليا 2010) فهو خدم في الجيش الإسرائيلي خمس سنوات، جنديا في وحدة "النخبة"، الخاصة لمكافحة الإرهاب في البداية ثم ضابطا بعد ذلك، وحصل على درجتين علميتين أولاهما في الهندسة المعمارية، والثانية في الإدارة من إحدى الجامعات الأمريكية، أما كتابه - على رغم كل التحفظات الممكنة - فيشير إلى دأب في البحث ومواصلة للتثقف متعددة ومتشابكة الروافد.. تاريخ، جغرافية، إستراتيجية عسكرية، سياسة، باختصار إنه حالة دالة على نوعية من يصل إلى مراتب السياسة العليا في إسرائيل، سواء كمشارك في الحكم أو معارض له، ولعل في هذه اللمحة إشارة من القراءة المعكوسة للذات - عبر الآخر - التي أرمي إليها.

بالطبع كتاب نتانياهو مليء بالقراءات التاريخية والسياسية التي يمكن الاعتراض عليها، وهو معاد للعرب لا شك في ذلك، لكن الشيء الأهم في كتابه بالنسبة إلينا هو تلك الأجزاء التي يتعرض فيها للحديث عن بنية إسرائيل، وهو ما يتعلق بالآليات التي أفرزت الشكل النهائي لحرب الحاخامات تلك، خصوصا الجدل حول السلام العربي - الإسرائيلي الذي أثار فرقعات هذه الحرب.

في بداية كتابه يحكي نتانياهو كيف التقاه مراسل شبكة أل "سي. ان. ان" أثناء تساقط الصواريخ العراقية على إسرائيل إبان حرب احتلال وتحرير الكويت عام 1991، وتم اللقاء بينما كان نتانياهو يرتدي قناعا واقيا ضد الحرب الكيماوية والبيولوجية (المفترضة) التي هدد صدام حسين بشنها على إسرائيل، ورسالة القناع - الموجهة إلى الرأي العام الغربي تحديدا - واضحة وفي الإجابة عن مكان إسرائيل ومساحتها مقارنة مع جيرانها، يبسط نتانياهو خارطة كبيرة ويشير إلى

العـــالم العربـــي بفتح ذراعيه حتى آخرهما. أما إسرائيل فقد مد أصبعه وســـط الخـــريطة فغطاهـــا طرف هذا الأصبع، هذه إسرائيل التي أراد نتانـــياهو ان يـــريها للعالم.. يحيط بها بحر العرب من "المعادين" أما عن هـــولاء العـــرب فقـــد تنقّل نتانياهو في كتابه من الخرائط إلى الجذور التاريخية إلى الجغرافيا إلى وقائع المواجهات وقوائم الأعمال (الإرهابية) ليثـــبت ان العرب تاريخيا واجتماعيا وسياسيا مجبولون على العنف، وفي مواجهة هذا العنف رأى ان هناك نوعين من السلام مع العرب لا مفر مـــن ان تختار إسرائيل نوعاً واحداً منهما. فهناك سلام الديموقراطيات، وهـــي مفقودة في العالم العربـــي بدرجة أو بأخرى، لهذا لا يكون هذا السلام ممكنا. أما السلام الممكن فيسميه نتانياهو سلام الردع، ويقصد بـــه ان تكـــون إســـرائيل مالكـــة إمكانيات الردع، اولها الإمكانات التـــسليحية والبشرية. يضيف نتانياهو عنصرا يسميه الجدار أو الحائط ويعـــني به فاصلا من الأرض بين إسرائيل وجيرانها يتيح لإسرائيل فرصة الـــردع إذا تحرك أي من هولاء الجيران للحرب[1]. وتبريرا لذلك نشر نتانياهو في كتابه خرائط توضح وقوع إسرائيل بعمقها الذي لا يتجاوز 40 كيلومتـــرا في متناول أي عدوان عربـــي. فالمسافة من دمشق إلى حدود إسرائيل تقطعها الطائرات في 7 دقائق، ومن عمان (الأردن) إلى القدس 6 دقائق، ومن تبوك (السعودية) إلى ايلات 18 دقيقة. أما عرض إســـرائيل فهو 10 كيلومترات من الضفة إلى بير السبع، و22 كيلومترا من الضفة أيضاً إلى تل أبيب.

باختـــصار أراد نتانياهو القول أن إسرائيل إن اختارت شيئاً غير ســـلام الـــردع، ومنه ذلك الحائط، فإنها يمكن أن تضيع في دقائق، أما

---

(1) بنـــي الجـــدار الفاصـــل بعـــد ذلـــك بسنوات وهو قائم اليوم في الأراضي الفلسطينية.

الحائط فحدده بمواقع ينبغي أن لا تتخلى إسرائيل عنها، وهي المشار إليها بخارطة البنتاغون الموضحة "لاحتياجات إسرائيل الأمنية والمؤرخة في 18 يونيو حزيران 1967. هذه المواقع المشار إليها هي: هضبة الجولان، ونهر اليرموك، والقدس وما حولها، والبحر الميت، ومناطق حول ايلات.

إذن عندما يدلي نتانياهو برأيه في فتوى الحاخامات فإنه ينبغي أن يكون معهم، وإن لأسباب جيوبوليتكية، لكنه لم يفعل ذلك وهو جوهر التركيبة الإسرائيلية التي تشغل مساحة طرف أصبع وتقهر ما حولها من بحر عربي، صحيح ان هناك عوامل خارجية داعمة لإسرائيل، لكن ليس هذا مربط الفرس فمربطه في تلك البنية الديمقراطية داخل إسرائيل التي كشفت عنها وقائع حرب الحاخامات. فعلى رغم وجود أصولية وتطرف يهوديين إلا ان هذا لم يتحول إلى سفك لدماء إسرائيلية بسلاح إسرائيلي، وعلى رغم أن الخلاف يدور حول قضية مصيرية، إلا ان ذلك له حدود من القانون وعلامات العقد الاجتماعي غير القابلة للاجتياح، التي يحرسها الحكم وخصومه على السواء.

فغالبية الرأي العام والفرقاء السياسيين رفضوا الزج بالمؤسسة العسكرية الداجحة للمجتمع الإسرائيلي في خضم التفسيرات التلمودية. حتى الجنود المتدينون حسموا الأمر بأنهم سيطيعون قادتهم العسكريين وإن كرها. إذن هناك إطار ديمقراطي لأقصى حدود الاختلاف وهناك رفض كبير لاختراق أسس المجتمع وعلى رغم عدم ملائمة هذه الفتاوى التي بلغت حد الخطورة، فإن المستشار القانوني للحكومة لم يحرك الدعوى ضد أصحابها. ذلك ببساطة لأن هناك سياجاً يحول دون تحول الفتوى إلى رفع السلاح ضد السلاح أو رفع السلاح ضد العزل.

وحتى نصل إلى قراءة الذات، قراءة معكوسة عبر تأمل هذا الأخر، والماثل في ما اسميه "حرب الحاخامات" فأنني ادعوكم لتصور ان يحدث ذلـــك لدينا... وهو يحدث، فبمجرد فتوى شاردة من "أمير" صغير من أمـــراء التطـــرف، ســـرعان مـــا تتحول إلى نحر رقاب وسفك دماء وتفجيرات وحرائق.

أمـــا الحد الأدنى من العقد الاجتماعي الملائم لعالمنا وأيامنا فإنه - إن وجد - مستباح من كل الفرقاء وبشتى الذرائع.

ولهذا أدعوكم لمراجعة صورة الآخر لا إعجاباً بها بل للوقوف - عبر المقارنة - على ما صارت إليه ملامحنا السياسية الاجتماعية، وطرق إدارة الاختلاف بيننا.

(4)

كيف يبدو العرب في نظر اليابانيين:
رؤية في كتاب

كلمـــا اجـــتمع نفـــر مـــن العرب في ندوة علمية أو لقاء ثقافي وحـــضرت ســـيرة الـــيابان وجدت أن غالبية الحاضرين في مثل تلك الملتقيات يقارنون بين النهضة اليابانية المحققة، والنهضة العربية المرتجاة، بالقـــول أن الـــيابان استطاعت أن تدخل العصر الحديث، وتحتفظ في الوقت نفسه بثقافتها الاجتماعية!

ويكـــاد هذا الرأي يشكل غالبية بين المتابعين العرب، ولعله رأي اعـــتذاري أو تبريري، بأنك تستطيع أن تحافظ بالضبط على موروث اجتماعي، وبناء سياسي تقليدي، وسلوكك عام وخاص لا يتناسب مع العـــصر، وفي الـــوقت نفسه تستطيع أن تلج عصر التحديث والعولمة والانتاج.

ومهمـــا قـــيل ضد هذه الأفكار، بأن اليابانيين عموماً قد دخلوا عـــصراً جديـــداً بسبب تغيير ما اعتادوا عليه من بنى سياسية وسلوك اجتماعـــي، وبتبني أفكار حديثة، يقابله البعض باستنكار أو استغراب. هـــذا الـــرأي يخلـــط بغير علم بين الشكل الخارجي (للثقافة كالمأكل والملـــبس) وبـــين الأمـــر المؤثـــر في الثقافة كالسلوك السياسي وبناء المؤسسات.

وقد جاء ياباني بقلم عربـــي فصيح ليقول عكس ما يظن البعض، هذا ما سرده نوبواكي نوتوهارا في كتابه الذي ما أن فرغت من قراءته، حـــتى خلـــت أنه من القراءة الضرورية لأي سياسي عربـــي، يريد أو يعتقد أن الاصلاح لا يزال ممكناً في فضائنا العربي[1].

شهادة نوبواكي الذي قضى قرابة أربعين عاماً وهو يعيش مع العرب ويلاحظ الثقافة العربية في البوادي والمدن، وقد أجاد العربية كأحد أبنائها، واطلـــع على الانتاج الادبـــي العربـــي وترجم منه إلى اليابانية، هي أول شهادة يابانية - حسب علمي - تكتب عن العرب بلغتهم، وحسناً فعلت دار الجمل في ألمانيا بنشر هذا الكتاب ذي القطع الوسط والذي لا يتجاوز المـــئة وخمـــسين صفحة فقط، ولكنها صفحات مليئة بالملاحظات المهمة، جاءت من عين يابانية محبة ولكن ناقدة. أهم ما في الكتاب هو المقارنة بين ما يقوم به العرب، وما بين ما يتوقعه الياباني المعاصر.

يلاحـــظ الكاتـــب هذا التوتر غير الخفي في المدن العربية المكتظة بالـــسكان، وهو توتر في الشارع العربـــي يعتقد الكاتب أنه ناتج عن اضطهاد، فالناس تمشي في الشوارع وكأن عيناً تطاردهم، وجوه جامدة وصـــامتة وطوابير طويلة، حتى في التاكسي يواجه الإنسان الاضطهاد فالسائق يختار الراكب حسب المكان الذي يريد الذهاب إليه، ويرفض أن يـــنقل الـــشخص الذي لا يعجبه شكله، أو المكان الذي يقصده، وينتهـــي الكاتـــب بالملاحظة أن (الناس في المدن العربية ليسوا سعداء وليسوا مرتاحين، الناس صامتون لا يتحدثون، لكننا نسمع صرخة من خلال ذلك الصمت الخانق)!

---

(1) يـــتحدث الكاتب عن العرب واختلاف الثقافة العربية عن الثقافة اليابانية من خلال دراستة الجامعية للغة العربية في اليابان ثم رحلاته لبادية الشام ومصر ومخالطته للعرب، من منشورات دار الجمل 2008.

يكتشف الناقد الياباني أن هذا الجو من التوتر هو بسبب غياب العدالة الاجتماعية، ويضيف أن من حقه بعد كل هذه السنوات مع العرب أن يقول شيئاً لهم.

غياب العدالة يعني غياب المبدأ الأساسي الذي يعتمد عليه الناس في علاقتهم ببعضهم، لذلك "يكرر الناس في البلاد العربية أن كل شيء ممكن لأن القوانين السائدة غير مطبقة وغير محترمة".

القانون لا يحمي الناس من الظلم لأنه مخترق، ويأتي نوتوهارا على الكثير من الاحداث والوقائع، فالقمع هو "الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى برهان في البلاد العربية"، ومن مظاهر القمع الذي يستغربه الياباني المعاصر أن "الحاكم" يحكم مدى الحياة في الوقت الذي لا يتجاوز عمر رئيس الوزراء الياباني في الوظيفة بضع سنين، وأن الصحف تمنع من بلد إلى بلد، وأن الكتب والمجلات تعرض على الرقابة، مثل هذه المظاهر لا يتوقع الياباني أن يراها في حياته المعاصرة. ثم يستطرد بالقول أن "من زار اليابان لا شك يعرف أن هناك سيارات بمكبرات صوت على نواصي الشوارع تهاجم رئيس الوزراء والحزب الحاكم دون أن يتعرض لها أحد"، ولكن "السلطة والشخص في البلاد العربية شيء واحد" وفي معظم البلاد العربية يقول الكاتب أن "المعيار الوحيد لكرامة المواطن ووطنيته هو مقدار ولائه للحاكم"، وهذا كله غريب علينا نحن اليابانيين في الوقت الحاضر.

وفي تاريخ اليابان الحديث، فإن السيد تاناكا واحد من أقوى الشخصيات التي شغلت منصب رئيس وزراء، ولكن الشرطة اعتقلته من بيته وذهب إلى السجن بالقباب الياباني بعدما اكتشفت الصحافة قضية "لوكهيد".

يعتـــرف الكاتب بأن اليابان في وقت ما كانت خاضعة لنوع من القمع، لكن اليابانيين تخلصوا منه وأصبح تاريخاً. يقول "أعتقد أن القمع هو داء عضال في المجتمع العربـــي لذا فإن أي كاتب أو باحث يتحدث عن المجتمع العربـــي من دون وعي هذه الحقيقة البسيطة الواضحة فإنني لا اعتـــبر حديـــثه مفيداً وجدياً" نتيجة القمع يحاول الناس أن يوحدوا آراءهم وملابسهم وبيوتهم وتحت هذه الظروف تذوب استقلالية الفرد، ويغـــيب أيـــضاً الوعـــي بالمسؤولية العامة. فالقمع يولد الخوف وينتج الاحترام الكاذب.

بسبب غياب العدالة، تغيب المسؤولية العامة، فالحدائق والشوارع ومـــناهل المـــياه ووسائل النقل العامة يدمرها الناس إعتقاداً منهم أنهم يدمـــروا ممتلكات الحكومة لا ممتلكاتهم، وكذلك تغيب المسؤولية تجاه أفـــراد المجـــتمع "فالسجناء السياسيين ضحوا من أجل المجتمع، ولكن المجتمع نفسه يضحي بأولئك الرجال الشجعان" الناس في البلاد العربية تـــتعامل مـــع قضية السجين السياسي على أنها قضية فردية على أسرة السجين أن تواجه أعبائها!

يتسائل الياباني باستغراب "افهم أن تضحي السلطة بأفراد متميزين ومفكرين وأدباء وسياسيين وعلماء وفنانين ولكن لماذا يضحي الشعب نفسه بأولئك الأفراد"!

العربـــــي، يقول الكاتب، يتناول أفكاره من "خارجه" فيما يستنتج الـــياباني أفكـــاره من الوقائع الملموسة التي يحياها كل يوم "في اليابان تضاف حقائق جديدة كل يوم بينما يكتفي العربـــي باستعادة الحقائق التي اكتشفها في الماضي البعيد". الأفكار الجاهزة تخرب فهمنا للواقع.

يقـــارن الكاتب بين اليابان والعرب فيقول أن اليابانيين "واجهوا تجـــربة صعبة ومريرة، إذ سيطر العسكريون على الامبراطور والسلطة

والــشعب وقادوا البلاد إلى حروب... لكننا وعينا خطأنا وقررنا أن نصححه، فأبعدنا العسكر وقررنا أن نبني ما دمره القمع العسكري.."، لقــد تعلمــنا أن "القمع يؤدي إلى تدمير الثروة الوطنية وقتل الابرياء، ويؤدي إلى انحراف السلطة والدخول في ممارسة خاطئة"، ثم يضيف أن النقد الذاتي "له قيمة كبرى في حياة الشعوب، والشعوب بحاجة إلى نقد من الداخل ومن الخارج".

ويقــول الكاتب أنه كثيراً ما يواجه بالسؤال من أصدقائه العرب: لقــد دمــرتكم الولايات المتحدة بإلقاء قنبلتين نوويتين على مدنكم، فلمــاذا لا تكرهون أمريكا؟ يجيب بأن "علينا أن نعترف بأخطائنا، لقد استعمرنا شعوباً ودمرنا بلاداً كبيرة، في الصين وكوريا واوكيناوا، علينا أن ننقد أنفسنا ثم نصحح أخطاءنا ونــزيل الانحراف" أما المشاعر فإنها مــسألة شخــصية محدودة لا تصنع مستقبلاً". يصر نوتوهارا على أن الوعــي بالمشاكل هو المدخل الصحيح إلى إصلاحها، لذا يعطف على نظام القيم لدي العربــي، ويضرب أمثلة كثيرة على خللها من وجهة نظر اليابانيين.

فالــياباني لا يتوقع أن يذهب إلى البنك ليصرف مبلغاً من المال ثم يعطيه الصراف أقل مما يستحق! أو أن يذهب إلى متحف فيعرض عليه مسؤول المتحف بيعه بعض القطع الأثرية.. ويصف نوتوهارا الكثير من الحــوادث في كــتابه، بل إنه شاهد مرة باستغراب راهبة بثيابها الدينية تدفع رشوة! لأنه لا يمكن أن تنهي معاملتها في تلك الدائرة من دونها، فــنظام القــيم يرى الكاتب أن فيه خللاً كبيراً لا تستقيم معه التنمية المنشودة.

لقد حاولت أن أقدم لمسة سريعة لهذا الكتاب الذي يفتح عين من يــريد أن يرى، لأنه يقدم قضيتين: الأولى أن اليابان طلقت كثيراً من

قيمها القديمة بشهادة رجل مطلع منها لتدخل عصر التحديث، والثانية أن هناك نظاماً من القيم العربية تستحق المراجعة.

أما أن يكون الاكتفاء بفهم الكتاب من خلال التعليق عليه فأنا لا أدعـــي ذلـــك، لكني أعتقد أن لدينا جميعاً حاجة إلى أن نقرأه بعيون وقلوب مفتوحة.

(5)

نظرية المؤامرة
في الثقافة العربية المعاصرة

لـــو كان الأمر مقصوراً على البعض لما استحق كتابة موضوع كامـــل حوله، ولو كان هذا البعض من غير قبيلة المتصدرين للشأن العـــام مـــن المثقفين العرب لما أستحق المشقة كذلك، وربما كانت المـــشقة اقـــل لو أن المؤمنين به من غير ذوي الاختصاص. ولكنها ظاهرة عامة ومحيرة في آن، أن تجد بين من ينتسبون لأهل الذكر في فـــضائنا العربـــي المعاصر من يدافعون بقوة وبدون تردد عن نظرية المؤامـــرة في كل مناحي حياتنا، إلى درجة أنهم ملّكوا على الارجح عقلـــهم لهـــذه النظرية، فأصبح الغث والسمين على سطح واحد، وغـــاب ســـلطان العقل الذي نادي به ابن رشد منذ أكثر من ألف سنة.

قرأت لأحد الكتاب العرب، وهو أستاذ كبير وكاتب دائم، في مجلة "الهلال" الشهرية، مقالا يؤكد فيه أن من هدم البرجين الشهيرين في وســـط مانهاتن في نيويورك عام 2001 ليسوا من العرب.! وجاء بشواهده المسهبة التي يمكن أن توصف بأي وصف عدا أنها شواهد عقلية. وكان كاتب عربـــي شهير آخر كتب، بعد سقوط البرجين مباشـــرة، أن العملية ليست من صنع العرب، بل بالتأكيد من عمل

الـــصرب تحديـــداً![1] وقد نبحث للثاني عن أعذار، كونه كتب في وقـــت رمادي لم يتبين فيه الخيط الأسود من الأبيض، وتنقصنا كل الأعذار للأول.

ولكـــن الأمر لا ينتهي هنا، فلو سألت مجموعة من الأسئلة اليوم لكثير من المتابعين مثل سؤالك هل توفى السيد عرفات وفاة طبيعية؟ فإن الإجابـــة في الغالـــب ســـتكون بالنفي، ويؤكد لك كثيرون أنه مات مسموماً! ولو سألت من قتل المرحوم الشهيد رفيق الحريري، لقيل لك مـــن دون تـــردد أنها إسرائيل، أما اذا سألت كيف قُبض على صدام حسين، هل قبض عليه وهو في حفرة عميقة كما أعلن، فإن الكتابات المؤامـــراتية التي بين يدينا تقول وتؤكد، أن القبض عليه تم وهو ذاهب لـــيؤدي صلاة الفجر في أحد مساجد بغداد! (كل ذلك نشر فعلاً في وسائل إعلامنا)

أمـــا وزيـــر الـــدفاع اللبناني السابق، وهو صديق، فقد قرأت له تصريحاً عجيباً نشر في جريدة "البيان" في دبـــي يوم التاسع من نيسان (ابريل)[2]، أتمنى من كل قلبـــي أن لا يكون صحيحاً، فقد أجاب على ســـؤال لماذا ضغط الأميركيون على سورية للخروج من لبنان؟ وكانت الإجابـــة لـــيقاتل الجيش السوري في صف الأميركان في العراق! وإذا دخلـــت في نقـــاش، كما فعلت أخيراً مع عاملين في إحدى الجامعات الخليجـــية عـــن تـــاريخ غزو الكويت، فسوف تجد من يؤكد لك أن الولايات المتحدة هي التي أوعزت لصدام حسين للقيام بذلك، والدليل هو مقابلة سفيرة الولايات المتحدة وقتها السفيرة غلاسبـــي!. وعندما

---

(1) الاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل في مجلة وجهات نظر المصرية الصادرة في مطلع 2001.

(2) هذا في عام 2005.

تسأل محاورك: وهل قرأت النص الذي نشر لاحقاً للمقابلة بتفاصيلها، فإنــه لا يقدم جواباً لأنه قد هيأ نفسه للفكرة، ورسخت في ذهنه ولن يقتلعها احد[1]. وتذهب نظرية المؤامرة لتجيب عن سؤال افتراضي هو من قام بالتفجيرات الأخيرة بعد مقتل الحريري في لبنان لتسمع الإجابة أنهــا المعارضـــة، وتتساءل: ولماذا؟ يقول لك محدثك لأنهم يريدون أن يستعجلوا قدوم القوات الأجنبية إلى لبنان!

يـــستطيع الـــباحث المـــنقب أن يجمع عشرات الأحداث العربية الأخيرة وكيف فسرها كثيرون كتابة ونشراً بهذه الطريقة غير العقلانية مـــن التفسيرات، ولن يكون بعيداً عن الحقيقة إن توصل إلى نتيجة أن كـــثيرين يعـــتقدون بأن هناك فاعلاً خارجياً (شبحا) يأتي فجأة ليقوم بأفعاله الخسيسة في عالمنا العربـــي ويختفي من دون أن يترك أثراً، وهم يضعون نظارات الاطلاع على ما خفي، فقط يعرفون من هو؟

كـــيف نفسّر هذه الظاهرة التي تصاحبنا في صحفنا وفي محطات التلفزيون والبرامج الحوارية، وفي التحليلات المسهبة، هل يمكن تفسيرها بالرهاب والخوف المرضي من الآخر غير المرئي القابع في الظلام، أم هي رغـــبة دفيـــنة في تبرئة النفس من كل السلبيات والارتكان على الآخر الخارجي لوضع كل اللوم عليه، أم هو قصور في الفهم لما يجري حولنا في هذا العالم الذي يضيق على اتساعه؟ تلك أسئلة يبحث عنها كثيرون ولا يجدون لها جواباً شافياً.

لعـــل بعض التفسير يأخذنا إلى القول أنه لا توجد معايير نعتمد علـــيها في ثقافتنا، خصوصاً السياسية، كي نلجأ إليها عندما تتضارب المـــصالح والقـــيم، وهي متضاربة، كوننا بشراً أسوياء نعيش في مجتمع

---

(1) النص الحرفي لمقابلة صدام حسين مع سفيرة الولايات المتحدة (الرسمي) لا يشير من قريب أو بعيد إلى الأمر.

إنساني بات تضارب المصالح والأهواء فيه طبيعياً، تندفع مجموعات منا باتجاهات متناقضة، فنفسر الأحداث التي تجري حولنا كما نريدها خدمة لمصالح أو قيم نتمناها. هناك ضغوط اجتماعية وسياسية قسرية على المجتمعات العربية بدرجات مختلفة يجري تعويضها باللجوء إلى الخيال أو الرغبة الخاصة في تفسير الأحداث، نابعة أساساً من ضيق في قنوات التعبير السياسي الحر لذلك يجري الخلط في الثقافة العربية، بين ما هو مطلوب وما هو محمود، ما هو من المشاعر وما هو من الحقائق.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وما تلاها من أحداث سريعة ومتتالية في منطقتنا العربية، فجرت هذا التضاد الكامن في الثقافة العربية إلى درجات عالية من السخونة حتى أوصلته إلى (درجة من درجات الهلوسة) فظهرت خطابات الحقد على الآخر، ورفض كل ما جاء به، حتى ولو كان جيداً وعقلانياً، ووضع كل اللوم على هذا الآخر الشره غير الإنساني المتسبب بكل المخازي، وأول ضحايا هذا التوجه هو الثقافة الخلاقة المتسائلة. ولم يتقدم أحد حتى اللحظة، لتصحيح الأخطاء الفكرية التي قامت عليها ردة الفعل العربية، بل أنها مرض يزداد استشراء.

الإتهام من دون أدلة، أو الاتهامات المسبقة، تؤدي إلى سياسة شبيهة بالنازية يقتل فيها الأشخاص وينبذون بسبب أفكارهم، ويحول المجتمع إلى مجتمع مراقبة يعمم فيه الاتهام، ويفقد المجتمع الخصال الحميدة المتمثلة في المساءلة والمشاركة، أي المنحى العقلاني في التوجه والتحليل السياسي.

نظرية المؤامرة تُعوق إلى حد كبير التقدم المرجو في بلادنا العربية، وتعطل الحلول الواجبة والملحة في العديد من المسائل العالقة، فالإكراه الفكري "ثقافة" متأصلة لدينا، والمخالف هو إما "كافر" أو "عميل" أو

"مـــستغرب" وهي صفات سلبية في قاموس السياسة العربية، والشعور بالـــتفوق هو أحد مسببات كره الآخر أو رهاب الأجانب، في الوقت الذي تؤكد فيه كل الدراسات أن الوضع العربـــي في مجالات كثيرة لا يـــسر الخاطر. لو توخينا البساطة لقلنا إن المسألة السياسية لا علاقة لها بـــالخير والشر الروحي وغير الروحي، هي تتعلق بمسألة ما هو صائب وما هو غير صائب، ذلك له صلة بالعقل والمعرفة الحديثة، لا التمنيات. لقـــد حولت نظرية المؤامرة في عقل العربـــي مطلب التقدم إلى هدف عسير المنال.

(6)

بغداد بين ستالين وراسبوتين

أقـــوال كثيرة تناثرت حول إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حـــسين، معظمهـــا ذهب إلى النظر في التفاصيل الأخيرة حول الحكم وتنفـــيذه، وهي اللحظة الآنية التي - مع الأسف - استنـــزفت النقاش لـــدى قطـــاع واسع من الناس، وهو في مضمار الانشغال باليسير عن النظر إلى العسير[1].

العـــسير، ربما لخصت بعض مفاصله إحدى الفقرات الموجزة التي نقلت حديثا سريعاً دار بين أحد منفذي الإعدام، وبين المدان، وقيل إنها سارت كالتالي: (أنت دمرت العراق، وأفقرت الشعب، وجعلتنا جميعاً مثل الشحاذين، بينما العراق واحد من أغنى دول العالم، ورد صدام، لم أدمر العراق وحولت العراق إلى بلد غني وقوي).

إذا كـــان ما نقل صحيحا، ولا اجزم بصحته، إلا أنه نشر على نطـــاق واســـع مـــن مؤســـسة إعلامية مرموقة، قلت إن كان ذلك صـــحيحا، فهو يلخص بالقليل من الكلمات "مأساة شعب العراق" لـــيس الـــيوم فقط، ولكن في المستقبل أيضاً. فهو يتركز على ما فعل صـــدام، هل هو خير مطلق أم شر مطلق!! دون الدخول في كبريات القـــضايا وهي أهم بكثير للمستقبل من ذلك النقاش الفرعي. هناك

---

(1) تـــم اعدام صدام حسين في 30- 12 - 2006 في بغداد (الصور والتفاصيل على الإنترنت)

وجهتا نظر متضادتان إلى حد التصادم في تقييم أعمال وفترة حكم نظام صدام حسين عراقيا[1]، وهذا التضاد الحاد، هو الذي دفع البعض في بعض العواصم العربية إلى "فتح منزل عزاء" بعد إعدام الرئيس السابق. وهي قمة في مأساة "التفكير العربي السياسي" تجد تجلياتها في مظاهر أخرى من الخلاف السياسي الحاد والعدمي، لدى أنظمة وتيارات وأفراد في منطقتنا العربية، يغيب عن نظرها الإنساني، القدرة على الحكم بإنصاف معقول أو نسبي لمجمل نتائج سيرة نظام حكم قهر شعباً كاملاً بكثير من الإرهاب الذي تبنته الدولة، وقليل من النتائج الملموسة لقطاع ضخم من الشعب. علة ذلك أن "تقديس" الزعماء ورفعهم على قاعدة أعلى بكثير من قاعدة البشر تحد إلى درجة كبيرة من القدرة على الحكم المعقول على أعمالهم، وهو تقديس وإن بز به صدام حسين آخرين، إلا أن جذوته عالقة في الثقافة السياسية العربية، وهو يفوق الاحترام المقبول مؤسسيا إلى "تأليه" يضعه في مصاف المبعوث الإلهي أو الرئيس الضرورة. لا يأتيه الخلل من بين يديه ولا من خلفه. الهتافات التي نقل أنها قيلت في حق مقتدى الصدر إبان مرحلة الإعدام مثال آخر على بداية "التقديس" التي قد تُثمر في وقت ما "زعيما معصوما"... ومثلها بالضبط الهتافات التي تقال لزعماء آخرين نراهم بيننا اليوم، لا يحتاج المتابع أن يشير إليهم من أجل تضييق دائرة النقاش لا توسيعها. ذوبان الجمهور "الأعشى" لشكل الزعيم وكلماته وشعاراته، تؤدي عاجلا أو آجلا إلى عمى يقود إلى خراب الأوطان، وتكرر الدرس أكثر من مرة في فضائنا

---

(1) حكم صدام حسين العراق مباشرة من عام 1979 إلى عام 2003، ولكنه كان القابض على السلطة سنوات قبل 1979 حيث كان "السيد النائب" "المهاب" و"المطاع"

العربـــي المنكوب دون أن يفقه أحد الدرس أو استلهم النتائج. صدام حسين كان يمتطي "أيديولوجية" كلامية سحرت الكثير من السذج، دون بـــرنامج يحقق حدا من أدنى المصالح للناس. فلم يكن العراق في الخمـــسينيات أفقر منه اليوم، ولم يصبح العراق أكثر تعليما مما كان وقـــتها، وتبدد الحديث الصلف عند البعض أن "الهجمة على العراق" هـــي لتصفية نخبته المتعلمة! لقد وضح لكل عاقل أن "النخبة المتعلمة" هجـــرت العراق طوعا أو كرها أو دفن بعضها في تراب العراق بعد قـــتله دون محاكمـــة أو شـــهود!!. لقد انبهر البعض بالشعارات ولم يـــتحدثوا أو يراقبوا خواء البرنامج ومحدودية نتائجه، وما كان ذلك بـــالممكن في الـــسابق، واعـــتقد أنه صعب في اللاحق، حيث يتغنى الجمهور بالشعار وينام فقيرا جاهلا ومقموعا أيضاً.

لم يكـــن العراق في الثمانينيات والتسعينات من القرن الماضي وما بعـــدها أكثـــر حرية منه في الخمسينيات قبلها، كان باب الحرية يضيق أكثـــر كلمـــا ارتفعت أغنيات التمجيد وشعارات التحرير، ولم تكن النخـــبة القلـــيلة الحاكمة في عراق الخمسينيات أكثر ثراء هي وأفراد عائلاتهـــا أو أكثر تفردا بمصائر الناس، كما أصبح آل المجيد وآل صدام الذين كانوا يملكون حق "الحياة والموت" على الناس كل الناس.

مختصر الحديث أن نظام صدام لم يكن يملك برنامجا للعراق، غير إثـــراء القلـــة القـــريبة جداً وإرهاب الكثرة والتمتع بشكل مرضي بالسلطة[1] تحت مظلة شعارات قومية زاعقة، وكان يجد في قلة القلة

(1) كتـــبت كـــتب كثيـــرة في هذا الموضوع لفت انتباهي في موضوع استخدام الـــسلطة فـــي كتاب "كنت طبيبا لصدام حسين" للدكتور علاء بشير، صدر بالعـــربية مـــن دار الـــشروق - مصر، وترجم لعدد من اللغات. يصف فيه الكاتب اشكال من امراض السلطة لدى صدام وأقربائه.

المتملقة ما يبرر له كل ذلك وأكثر. ويترك لنا "الأدب" العراقي الحديث إن كان يسمى "أدبا" بالفعل، عشرات من قصائد التعظيم والتهليل إلى درجة "التأليه". كذبوا وصدقوا الكذبة، إلى درجة أن صحفيا ما زال يعيش بيننا كتب الأسبوع الماضي أن طارق عزيز قال له في ذلك الوقت، هل تعرف أن مفكر البعث الحقيقي هو ليس ميشيل عفلق، بل هو صدام حسين! بالطبع على سذاجة ما كتب وألف ميشيل عفلق نفسه! ويمكن أن تدبج كتب مستقلة وموثقة على ذلك التأليه الذي قامت به مجموعة ممن امتلك ناصية الكلم، خوفا أو تزلفا، ولاقت في كل ذلك نفسا بشرية ضعيفة ومهزومة من الداخل، هي نفسية صدام حسين الذي شق طريقه إلى السلطة "بالفتونة" و"التصفية".

أحد المثقفين الذين لا يشك في "إخلاصه" لنظام صدام حسين، يصرح، أن صدام قال له "أريد أن أموت شهيدا". قالها الأخير و لم يكن المستمع يفقه أن الفكرة ذاتها دليل على عميق شعور لدى الرجل أنه لن يموت في فراشه جراء ما ارتكب من آثام، وما كان بناء تلك الأبهة المؤلهة إلا من أجل شخص لا من أجل وطن، شخص لم يكن يمتلك برنامجا لوطنه.

دليل آخر على انتفاء البرنامج، فبعد كل هذا التاريخ من القمع عاد من جديد المجتمع العراقي إلى مكوناته حتى قبل الدولة، مكونات عرقية ومذهبية ومناطقية، لم يكن يملك الحكم السابق عدا الاحتفاظ بالسلطة، لا الرغبة ولا القدرة، على تذويب هذه المكونات، بل في السنوات الأخيرة عمل عن قصد مسبق على إنعاشها. تحرير فلسطين ومقاومة إسرائيل وبناء مجتمع حديث، وإشاعة العلم الحديث، ومحاربة أميركا، جلها إن لم يكن كلها شعارات للاستهلاك المقدم إلى جماهير

غير قادرة على التفكير المستقل لأنها سلبت منذ زمن القدرة على ذلك، إما ترغيبا للقلة أو ترهيبا للكثرة أو من خلال بناء منظومة فكرية تتسلط على عقول الجماهير. وتستنهض أحط غرائزها، ولو لم يكن ذلك لما فتحت بيوت العزاء، بدلاً من أن تفتح منتديات النقاش لدراسة معمقة تتساءل ماذا حدث ولماذا حدث؟ المؤسف أن الصورة داخل الإطار بعد شنق صدام حسين هي التي اختلفت، أما الإطار نفسه فمازال فكريا كما هو، يحوي صورا أخرى، وتستغل عواطف الجماهير ويغيب عقلها. الدرس الأعمق من كل ما تقدم أن "الشعارات" تغطي في منطقتنا كل الرذائل، وفقدان برنامج البناء الحقيقي الذي ينفع الناس، البديل لطريق التنمية الشاق والطويل هو إطلاق شعارات فضفاضة، وتصدير رموز، منها ظواهر تضخيم الصور المعلقة في الشوارع، ولا أكثر منها صور صدام في طرق وشوارع العراق التي اختفت لتظهر صور أخرى مختلفة في الشكل متساوية في المضمون. وكلما شاهدنا في عواصمنا تلك الصور قدرنا هشاشة النظام الذي رفعها.

الدرس الآخر هو أن الشعارات تستقطب البسطاء لتتبنى حكما قهريا يقود بعد ذلك إلى ما أراد صدام حسين أن يقوم به، وهو ترك "أسرة" من صلبه تحكم "ضيعة" العراق التي لم يرثها!! سُذج أو بسطاء أو مغرر بهم من يحسبون صدام حسين على "طائفة"، هو كان فوق الطائفة واعدم أعداءه أو من يحتمل أن يكونوا أعداءه كائنة ما كانت ملتهم، وبصرف النظر عما ارتكبوه من ذنب!! النكتة على القائد المؤله تعني الشنق. وفي الفضاء العربي أشكال متنوعة من "الصدامية"، الاختلاف فقط في الدرجة وليس في النوع. مع الأسف لم تطرح بجد وعمق مناقشة "الدروس الحقيقية" من مقتل

شـــبيه ستالين العربـــي، الأمر الذي قد يؤسس إلى أشباه راسبوتين عرب، الأول اصطفى شعارات القومية وآخرون يصطفون شعارات الدين.

(7)

الأعداء أذكياء غير عقلاء

نستطيع أن نُجرم ما وسعنا التجريم وندين بكل اللغات ما حصل في وسط لندن (يوم 7 يوليو 2005)[1]، ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن (الأعداء أذكياء) لقد استطاعوا أن يضللوا حتى شرطة سكوتلنديارد الموصوفة بالدقة والمتابعة من بين قوى الأمن في العالم، ويقتلوا عدداً من المسافرين الأبرياء في مواصلات لندن تحت الأرض وفوق الأرض، ولم تكن لندن الأمنية بغافلة عن احتمال وقوع مثل هذا منذ فترة طويلة. ولكنه وقع بشكل مفاجئ، ولا نستطيع أن نتجاهل أن الحدث وقع أثناء اجتماع القمة الدولية في بريطانيا، ولم يكن متزامنا مع الانتخابات، كما تم قبل أكثر من عام في مدريد، فلو تم قبل الانتخابات البريطانية الشهر الماضي لحاز حزب العمال أكثرية المقاعد، لأن حسابهم أن الشعب البريطاني على عكس الشعب الاسباني بعيد عن العاطفة المباشرة والسريعة، فالحسابات تبدو أدق مما يتصور البعض. قبل لوم الآخر وتدفق سيل الإدانات العاطفية، علينا أن نحاول التعرف على الأسباب التي تجعل بعض الناس يقومون بمثل هذا العمل وهو قتل الأبرياء بدم بارد؟ إنهم كُثر، ويبدو أن مصادر تمويلهم البشرية ليست بالقليلة.

---

(1) في 7 يوليو 2005 قامت مجموعة تدعي علاقتها بالقاعدة بعدد من التفجيرات في وسط لندن، كان لها ردود فعل في الدول الغربية كافة.

فلم يعد سرا أنه منذ سنوات أصبحت أجهزة الأمن الغربية تفتح عـــيونها واسعة على كل شاردة وواردة، قادمة من الشرق المنكوب، ولم يعد سرا أن (سمة الدخول) لبلدان أوروبا لم تعد سهلة أو ميسورة لأبـــناء الشرق الأوسط، كما أن ملفات سكوتلنديارد ليست مغلقة علـــى مفاهـــيم ومقـــولات تقلـــيدية، بـــل هي مفتوحة على كل الاحتمالات. لماذا حدث ما حدث؟ لا يستقيم التحليل أن تناسينا أن هـــناك في الإعـــلام العربـــي غير المنشور، واقصد به إعلام الإشاعة وإعلام التحليلات غير المنشورة إلا في الإنترنت، موجة من التعاطف ملحـــوظة تأييدا لما حدث، هذا التأييد أو الموافقة الضمنية منطلقه من مقولة أن بريطانيا ومعها أميركا، قامت وتقوم بإذلال العرب، ويشار هـــنا إلى ما يحدث في منطقتين عربيتين، واحدة أن للقوتين - أمريكا وبريطانيا - علاقة بشكل غير مباشر فيما يحدث في فلسطين، وأخرى بشكل مباشر وهي العراق. والحقيقة تلك لها وجهان، وجه صحيح، وربما تعرفه بريطانيا أكثر من المسؤولين الأميركيين، وهو أن الموضوع الفلسطيني موضوع مركزي في المعادلة التي تدفع إلى الإرهاب، أوهو ذريعة قوية يمكن تسويقها في بلدان الشرق الأوسط للحشد والتجنيد لتنفـــيذ عمليات ارهابية جراء ما يلاقيه الفلسطينيون من ذل ومهانة وتـــشريد، والثاني وان اختلف حوله البعض، واقصد العراق، لا زال يـــشكل هاجسا لدى كثيرين في غياب استراتيجية واضحة المعالم لما تريده القوتان هناك.

العـــراق الـــيوم في شبه حرب أهلية، والعراق اليوم له حكومة منتخبة أمام العالم، مع ذلك فإن الولايات المتحدة تصدر منها إشارات متناقـــضة كل التناقض تجاه ما يحدث هناك. فتارة تقف بقوة خلف الحكـــومة المنتخـــبة وتؤيدها على نطاق عالمي، وتارة أخرى تفاوض

(بعـــض القـــوى) خارج الحكومة، وهي ليست قوى معارضة بالمعنى التقليدي، بل لها علاقة بأحداث العنف المتفشية في العراق وكثيرا منها هـــو قتل عشوائي مبني على اصطفاف طائفي، فلا الحكومة العراقية عارفـــة بما تريد دوائر الولايات المتحدة وبريطانيا على وجه التحديد، كما أن أهل العنف في العراق يبشرون أنفسهم بقرب رحيل أميركا، وعلامـــة ذلـــك تفاوضها معهم، وهو دليل ضعف لا دليل قوة. هذا المـــشهد يجعل كثيرين في العراق أولاً وخارجه يضعون رجلهم الأولى في راحلـــة القوة المسيطرة اليوم، والرجل الأخرى في راحلة القوة التي يمكـــن أن تسود غدا. انتشار الإرهاب له خلطة متعددة المداخل، هو لـــيس فكرا فقط، بل فكرا معجونا ببيئة سياسية واقتصادية، وغياب التصور الأوضح للسياسات الغربية في هذه المنطقة كانت أحد العوامل المهـــيأة لبيئة الإرهاب. أما العامل الثاني في الخلطة، ولا أقول الأخير، هو غياب استراتيجية للتطوير والتنمية في منطقتنا العربية، لخص توني بلير رئيس الوزراء البريطاني الأسبق مواصفاتها مباشرة بعد الإعلان عن تفجـــيرات لـــندن الأخيرة، فقد قال (أن ما حدث تم باسم الإسلام، والإسلام والمسلمون منه براء.) هذا التعبير يجب أن يوضع تحت المجهر، خاصـــة في ضوء ما يحدث في العراق، وخصوصا على خلفية اغتيال السفير المصري الدكتور إيهاب الشريف بتهمة (الرِّدة)[1] وهو الرجل التقي، وفي ضوء تصريحات أبو محمد المقدسي الذي خرج من السجن الأردني لـــيعود إليه من جديد مؤخرا، وعلى خلفية كل الأحداث في العـــشر سنوات الماضية على الأقل. على الرغم مما استقر اليوم لدى

---

(1) تم اغتيال السفير المصري في العراق ايهاب الشريف في شهور يوليو 2005 وامتـــنعت مصر عن ارسال سفير لها إلى بغداد حتى ديسمبر 2009 عندما عيّن السفير شريف كمال شاهين.

كـــثيرين أن موضوع الدين لدى (الجهاديين) بأشكال الطيف الذي ينتمون اليها، ليس الخلاف فيه على محتوى العقيدة الإسلامية، ولكنه اخـــتلاف في التفـــسير السياسي، فهم في ذلك مستخدمون لنصوص يكيفوها على مرمى أهدافهم، ولكن الموضوع في صلبه هو (سياسي) بامتـــياز مغلـــف بنـــصوص دينية. توظيف الدين كان وسيظل معنا كمسلمين لفترة طويلة، الفروق بين المنتمين للعقيدة تكمن في البرامج المطـــروحة، مـــن اعتدال يدعو إليه البعض، إلى غلو وتشدد يمارسه آخـــرون، والإشـــكالية الـــتي طرحت نفسها على شريحة واسعة من المهـــتمين بالـــشأن العـــام العربـــي، هي تلك المساحة المشتركة بين (المتديـــنين) وبين (المتشددين السياسيين) فهناك حركات إسلامية لها طابع سياسي (سلمي) يختلط بها عدد من الدعاة السياسيين سرعان ما يـــستفيدون مـــن الأرضية الممهدة بعناية كي يجندوا بعض الشرائح، خاصة من الشباب، في مجال التشدد، ولعل المقابلة التليفزيونية الأخيرة مع أبو محمد المقدسي قد قدمت لنا صورة تكاد تكون متشابهة، فقد قدم بصفته (معتدل)، ثم تبين أن الفرق بينه وبين تلميذه الزرقاوي هو فرق في الدرجة وليس فرقا في النوع. وتكاد السيرة أن تكرر نفسها، فمـــن تجمعـــات في بر الكويت في الثمانينيات مختلطا بالمعتدلين! إلى دخـــول في دهاليز التشدد، إلى تجنيد يفضي إلى تطرف ثم اغتيالات عشوائية. ألم يحن الوقت للتيقن من أن (الأحزاب السياسية الإسلامية) في معظمهـــا هي أحزاب سياسية، إلا أنها دون استخدام غطاء الدين تفقـــد الجاذبية في التجنيد أو حتى القدرة عليه بين الشباب، فكل من تحـــزب تحـــت تلك الراية هو في الحقيقة يضر بجموع المسلمين، لأن السياسة متحركة والعقيدة ثابتة، ودليلنا على ذلك تلك الانشقاقات والخلافات غيرالمتناهية، التي تقع بين الرفاق، ولعل أكبر حزب سياسي

إسلامي، هم اليوم الإسلاميون السياسيون السابقون! وَهْمُ بناء "دولة إســلامية مــوحدة" تعيد ما كان من عصور ذهبين سابقة! هو وهم موجود في عقول القوى غير الحديثة في مجتمعتنا العربية، فهو وهم غير واقعي لا يستجيب لمتغيرات العصر، فالأجندة لدى هؤلاء هي أجندة سياســية أفضل وصف ايجابــي لها أنها خيالية ومثالية، ربما عبثية إلى حد كبير. ما نواجهه هو أن هذه الأجندة (المُكفرة) (الاعتزالية) يراها الــبعض أنهــا شوكة المواجهة، أمام تشابك معقد من المشكلات التي ليس لها أفق حل، حتى الساعة، غير التنديد من جهة والقتل من جهة أخــرى، وبعــض هذه الجماعات وان امتلك الوسائل والعزم افتقد التكتــيك، كما حدث في لندن فى 7 يوليو 2005، والتي كانت، أي لــندن، حــتى الأمس ملجأ معقولاً لمن يريد الفرار سلما بجلده. عدم القــراءة المتأنــية مــن الجماعات الكبرى للإسلام السياسي، للواقع الموضوعي السياسي والاجتماعي المحلي والعالمي، وعدم تقديمها للبدائل الواقعية التي تستوعب المكان وتعيش الزمان بكل متغيراته وتناقضاته، جعلــها أسيرة إيديولوجية ضيقة، غرزت رجلها في أماكن كثيرة من أفغانستان إلى السودان، مروراً بعدد من المجتمعات الإسلامية والعربية، سواء كانت في الحكم أو المعارضة، كما عرضت أطرافها للانخراط في دمــوية عبثــية تأتي بسوء العاقبة على كل معتنقي الديانة السمحة، وبــسبب طبيعة نشأتها في العصر الحديث[1] تحولت من (إحياء) كما يجب أن تكون إلى نكوص، كما هو في الواقع، واستنــزفت طاقات

---

(1) كثيــر مــن الدارسين يرون أن طبيعة ظهور الحركة الإسلامية في اواخر عــشرينات القرن العشرين (حركة الاخوان المسلمين) قد تأثرت بالتنظيمات الفاشية والشيوعية والنازية التي ظهرت في أوروبا من حيث التنظيم والحشد ووسائل التنفيذ.

لـــو أحـــسن توجيهها لكان حالنا أفضل منما نحن عليه اليوم، وهي طاقـــات لا ينقصها الذكاء، إنما تفتقد إلى العقلانية، وقد قيل حتى لو كان الحق معك عليك أن تكون ذكياً.

(8)

هل انتهى دور العسكر العرب في السياسة أم بدأ؟[1]

حفظنا عن ظهر قلب في السابق، بعد أن توالت العصب العسكرية على اغتصاب السلطة و(الثروة) في الكثير من البلاد العربية، وبعد فترة قصيرة من تجربة فيما يعرف اليوم بالليبرالية الديمقراطية العربية، حفظنا مقولة (الديمقراطيون العرب يقتلون الديمقراطية، ويوقّع العسكريون شهادة الوفاة)، كان ذلك منذ الخمسينيات حتى التسعينيات من القرن الماضي. حتى الأحزاب الأحادية العربية، التي ضمت بعض المدنيين، ارتكزت في طريق القفز للسلطة على العسكريين، وما لبث المدنيون فيها - وإن لم يحصلوا على أي تدريب عسكري - أن لبسوا (الكاكي أو الخاكي في بعض اللهجات العربية) تيمنا بالعسكر.

---

(1) كتب هذا المقال بعد ان قرر الجنرال محمد ولد عبد العزيز، الذي اطاح في 3 أغسطس 2005 بولد سيدي احمد الطايع، تسليم السلطة للمدنيين بعد انتخابات تجرى، وقتها تدفقت الاقلام العربية للاشادة بما سماه البعض "انتهاء مرحلة العسكر في السياسية العربية" في تلك الزفة كتب مؤلف المقالة يستمهل المتعجلين بأن العسكر لا يشبعوا من السلطة، وكان ان حدث ما توقعه بعد حين حيث عاد الجيش الموريتاني من جديد في أغسطس عام 2008 بانقلاب على السلطة المنتخبة!! لم يكن المقال تبوءا بل كان قراءة واقعية لأمور العرب!

دور العــسكر العــرب في السياسة كان متوقعا في فترة الحرب الــباردة، لقد كان العالم ينقسم إلى قسمين، رأسمالي واشتراكي، ومع الــتطاحن بين القوتين، والعرب في وسط جغرافي وتحت أرضهم تكمن الطاقة المحركة (النفط)، لم يكن بمقدور أية قوة (الاستغناء) عن الطموح للاســتيلاء على أرضهم وثروتهم، أو بمقدورهم هُم الانفكاك من ذلك الأسر.

ولم يعــد سرا أن معظم الانقلابات العسكرية العربية كان بموافقة أو حــتى بتــصميم أو علــى الأقــل بسماح القوة المنتمية للمعسكر (الرأسمالي). بين أيدينا اليوم وثائق دامغة تقول لنا ذلك، من دمشق إلى بغداد إلى القاهرة إلى طرابلس الغرب إلى الخرطوم إلى صنعاء. المشكلة أن بعــض العسكر وجدوا بعد حين أن (التنظيم الاشتراكي للمجتمع) القــائم على القمع والمنع، يسهل عليهم القبض على (السلطة والثروة). كل ذلك تم بالطبع تحت شعارات رنانة اكتسحت معظم عقول العرب من الخليج إلى المحيط.

انتهــى المطاف بفشل كامل للمشروع القادم من الثكنات، كان ارتكــازه علــى عــدد مــن الشعارات، لم يستطع أن يحققها، لا في (التحريــر) ولا في (التنمــية). ورغم أن العسكر قد ورّثوا عسكرا في الحكــم أو شــبه عــسكر، إلا أن الاعتماد كان على (حزب) واحد انضوت فيه سيطرة الدولة وجشع الأفراد.

تغــيرت الأحوال في الخمس عشرة سنة الأخيرة، تدريجيا ولكن بعمــق، ودارت الدائرة، وتبين أنه من شبه المستحيل لنظام استبدادي الحفــاظ علــى السلطة في مجتمع حديث يتفاعل مع المنظومة الاتصالية الحديثة بالغة السرعة كثيفة التأثير، كما تبين أن الحكومات المتحررة من الكــوابح الزجــرية القانونية على سلطتها المطلقة تصبح دائماً فاسدة،

ويسكت المفسدون عن المفسدين حتى تظهر (السرقة) في خطيئة ارتكبت هنا أو مجموعة أخطاء تمت هناك، كهزيمة عسكرية، أو جور على جار. كما ظهر للجميع أن أنظمة الحزب الواحد الأوحد، لا تملك حوافز أصلية لإعادة صياغة للنظام والحكم الذي يحقق مصالح الأكثرية أو يتواءم مع المتغيرات، فتحولت الأكثرية من مواطنين إلى موالين تابعين.

منذ عشرية خلت، وبسبب تفاقم الفشل من جهة، وعدم القدرة على تحقيق التنمية من جهة أخرى وتغيّر العالم المحيط، عادت النغمة العربية الجديدة للعزف مع المعزوفة الدولية (الاقتصاد الحر، الحريات الديمقراطية، حقوق الإنسان) والكثير من الأفكار الحديثة، حتى أصبحت خبز ومرق الصحافة العربية السيارة اليوم والإعلام الفضائي، وعادت بعض أقلام العبيد المروجين السابقين للدكتاتورية، تروج لما لم تفه به بكلمة أيام الصوت الذي لا يعلو على صوت المعركة!

إلا أن المعضلة أن الأماني الجديدة تلك لم تجد لها عربة اجتماعية تحملها إلى مقصدها الأخير ومحطتها النهائية، فلم تهيئ الفرص لظهور ونمو مجتمع مدني حقيقي وحديث في عالمنا العربي، من جراء القمع المتواصل للنخب المستنيرة، التي إما أقصيت أو صمتت أو هاجرت أو ارتضى بعضها التمرغ (بتراب الميري). هنا جاءت الفكرة الجديدة وهي العودة للعسكر من جديد، ولكن بشروط جديدة، فبدلا من توقيع شهادة الوفاة للديمقراطية طلب منهم هذه المرة توقيع شهادات الميلاد.

تجارب العسكر بالاتجاه المضاد أيضاً مشهودة، فهناك تجربة عسكر تركيا، الذين تدخلوا في شؤون الدولة متى ما أصبحت سفينة الدولة في رأيهم يحدوها الخطر، فهم انتهوا إلى أن يكونوا (بيضة القبان) للحفاظ على الدستور وتطبيقه، أما المفاجأة والتي هي ليست مفاجئة، فهم

عسكر موريتانيا، الذين بدأوا اليوم بتحضير شهادات الميلاد لديمقراطية معقولة في تلك البلاد، عن طريق تنظيم هياكل سياسية، والسماح لكل القوى بأن تتنافس في ساحة السياسة، بضمانات، من بينها عدم تدخلهم، أي (الجونتا العسكرية) في صيرورة المسيرة القادمة، والامتناع حتى عن ترشيح أنفسهم.

هذه الروح العسكرية الديمقراطية، على ما في المفهوم من تناقض، نجد لها أصولا في العسكر المصري، فيما عرف اليوم بأزمة (مارس 1954) التي طالب فيها بعض العسكر (من مجلس قيادة الثورة المصرية) وقتها، بالعودة إلى الديمقراطية وحكم الأحزاب، إلا أن شهوة البعض (للسلطة والثروة) قد أفسدت ذلك المسعى، ليس من دون شعارات ضخمة، وعواطف نبيلة خدعت بسطاء القوم.

العسكر العرب حصلوا على امتيازات ضخمة في مجتمعاتهم، من بينها أنهم لكونهم أعدوا للحرب، لم يحاربوا، باستثناء قلة قليلة منهم، معظم العسكر العرب من الضباط في الخمسين سنة الأخيرة ماتوا في فراشهم، بعضهم أصبح من أهل الجاه والمال والسلطة، كما أن الامتيازات التي حصلوا عليها في حياتهم فاقت كل امتياز، مرتبات كبيرة في مجتمعات فقيرة، وسلطة غير محدودة على رؤوس الفقراء، واستهتار كامل بكل من العلم والقانون.

أصبح الضباط العرب في كثير من الدول (مبشرين بالحصانة) حتى أدمنت وسائل الإعلام (شرائط السينما والتلفزيون بعدها والصحف قبل هذا وذلك) في تقديم الضابط لكونه أيقونة المجتمع وهوى المراهقات.

علينا أن نتذكر العسكر على الجانب الآخر من الصورة، في إسرائيل، فقد تداخل العمل السياسي بالعسكري، فأصبح عدد من

ضباط سابقين في الجيش قادة لإسرائيل، الخلاف أنهم قد التحقوا بالأحزاب المدنية قبل ذلك، وانتموا إلى المجتمع المدني. المقارنة مجحفة بالطبع، حيث توفر مجتمع مدني وقانوني لهم لم يتوفر لنظرائهم العرب، بسبب زملائهم العرب أيضاً من أهل العسكر.

بعد كل الأزمات السابقة التي مرت بنا وما يزال بعضها عالقا في الحلق، أمام بعض العرب تجربتان لا غير في الوصول إلى الحرية المبتغاة، إما تحرك الشارع في انتفاضته التي رأينا ألوانها المختلفة في السنوات الثلاث الأخيرة، منها الزهري والأرجواني أو البرتقالي إلى آخره من الألوان[1]، وهو أمر لا يبدو أن الأرض العربية مهيأة له بعد، أو أن ينخرط العسكر العرب من جديد في التغيير إلى الأفضل، هذه المرة من أجل تغيير مشروط، وهو مسايرة هذا العالم الكبير المتنوع باحترام الديمقراطية والتعددية وإعلاء حقوق الإنسان.

يكتشف العاملون مع العسكر الذين امتطوا السياسية، في نهاية الأمر، أن الطريق مسدود، والمثال هو السيد عبد الحليم خدّام، وإن تكن إفاقة متأخرة، إلا أنها ذات دلالة، إفاقة الأستاذ عبدالحليم خدام الأخيرة المحمودة، الذي وجد نفسه أمام خيارين، إما رضوخ إلى العسكر أو موافقة تامة لأهل (الميري) التابعين، فلا مكان لرأي آخر غير ذلك ولو كان اختلافه طفيفا.

وتجربة السودان ذات الدورة الكاملة في العقود الأخيرة[2]، تنبئ أيضاً عن المسيرة ذات الأفق المسدود، وفي الاحتفال الأخير بالعيد الخمسين لاستقلال السودان، أصبح التوجه لما ليس منه بد، المشاركة

---

(1) الاشارة هنا إلى مجموعة (الانتفاضات) التي حدثت في أوروبا بعد تخلخل سلطة السوفييت، وكذلك في دول وسط اسيا.

(2) يناير عام 2006، وقد حضر الكاتب شخصياً هذا الاحتفال.

في السلطة والثروة، محاربة الفساد، أو رخاء حقوق الإنسان، الاعتراف بالتعددية والأحزاب، إلى آخر المقولات العالمية المستحبة. يقوم بتنفيذها عسكريون. يبقى سؤال: هل تحقق تلك الخطوات أهدافها أم لا؟ ذلك أمـــر آخـــر لا يـــستطيع أحد في هذا الوقت المبكر أن ينبئ به، إلا أن الإشارة هي لتأكيد التوجه الجديد، مع تأكيد عقم التوجه السابق[1].

الـــسؤال الـــذي يبدو أنه لا يسبق زمانه هو: هل يعود العسكر العـــرب، لكونهم القوة الاجتماعية المنظمة الوحيدة والمنتمية إلى وسط اجتماعي مقهور، في فضاءات العرب الحالية، إلى لعب دور جديد يُكفّر عـــن دور ســـابقيهم باحتضان الديمقراطية ووضع مجتمعاتهم على سكة الـــتطور بعد طول اغتراب؟ ذلك سؤال مطروح لدور جديد، قناعتي المبنية على قراءة الاحداث هي ان العسكر العرب لم يفطموا من السلطة بعد!

(1) يـــتجه السودان اليوم (2010) إلى معضلة أخرى هي الاستفتاء في الجنوب، فهو ان حدث وفصل الجنوب كارثة وان لم يحدث الاستفتاء كارثة أكبر.

(9)

ظلام القومية[1]

عُقــدت مؤخراً في الكويت ندوة حول "الإصلاحات العربية" أقامها مركز الدراسات الإستراتيجية في جامعة الكويت، بالاشتراك مــع جمعــية العلوم السياسية الأردنية[2]، وهي واحدة من سلسلة ندوات أقيمت على مساحة كبيرة من الأرض الثقافية العربية. قُدمت في الــندوة ورقة عن "الأمن القومي العربــي"، وكان تعليقي العام علــى الــورقة أن (الأمن القومي العربــي، كالوحدة العربية) هي مــزارات وهمية يستحسن البعض زيارتها ثقافياً، لكنها ليست ذات معنى واقعي، وهي جزء من "الهوية العربية" المنشطرة على نفسها!. ذلــك التعليق أثار بعض رُدود الفعل من أصدقاء، ربما يختلفون معي في الــرؤى، وربما لا يزالون مقيدين بقيود الفكر الصلبة، وهي أكبر واقــسى مــن قيود السجّان. إلا أن ما سرني هو قراءتي في جريدة "الحــياة"، والسنة الماضية تلفظ أنفاسها، وبعد أيام من تلك الندوة، مقالاً للصديق المفكر كريم مروة (29 كانون الأول/ديسمبر 2003) وكان بعنوان مثير للغير من أمثال من ناقش اطرُوحتي الناقدة للقومية

---

(1) مــثل قــضايا أخــرى في ثقافتنا العربية فكرة "القومية" لم تؤصل بعيداً عن التعصب، وبالتالي فإن هذا المقال محاولة أولى للتاصيل.

(2) عقدت الندوة في اواخر عام 2003 ومن ثم اصدر مركز الدراسات والبحوث الاســتراتيجية اورقهــا في كتاب في ابريل عام 2004 والكتاب الذي يشمل البحوث تلك موجود على موقع المركز الالكتروني.

مــــن الأصدقاء، في ذلك اللقاء الكويتي - الأردني. اذ تساءل: ماذا يعني أن تكون عربياً!

لــــيس المقـــام ترديد ما كتبه المفكر كريم مروة، إلا أن البحث ذا صــــلة، فالمتفق عليه عالمياً وعقلياً أن "الدولة" هي جوهر ومحور "العالم السياسي"، و"الدولة" العربية ليست استثناء من ذلك، فلا يجوز في عالمنا الـــــذي نعيش فيه اليوم أن نستمر في الاختباء خلف أصابعنا لنقول أن "الدولـــة العربية" غير موجودة، وان وجدت فهي مؤقتة، الموجود هو "الدولـــة القومـــية العربية"![1] باسم الدين أو القومية ارتكبت حماقات ضخمة، إنها أكثر من جرائم بل حماقات سوداء، فقد أصبحت القومية تـــشكل عبــئاً من جانبين، الأول على تطور "الدولة" العربية، والثاني "الوقـــوف أمام العولمة" باتصال العرب مع العالم الحديث. هذه المقاومة "القومية" ليست حكراً على العرب، بل هي منتشرة في أماكن أخرى، وهي تتراوح في الشدة والتأثير، فقومية "الهنود، الهندوس" ضد الآخرين مــــن المواطـــنين الهنود كادت أن تُؤدي إلى حرب أهلية هندية، ونسبة التـــصويت ضد اليورو "العملة الأوروبية" من جانب مواطني الدنمارك، هي تعبير عن القومية بشكل ما. ضمور المفهوم أو خلطه في العربية بين القومـــي "الخاص بالدولة المستقلة"، والقومي "فوق الدولة" هو ضمور تاريخـــي، وفي التـــرجمة تتضح الأمور جلية، فالوطني هو قومي لديهم، ومفهـــوم "القومي والوطني" لدينا متطابقان! القومية فات زمنها، فهي تقـــف في وجـــه أي حل للمشكلات الصراعية في عالم اليوم، خذ ما حـــدث في قـــبرص الجزيـــرة الصغيرة التي قسمت إلى شطرين، عنف

---

(1) لا زال البعض يصر لفظا للاشارة إلى "وطن عربي" بدلاً من عالم عربي!!
رد على هذا المقال بوجهة نظر مخالفة السيد سليم الحص، في جريدة الحياة ونشر مقاله في 8 يناير 2005.

القوميات ضد بعضها في أفريقيا أرسلت ملايين من البشر إلى قبورهم، مـــا حـــدث في كوســـوفو، وفي تيمور الشرقية وفي غيرها من مناطق الصراع العالمي الناشبة حتى اليوم، هي أمثلة متكررة. القومية "في البلاد المـــوحدة" مثل إيران أو الولايات المتحدة، على سبيل المثال لا الحصر، عقيدة تُمجد الأمة، وتعتبرها قيمة جوهرية، وهي تؤثر إلى حد بعيد في شـــعور المواطـــنين وارتـــباطهم اليقـــيني بهوية واحدة. هذا في الدولة "الوطنـــية"، أمـــا القومـــية، عبر الدولة، حتى وان كانت ذات نسيج مـــتقارب، فمن الصعب الحديث عنها كـــ "قومية"، في الوقت الذي يدخل بعض تلك الدول مع غيرها في حروب ومشاكسات وتنافس لا حصر له، على الحدود، وعلى الموارد. فالقومية هنا تعني الحصول على أكـــبر قـــدر من النفوذ والهيمنة، على الجار الضعيف أو الصغير. يعتقد الأشـــخاص الـــذين تشربوا فكرة القومية أن استقلالهم وقدرتهم على الـــتحكم في مصيرهم هي ميزة "ثقافية" مرتبطة بأمنهم، وغالباً ما يظهر في الموقـــف القومي، شعور بالتفوق على الآخرين، بالإضافة إلى الرهبة مـــن الأجانب، وتظهر القومية في أوجها حين ما تكون الأمة في حالة حرب. حالة العرب، كما اقترب منها كريم مروة، ليست حالة "قومية" بـــالمعنى الكلاسيكي، ولا هي حالة "دولة"، وفي هذا تشوّش لا حد له. فترتفع المطالب الشعبية العربية ارتكاناً إلى ما اختمر في وعي البعض من أننا في "حالة قومية"، وتتنافر المصالح بين "الدول" إلى درجة الاحتراب الساخن أو البارد.

في الحالـــة العـــربية يبدو الاحتماء بالجماعة العربية انتماء ثقافياً، وحـــتى هذا وكما في حالات أخرى، يظهر الشعور "القومي" قوياً مع الصعود الدكتاتوري أو حتى الفاشي. القومية هي حالة فاشية من نوع ما خاصة إذا اقترنت بالتعصب، لها نظرة تفوق عن الآخر وعليه، ومن

الملاحظ أن القومية تكون ساكنة في المجتمعات الديموقراطية أو حتى شبه الديموقراطية.

لعل من أهم ما قدمه الدارسون في "القومية العربية" أن من نادى بهـــا في ما بعد الحرب العالمية الثانية هي الحركة الناصرية في مصر، إن صـــحّت التسمية، فقبلها كان التوجه "المصري" وطنياً في مصر وأكثر بروزاً في الدعوات السياسية، بل كان العرب في الدعوة الوطنية المصرية "شـــرقيون". إلا أن التـــناقض هـــو أن بعض "الشرقيين" كان لديهم امتـــيازات تقدمها الدولة الحديثة ما قبل الاستقلال، كان الليبـــي مثلاً أو الفلسطيني يستطيع أن يتعاطى التجارة دون كثير من القيود في مصر، وكـــان التونـــسي أو اللبناني يعيش ويعمل و"يغني"[1] من دون عوائق. بدأت العوائق مع النظام الذي أدعى "القومية" ومن يدرس القوانين التي صدرت في الخمسينيات وما بعدها في مصر، يجد تلك الظاهرة واضحة للعيان!

أمـــا المثال الأكثر وضوحاً فهو الحالة العراقية – السورية "البعثية" فـــرغم الحـــزب الواحد، ضرب الفراق جُذوره بين أهل "الأمة العربية الـــواحدة ذات الرســـالة الخالـــدة". حتى في الدول التي أرادت تطبيق ايديولوجـــيا مختلفة عن القومية في شرقنا، كمثال الجمهورية الإسلامية الإيـــرانية، فهي لا تزال خاضعة للسلوك "القومي" في معظم تصرفاتها، لقـــد مُـــنع أحد المرشحين للرئاسة الجمهورية من التنافس بسبب عرقه العربـــي، ولا يزال كثير من الرسميين الإيرانيين، رغم معرفتهم باللغة العـــربية، خـــيراً من بعض أبنائها، يُصرون في اللقاءات المختلفة على الـــتحدث بالفارســـية، بل إن حرباً إعلامية شعواء اندلعت إذ أُرسلت رســـالة إلى طهـــران، كتب على غلافها، الخليج "العربـــي" بدلاً من

---

(1) كما في حالة آل الأطرش.

الفارسي! الدكتاتورية تطرب لإشاعة الشعور القومي، بسبب ما يشكله هـذا مـن حشد وجهوزية رخيصة الثمن، فقد أطلقت ماكينة صدام حـسين الإعلامـية في سنوات طويلة تعبير "المجوس" على الإيرانيين، كـونهم شـيعة، رغـم وجود أكثرية شيعية في العراق. بل إن حسن الترابـي عندما أراد أن يحوّل السودان إلى قاعدة متقدمة للثورة العالمية، أطلـق علـى تنظيمه "الجبهة القومية الإسلامية" ولم يتوقف أحد من حاشيته أو مريديه، ليسأل كيف؟ "قومية"، و"إسلامية" في آن واحد!

أمـا القـسم (العظيم) لبن لادن فقد قال: (اقسم بالله العظيم أن أمـريكا لـن تعيش بسلام قبل أن يسود السلام فلسطين، وقبل رحيل جيش الكافرين عن أرض محمد) بصرف النظر عن بساطة التفكير ذاك، فـإن هـذا القـسم إن لم يكن (وطنيقومي) فما هو؟ القومية تتجاوز الاعتراف بقوميات أخرى، أو بآخرين مختلفين عنها، لهذا عانى الأكراد ما عانوه، إبان صعود الدكتاتورية القومية، وكذلك عانى أهل الجنوب في السودان، وانفتح جرح الامازيغ في الشمال الإفريقي، ودخلت بلاد عربية أخرى في حروب أهلية أكلت الأخضر واليابس، وشردت ملايين كمـا قتلت ملايين آخرين، كل ذلك باسم تفوق القومية على غيرها. القومـية اليوم تقف حجر عثرة أمام التقدم العربـي، فباسم القومية، نُظر إلى الدولة العربية وكأنها موقتة، وأُجلت التنمية بإشكالها المختلفة، سياسـية واقتصادية في انتظار الخلاص القومي، واستبيحت شعوب ولا تـزال تحـت هذا المعنى الضبابـي، وانتشر مجتمع المراقبة واستخدمت الـرموز والمسميات خدمة لهذا الوهم الكبير. ولا أظن أن قدرة المجتمع الأهلي العربية قادرة على التوسع في ظل مثل هذه المفاهيم التي تستخدم مـن بعـض الساسة لتخدير الناس، والزعم بالاحتكام إلى مصالح لا يلمـسها أحـد! في عالم اليوم تحل القضايا القومية مؤسسات دولية،

فكـــثيراً مـــن خلاف الحدود العربية وغيرها حل عن طريق إما الأمم المـــتحدة، أو محكمـــة العدل الدولية، وبقيت "القومية" لزيارة البسطاء وإلهـــاء الُـــسذج. ذلك هو الوجه الظلامي الذي آن لنا أن نضعه أمام مشرحة العقل النير. ولكن أليس من مخرج؟، بلى، فهناك مصالح وجب تنظيمها وتعظيمها، وترتكز على صيغة عقلانية اذا قامت الدولة العربية علـــى قاعدة المشاركة، وإن صلح الجزء، صلح الكل، أليس ذلك هي خبرة شعوب أخرى! وهو أيضاً الجزء المضيء من القومية الحديثة.

(10)

الديمقراطية التوافقية والانتخابات في الكويت

في هـذا العالم العربـي الموبوء باحتمالات "الحروب الأهلية" لا مخـرج لإدارة المجتمع إدارة سلمية إلا بالتوافق على إعمال "ديموقراطية وتوافقية" تعرف قوى المجتمع الداخلة فيها أنها "أطراف" في لعبة سياسية لا تستطيع أن تنفي الآخر وتهمشه كما لا يستطيع الآخر أن يهمشها. بذور الحروب الأهلية هي أن يعتقد طرف أو تحالف أطراف أنه أو أنها تـستطيع أن تحمل المجتمع كله على الانحياز إليها وتخرج الآخرين من اللعبة.

الـثقافة الـسياسية العربية التي سادت لفترة أكثر من نصف قرن تحضّ على تهميش الآخر وتغييب فئات اجتماعية أو سياسية عن مركز القرار، ووصل مثل هذه الممارسات إلى احتقان كلي أو جزئي أنتج إما حروباً أهلية في الأول وإما اختناقات سياسية في الثاني.

ولا ينقصنا حتى الآن الكثير من الشواهد العربية، فبلاد مثل لبنان اعتقدت طائفة أو أخرى أنها تحمل لبنان كله إلى جانبها وفشل الجميع في أن يفعلـوا ذلـك، ودخلت الأطراف في حرب أهلية بشعة أول ما فعلـته أن هـدمت البلاد على رأس أهلها وشرّدت العباد في أطراف الأرض، ولا يـزال البعض يقاوم التوافقية على أمل الغلبة! أما التجربة

السودانية فكانت افضح وأنكى، اذ أصبحت البلاد حقيقة لا قولاً على شـفا التقـسيم المناطقي والعرقي. ولا يزال العراق يسعى إلى توافقية مفقـودة أدخلـت شعبها في نفق ضياع حتى الأمل، ومن يتابع أخبار العـراق اليوم يجد نفسه متحسراً مع المواطن العراقي، على عبثية عدم حمل المجتمع على مسار واحد أو الحرب الأهلية.

في الكـويت الأمـر مخـتلف، فقد سارت التجربة الكويتية بين الـنهوض والأفول في تجربة ديموقراطية يحفها دستور حديث. ولم تسلم التجـربة من الخطأ والتراجع. اذ تم حل مجلس الأمة المنتخب من أجل مراجعة المسار أكثر من مرة، وكان الحل خارج نطاق الدستور في عدد من المرات. هذا الأمر لم يعد قائماً فقد حل المجلس في السنوات الأخيرة (عـام 1999 وسـنة 2006، 2008)[1] حـلاً دسـتورياً، أي نودي للانتخابات في اطار الفترة الزمنية التي قررها الدستور.

دسـتور الكـويت مرّ عليه زمنياً ما يقرب من نصف قرن، وفيه اعتـراف بأن ينظر فيه بعد خمس سنوات من تطبيقه، وهو أمر عقلاني ومنطقي، اذ تتغير أحوال المجتمع من حيث العمران والمعاش والسكان. إلا أن محـاولات التغـيير أصابها ما أصاب بعض النخب السياسية من "فقـدان الثقة" المتبادلة، وقد وجد الكويتيون اليوم أن عدد مواطنيهم تضاعف اثنين وعشرين مرة منذ العمل بالدستور، ولا يزال ممثلوهم في الـبرلمان بعدد الخمسين عضواً[2]، وهو العدد نفسه الذي انتخب منذ نـيف وأربعين عاماً. مثل هذه المشكلات العالقة يحتاج إلى بناء توافق

(1) حل المجلس للمرة الثالثة في عام 2009.

(2) يـشكل الناخبون الذين يحق لهم الانتخابات في عام 1961 عند أول انتخابات فقط 5% من نسبة الذين يحق لهم الانتخاب في عام 2009. دليل على التغير الديمقراطي الضخم الذي مرت به الكويت.

عقلاني يساير الزمن ولا يفرّط في الثوابت، إلا أن الثقة من أجل توافق على أعلى مما هو قائم لم تتوفر بعد.

تـــأتي انتخابات حزيران (يونيو) 2006 على خلفية اختلاف بين قـــوتين في المجلس الذي أنهيت ولايته، غالبية تريد تغيير حجم الدوائر الانتخابـــية إلى حجم أكبر تعتقد أنه يخلص المجتمع من مثالب الدوائر الـــصغيرة التي يمكن للمال السياسي أو الصلات القرابية أو حتى شراء الأصـــوات مـــن أن يؤثر على نتائجها، وأقلية ترى أن الحال يجب أن يتبقى على ما هي عليه، وكان الطريق الأفضل لتلمس حل معقول هو العـــودة إلى الناخب، خصوصاً أنه ناخب فطن، وأيضاً سيكون معززاً بزميلته الناخبة.

وللمرة الأولى تجرى انتخابات برلمانية عامة في الكويت بمشاركة المرأة، ومن الملاحظ أن أعداد النساء المسجلات في قوائم الناخبين تفوق أعداد الرجال. **وما هي إلا أسابيع قليلة حتى نعرف مع العالم الإجابة عـــن السؤال المعلق وهو: هل تخترق امرأة كويتية الحصار السياسي إلى قبة البرلمان أم تقف "التقاليد" حجر عثرة أمامها؟ علينا أن ننتظر قلـــيلاً.** عندها سنرى ما إذا كان الحديث عن الحق السياسي للمرأة في الكويت والذي ناضلت من اجله طويلاً هو منحصر في حقها النسبـــي في ممارســـة الانتخاب فقط، أم أنه حق مطلق للوصول إلى سدة البرلمان للمـــشاركة في الـــرقابة والتـــشريع، عـــندها سنعرف هل أن العامل الاجتماعـــي والثقافي هو الذي سيقرر، أم أن هناك وعياً سياسياً جديداً يتشكل في الكويت.

في مسيرة مشاركة المرأة العربية السياسية وجدنا أن التجارب تقـــول لنا أنها "فاعلة سلبية" حتى الآن. فكثير من النساء العربيات اللائـــي وصـــلن إلى البرلمان (العربـــي) هن فاعلات سلبيات، إما

بسبب أن النظام يريد تزيين الصورة السياسية، أو بسبب دفع عائلي (زوجة زعيم قتل أو سجن أو شقيقة زعيم كبير). **ربما تختلف الصورة في الكويت، هذا في حال وصول امرأة إلى السدة البرلمانية.**

وحتى لا يندهش البعض، فإن المرجح أن لا تصل أي امرأة إلى السدة البرلمانية في هذه الدورة، لعدد من الأسباب بعضها موضوعي، وبعضها ذاتي. الموضوعي أن الانتخابات وتوقيتها فاجآ الجميع. كلٌّ كان يعتقد أنها ستكون في صيف السنة المقبلة 2007 إلا أنها تحركت بفعل عدد من القضايا إلى قبل ذلك الموعد بسنة. فلم يكن هناك استعداد من جانب النساء وكثير من الرجال لهذا التوقيت المفاجئ، مما يُفوت (عليهن) خصوصاً فرصة ثمينة للاستعداد للمعركة، ولأنها معركة حاسمة بعد جدل طويل حول تغيير الدوائر الانتخابية، فالكثير من الناخبين سيرى أن القضية إما مع وإما ضد، لذا فإن الالتفاف الاجتماعي لتوصيل ولو امرأة واحدة على سبيل التفاخر إلى السدة البرلمانية لا يحظى بزخم شعبي كبير، لأن الأجندة تتفوق عليها أمور أخرى ملحة. أما الأسباب الذاتية فهي كثيرة تختلط فيها الثقافة الشعبية بنظرة المرأة إلى نفسها وإلى غيرها في المجتمع، الذي لا يزال في الغالب مجتمعاً ذكورياً، يشكل فيه خضوع المرأة للرجل قيمة ايجابية لا سلبية[1].

---

(1) كما توقع الكاتب وقتها (لم تفز أي من المرشحات بأية مقاعد في انتخابات 2006 أو 2008 إلا أنه في انتخابات 2009 حصلت المرأة الكويتية على أربعة مقاعد، وكاد الخامس ان يتحقق! إلا أن هذه المقاعد الاربعة ربحت بسبب احتقان شعبي تولّد عن احباط للممارسات في المجالس السابقة لم تكن مقبولة. والاحتمال الأكثر قرباً إلى المنطق الاجتماعي هو أن المرأة الكويتية لن تحقق أكثر مما حققته في عام 2009.

سيتسرّع كسالى المعرفة في القول بأن النساء في الكويت لا تأثير لهن على الأحداث. هذا غير صحيح، بل هذا حكم متسرع تكذبه الحقائق المعروفة، فانتخابات الجمعيات التعاونية والانتخابات الطلابية تساهم فيها النساء في الكويت منذ زمن. وإذا كانت ممارسات تلك الانتخابات رفيق نستأنس به، أو أصل يقاس عليه، فإن مشاركة المرأة تتعدى عدد الرجال في كلا الحقلين، وفي دراسة أخيرة لانتخابات الجمعيات التعاونية، تبين أن عدداً من بين من توجهوا إلى صناديق الانتخاب كانت للمرأة غالبية الثلثين تقريباً. وهذا يحدث في اتحاد الطلبة. إذا قسنا على ذلك فإن النساء سيكون لهن الصوت الحاسم والمؤثر في نتائج الانتخابات النيابية المقبلة، علماً بأن عدد المسجلين من النساء في معظم الدوائر يفوق عدد الرجال، بسبب الحجر القانوني على رجال الأمن والجيش من خوض الانتخابات كناخبين.

مساهمة المرأة الكويتية في الانتخابات ستكون حاسمة في الترجيح، من حيث التصويت لبعض المرشحين. ومن اللافت أن بعض رجال مجلس الأمة السابق (الذي اقرّ بعد مقاومة) حق المرأة في الانتخاب والترشيح، وفقد ولايته أخيراً، وكانوا في أقصى المعارضة لفكرة دخول المرأة المعترك السياسي من حيث التكييف الديني أو السياسي أو الاجتماعي، هم اليوم أكثر من سارع في التحضير للجان المرأة، وبعضهم رسم على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يتصور معهم صورة جماعية إشارة إلى "مناصرة حقوقهن السياسية". انقلب البعض على ما كان يروج له، وهذا ما يؤكد خطورة خلط الممارسات السياسية والاجتماعية بما هو ثابت في الدين، فالدين ثابت لكن المعرفة الدينية متغيرة، مع اتساع استخدام العقل وتضييق فرص النقل.

ومــن الملاحظ، رغم أن المعركة الانتخابية شهدت في تحضيراتها الأولى تكثــيف اللقاءات النسائية لحشد الأصوات لمرشح أو مرشحين يــرون فــيهم الكفــاءة، ويتجادل بعضهن في الملتقيات أو في مكاتب العمل، بل أن بعض الأسر غيّرت بناء على اقتراح النساء خططها لبدء العطلة الصيفية فأرجأتها حتى انتهاء الانتخابات آخر الشهر الحالي[1].

دخــول المــرأة الكويتــية إلى ساحة الانتخابات والترشيح يعني إعطاءهــا زخمــاً وفرصة لتوسيع وعي سياسي كانت بعيدة عنه لفترة طــويلة. وتؤسس الخطوة تناقضاتها كمثل أي تحرك اجتماعي، فتتحول إلى تكوين خواصٍ جديدة في المجتمع يؤسس عليها. فلن يكون المشرّع قادراً بعد الانتخابات المقبلة على تجاهل مطالب المرأة، خصوصاً الحياتية أو المطلبــية مــنها. لذا فإن المتوقع أن تتفجر مطالب جديدة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية وزواج الكويتيات من غير كويتيين والعكس أو الإســاءة العضوية للمرأة والطفل، أو حقوق التملك والتجنس، التي برز بعضها اليوم في الخطاب الدعائي لبعض المرشحات.

إذا كــان ثمة إصلاح مطلوب في المدى المتوسط كي تقوم المرأة بــدور سياسي ايجابــي في المجتمع، وليس سلبــي كما هو متوقع في الــدعم والتــرجيح فقط، فإن علينا أن نصلح ابن العم الفقير للسياسة واعــني بها الثقافة، فالثقافة العربية، ومن ضمنها الممارس في الكويت، تؤســس لوضــع المرأة في الدرجة الثانية في التعاطي الاجتماعي. ومن القصص القريبة إلى تفسير ذلك المعنى أن الديمقراطية التوافقية الممارسة في الكــويت لا زالــت لم تهــضم مشاركة المرأة، حتى عندما دخلت الوزارة، فكانت الوزيرة الأقل مسائلة من قبل النواب، كونها امرأة!

(1) شهر يونيو 2006.

نتيجة الانتخابات المقبلة في الكويت ستقرر ما إذا كان حرمان المرأة من لعب دورها السياسي إرادة سياسية أو موقفاً اجتماعياً. ولعلي استبق النتائج بالقول أنه موقف اجتماعي لا تنفع في تقويمه القوانين والتشريعات بأكثر مما ينفع في إصلاحه "إصلاح الثقافة المجتمعية". وسيكون مفيداً في هذا الأمر مراقبة الحملة الانتخابية، وردود فعل الإعلام العربي والعالمي حولها. أنها تجربة تستحق أن ترصد، إلا أن المفاجآت فيها ستكون قليلة.

(11)

لبنان صراخ الولادة أم الموت؟

لبـــنان وطن يعيش بين أرجائه ملايين أربعة من البشر، والعشرة ملايـــين الـــباقون مبعثرون في القارات الخمس، وعلى عكس العقيدة الإســـرائيلية بلم شمل أبناء صهيون في الأرض الفلسطينية، يسعى بعض أبـــناء لبـــنان حقاً أو باطلاً إلى تشتيت الباقين من اللبنانيين إلى خارج الـــوطن، بسبب اتخاذ قرارات منفردة في السلم والحرب. وعلى عكس العقـــيدة الـــصهيونية بالـــدفاع عن كل "فرد إسرائيلي"، يهوى بعض اللبنانـــيين وأيضاً بعض العرب اللعب "المستخف" بأرواح المواطنين عن طـــريق تعريضهم لخطر غير محسوب النتائج بالنسبة للغالبية، وان كان محسوباً تماماً لمن اتخذه[1].

بعثرة المواطنين وحرماهم من "أمل الاستقرار" قد يكونان سياسة مقصودة أو غير مقصودة، العلم عند الله، لكن نتائجها واضحة للعيان. فالهـــدف المعلن لعملية حزب الله الأخيرة وأسر جنديين إسرائيليين على الحـــدود مع إسرائيل، هو تحرير الأسرى اللبنانيين القابعين في غياهب السجون الإسرائيلية، لكن بعض القوى اللبنانية لا يلمح فقط بل يعلن أن هناك أهدافاً أخرى تصل إلى وصف العملية كلها بأنها عملية قادمة بأوامـــر مـــن خارج الحدود!... وهناك شبهة من حيث التوقيت على الأقل إقليمياً ولبنانياً.

---

(1) كتب المقال تعليقاً على حرب 2006 اللبنانية - الإسرائيلية.

مـــن له يقظة سياسية يعرف أن في كل عملية سياسية أو حربية يحسب المخطط بكل دقة "الكلفة البديلة" لتلك العملية أو هذا الإجراء، وإذا حسبنا الكلفة البديلة للعملية الأخيرة وتبعاتها، فإنها خسارة فادحة في الأرواح والممـــتلكات، وفي التأثير على الاقتصاد أيضاً، وهي ثقيلة علـــى المـــواطن اللبناني إلى أي فريق انتمى، ربما إلا على القلة، إلا أن كلفتها اللهم في تأليب العالم ضد الحزب وما يمثله قد تعرضه لخسارة في حديقته الخلفية وهي الشعب اللبناني.

صـــراع القوة مع إسرائيل يعرف كثيرون أنه صراع غير متكافئ، إذا حـــسب حـــساب مقابلة الطائرة والمدفع وطرق التجسس والقنابل الثقيلة، وأيضاً المناصرة إذا حسب حسابها من الدول الكبرى، خصوصاً اذا كان تنبيه الصراع تحوطه شبهة استفزاز. وهو بهذا المعنى، أي صراع "دولة بدولة" وعسكر بعسكر يصب في صالح الدولة المعتدية، لقد قالت لـــنا ذلك كل الحروب العربية السابقة مع إسرائيل، وهي تعيد تكراراً ذلك القول من جديد.

هناك قضية لا بد من مناقشتها وتدخل تحت عنوان "تحرير جنوب لبـــنان" الذي أنجز منذ سنوات. وهو انجاز لم يكن عسكرياً بحتاً. نعم شـــاركت فيه أطراف "المقاومة" اللبنانية، لكن أيضاً شاركت فيه أيضاً قـــوى سياســـية لبنانية وعربية ودولية، كان على رأسها المرحوم رفيق الحريـــري بكـــل مـــا له من علاقات دولية. تلك الحقيقة "المشاركة الـــسياسية" اخـــتفت بعـــد فترة من رؤوس العناوين، ليبرز فقط دور "المقاومـــة" في التحرير، وهذا غير مطابق للحقيقة الكاملة. إلا أن دور المشاركة السياسية يعود من جديد في الأزمة القائمة، وهي مشاركة من الحكـــومة اللبنانـــية، ممثلة لكل اللبنانيين، ومن خلال الضغوط العربية والدولية، على اختلاف أحجامها، فالمقاومة ابعدت وطأة الضغط عليها

بمجـــرد فتح النار، فأصبحت طرفاً. وإذا انجلت هذه الغمة فإن البعض سيعود ليقول إن "هزيمة" ألحقت بإسرائيل بسبب المقاومة لا غير، وهو أمر يعني أن الكثيرين لا يعون دروس التاريخ. فالعقاب الجماعي تعرف إســـرائيل قـــبل غيرهـــا أنه غير منجز للمهمة والهدف الذي تتوخاه، والـــبحث عن قيادة حزب الله في هذا الكم من المواطنين كالبحث عن إبـــرة في كـــومة قش. من هذا المنطلق تعتبر النتيجة نصراً، كما تعرف قـــيادة حـــزب الله أن "هزيمة" جيش ذي عدة كبيرة في ظرف توازن القوى الحالي من شبه المستحيل. ومن هذا المنطلق فإن النتيجة خسارة.

والحل هو في إحياء "عملية سياسية" قد تحفظ ماء الوجه، وقد لا تحفظه، يعتمد ذلك على عدد من المداخلات لم يتبين اتجاهها أو طبيعتها حتى كتابة هذا التعليق. إلا أن المؤكد أن لبنان ودور حزب الله فيه لن يكون بمثل ما كان حتى وقت عملية الاختطاف وما تلاها من أحداث، فإما أن يشهق لبنان بحشرجة الموت أو يصيح صيحة الميلاد الجديد.

كما الناس في الصحراء تدور رؤوسهم كل خريف بحثاً عن غيمة شـــاردة لعلـــها تتـــراكم لتنـــزل زخات من المطر يتفاءل بها الزرع والـــضرع، العـــرب اليوم في صحراء، أخطر أعدائهم فيها هو عقلهم السياسي إن اختار مرة أخرى المداورة وعدم تسمية الأشياء بأسمائها، أو الخضوع للابتزاز السياسي من البعض.

حدث ذلك في العراق، عندما صمت العرب عن تصويب ما كان يقوم به النظام العراقي السابق حتى وصل الأمر إلى أن لا يبقى في بغداد حجـــر على حجر، وجر ويجر ذلك الكثير من المصائب عليهم اليوم. وهـــو أمـــر يتكرر في لبنان، فإن صمت العقلاء اللبنانيون وغيرهم من العرب عن قول الحقيقة المرّة للإخوة في حزب الله فقد يأتي بالأسوأ، أما القـــول بوضوح أن مبادرتهم أخذت لبنان إلى حرب تدمير غير محسوبة

النتائج، تحفها عاطفة جياشة نعم، لكن ينقصها عقل مدبر يزن البدائل ويحسب التكلفة البديلة على الدولة اللبنانية والمواطنين. هذا ما هو أبدى بأن يقال.

ضعف الحجة هو أول ما يقابلنا، فليس من المنطق أن تكون نتيجة محاولة تحرير سجناء، على أهميتها الإنسانية القصوى، بأن يُضحّى بحياة أحـــياء، كما أن هناك شكوكاً حول التوقيت. الاضطرار للمجاملة قد يقود إلى تدمير بيروت كمثل ما دمرت العراق، وقد يقود أيضاً إلى أن تـــصبح تلـــك المديـــنة منطقة جذب هائلة لكل المتطرفين، اذا قررت إســـرائيل البقاء في جزء أو في بعض من جنوب لبنان سيكون الخاسر الأكبر هم اللبنانيون.

أن تـــستدرج الدولة اللبنانية إلى حرب، لم تستعد لها و لم تستشر فيها، فهذا نتيجة منطقية لتلك المجاملة التي سارت عليها القوى اللبنانية، فالحـــديث عن لبنان لدى البعض كـــ "هانوي" غير الحديث عن لبنان لدى البعض الآخر كـــ "هونغ كونغ" على حد المقولة المشهورة للسيد وليد جنبلاط.

ولـــيس هـــناك، مع الأسف، حل وسط بين هذه وتلك عند الأطراف المختلفة. و"توازن الرعب" الداخلي اللبناني، الذي تجاذبه الـــبعض مـــن أجل تسجيل بعض الانتصارات التكتيكية، برهن أن الأطـــراف اللبنانـــية فشلت في الوصول إلى وفاق في ما بينها حتى احـــتاجت إلى يـــد خارجية لتعديل هذا التوازن. كانت اليد عربية "ســـورية" في وقت ما وأخشى ما يخشاه المراقب أن تكون اليوم إما إســـرائيلية أو في ابغـــض الحلال "دولية" وذلك يسجل فشل النخبة اللبنانـــية التي "تكاذبت" على بعضها بعضاً طويلاً وكثيراً وعلى نحو ممل أيضاً.

يفتقد لبنان اليوم في محنته ثلاثة عوامل سلبية، أولها عدم الوصول إلى توافق حقيقي لا تكتيكي بين القوى اللبنانية الفاعلة، ورجل دولة في قيمة المرحوم رفيق الحريري، وأيضاً تفتقد رجلاً في دمشق في قيمة المرحوم حافظ الأسد وبعد نظره.

الوقت ليس وقت البكاء على الماضي، إلا أن الدولة في لبنان، مع قبولها بعدد من القرارات الدولية التي اختارت تطبيق بعضها واحتارت في تطبيق الأخرى، سيكون صعباً عليها اللجوء إلى قرارات دولية جديدة تعرف هي قبل غيرها أنها لن تطبق.

إذا استمر الموقف الداخلي متخاذلاً فإنه سيدخل في نقاش «حوار عقيم» ويتقاسم البعض "جبنة لبنان" على أمل أن يحصل بعضهم على جُلها حتى وان تعفنت، وسيبقى لبنان في محل المراوحة. فلقد حققت سخونة الملف اللبناني حتى اليوم، اختفاء الملف العراقي والملف الفلسطيني من على الخارطة الإعلامية الدولية، وهو أمر تستفيد منه القوى المختلفة التي يهمها اختفاء هذين الملفين، كما حققت التحاماً إسرائيلياً داخلياً كان يتجه إلى التفكك، ومنحت إسرائيل حزمة أوراق تقريباً بالمجان.

لقد قرئت المرحلة برمتها قراءة خطأ في السنوات القليلة الماضية من جانب بعض الأطراف اللبنانيين، وهي قراءة تصل إلى الخطأ التاريخي.

ويبدو أن المنطقة كلها بعد هذه الأحداث مقدمة على "تغيير قواعد اللعبة" وقد يخسر فيها من كان يظن أنه يكسب في أول الأمر، تلك قوانين السياسة، وهي قوانين تتغير بتغيّر ظروف اللعبة، إلا أنها قوانين لا ترحم.

(12)
كي لا يتحوّل لبنان إلى عراق آخر

لا اعــــرف من قال الفكرة الآتية وهي أن الله خلق لبنان فحسده العــــالم، ولكـــنه خلق اللبنانيين بعد ذلك، فتنفس العالم الصُعداء، على أســـاس أنه لن تكون الجنة الموعودة. والترية في القول اسابق واضحة، وهـــوي مقارنـــة الفـــرق بين الطبيعة اللبنانية الساحرة، وبين نشاط الـــسياسيين اللبنانـــيين، الذين تبلور بينهم عداء مستحكم متنقل بين الفـــئات والطوائـــف، ولكنه دائم الحضور. فجمال لبنان يقابله سوء أعمال بعض السياسيين إلى درجة نفور المواطن من الوطن.

سياســـيو لبـــنان لا يدركون - وهنا اجزم وأعمم - الاثر الذي يتركه "نقُهم" على بعضهم على مصالح وحياة المواطن اللبناني العادي. إنـــه "نـــق" يعطـــل الاقتصاد اللبناني بكامله، ويضاعف اكلافه ويدفع كثيرين من أهل لبنان إلى الفقر والحاجة ومن ثم الهجرة، كل ذلك على حـــساب أولئك البسطاء من الناس. كما يدفع محبـــي لبنان إلى هجره والـــتفكير في غـــيره. كثيرون من السياسيين لا يعرفون مدى تأثير هذا "الـــنّق" علـــى سمعة لبنان الدولية والإقليمية، ففي وقت ما ليس ببعيد ســـوف يُتـــرك لبنان للبنانيين بالمعنى المجازي للكلمة، أي ستترك الجنة للشياطين. حتى الآن هناك محاولات ربع الساعة الأخيرة قبل أن يتحول لبـــنان إلى عراق آخر، مع فارق واحد أن للبنان حدودا مع إسرائيل، والعـــراق لـــيس كذلك، وهو يعني تدميرا خالصا لكل ما هو لبناني.

الــسياسيون اللبنانيون لا يريدون أن "يجيبوها الأرض" على حد التعبير الدارج، فلا هم مقدمون على حرب أهلية تدمر لبنان عن بكرة أبيه ولا تترك حجرا قائما فيه على حجر، ولا هم قادرون على التوافق الصحي والــصحيح، حــتى يظل لبنان منارة ومثالا للتوافق الايجابــي. حقيقة الأمر أنه ليس هناك خيار ثالث بين إنعاش لبنان أو خرابه، وكلاهما بيد اللبنانــيين فعــلاً لا قولاً مهماً قيل في تحليلات بعضهم. ان الموضوع "إقليمــي" ولــيس محلي. هو إقليمي حقيقة متى ما ارتهنت الأطراف اللبنانية للمثيرات الإقليمية، ولكنه لبناني صرف في البداية والنهاية. وإلا لماذا لا تتكون مثل حالة الاستقطاب هذه في بلد مثل الأردن، وهو بلد صغير وتعددي، وقريب من لهيب حمم التقاذف الإسرائيلي الفلسطيني؟ أو في بلد مثل تونس، وهو أيضاً بلد صغير الحجم وتعددي؟ تلك أمثلة فقــط واقصد القول إن حالة الاستقطاب الإقليمي في لبنان لها اسبابها الداخلية اللبنانية أولاً لا غير، فالتكوين الداخلي قابل للاستقطاب، و لم تعد بعض أطراف اللعبة اللبنانية مستقرة على مقولة إن لبنان وطن نهائي ودائــم لهــا، اذ في ذهنها لبنان آخر متخيل. ليس لمثلي أن يزايد على "بحر" التحليلات اللبنانية، ففي بضعة أيام في بيروت العاصمة المدنية التي "تتــضيع" بمعــنى أنهــا تتقبل وبسرعة أخلاق الضيعة، في تلك المدينة وجــدت أن عوامل الطرد أكثر بكثير من عوامل الجذب. حقيقة الأمر أن لبــنان يخسر كثيرا في هذه المراوحة وعلى رأس ما يخسره أن يخسر نفسه. لبنان لبعضنا هو منبر الثقافة العربية، فلا تجد كتابا اليوم فيه من المراجع أكثر من خمسة وعشرين حتى تجد أن نصفها على الأقل طبع في لبــنان، ولا تــوجد محطــة تلفزيونية عربية إلا وتجد أن فيها عدداً من اللبنانيين، أما الصحافة العربية فإنها نشأت وما زالت تتغذى في معظمها مــن المــداد اللبناني. على مقلب آخر لا توجد خريطة عمارة أو بناء

منــزل إلا وفيه لمسات يد لبنانية. في لبنان اليوم تجد العجب السياسي، فإذا مدحت الإدارة الأميركية حكومة السيد فؤاد السنيورة، فإن أقلاما كـثيرة ستسطر في اليوم التالي أن هذا المديح من الأميركيين هو "دليل عمالــة" لا يرقى إليها الشك لهذه الحكومة، والعكس غير صحيح، فإن الافتــراض أنــه لو انتقدت الإدارة الأميركية تلك الحكومة، فإن هذه الأقلام نفسها ستأخذ ذلك دليلاً على ضعف وخوار الحكومة. المقصد هــنا أن الموقف سياسي لا أكثر. بعد أن خاض لبنان، كل لبنان، حربا شــعواء قاسية، أصبح في مواجهة نتائجها. تلك هي القاعدة الأصل في التجاذب اللبناني الذي نسمعه ونراه اليوم. هناك فريق يرى عن حق أن الحــرب كلــها "غامــرت بلبنان" وأدخلته مدخل المهالك و لم تحقق "نــصرا"، وفريق آخر يرى "أن الحرب أدت إلى انتصاره" وان المنتصر عادة يفرض شروطه. الفرق بين الفريقين أن الثاني يملك شارعا متحفزا وايديولوجــيا وسلاحا فتاكا، والأول يملك الرغبة في السلام والتنمية، ويملــك سلاحا هو للدولة "محجور" عليه استخدامه حتى لفرض هيبة الدولــة، ان كانــت لهــا هيبة! بين هذين الفريقين تتعدد المواقف في داخلهما، فهناك من يساير الفريق الثاني اقتناصا لفرصة سياسية يرى أنها وشــيكة مثل تبوؤ رئاسة الجمهورية، وهناك من يساير الطرف الأول حــبا في تأكيد زعامة لا تتأكد إلا بالدخول في ذلك التحالف الواسع. إذا بــدأنا بالطــرف الثاني وقوته الرئيسية هو "حزب الله"، فعلى رغم الاعتراف بقدرة "الممانعة" التي أبداها في حرب الثلاثة وثلاثين يوما، إلا أن أفق تطوير موقفه العسكري ومن ثم السياسي محدود. هو مثال ليس بجديد، فهناك مثال صارخ مشابه حولنا وهو الحرب ضد السوفيات في أفغانســتان. وقتها كان للطرف الغربــي وباكستان (تحالف الرافضين للــتدخل السوفياتي) مصلحة في قيام مقاومة من نوع ما، وما أن ظهر

"المجاهـــدون" علـــى السطح حتى تم احتواؤهم وتشجيعهم، إلا أن هذا التـــشجيع كـــان محدودا بقدر. ونعرف الآن أنه حتى الأسلحة المضادة للدروع التي زودوا بها كانت منـــزوعة المناظير، أما صواريخ "ستنغر" الأميركـــية المحمولة (لإسقاط الطائرات) فقد دخلت الخدمة في المرحلة الأخـــيرة من النـــزاع وبشكل محسوب بدقة، حتى قيل إن عددها كان معروفا بالضبط وعدد ما أطلق منها أيضاً كان معروفا. الدرس هنا هو أن أيـــة قوة إقليمية مزودة لـــ "حزب الله" (بالعتاد ومن ثم بالمال) لها أجـــندتها. هذه الأجندة تقصر عن تقديم "صواريخ مضادة للطائرات" مثلاً لـــ "حزب الله" رغم وجودها، بل رغم القدرة على إخفائها أكثر من بعض أنواع الصورايخ التي تطلق من الأرض إلى الأرض! لأن ذلك له حسابات أخرى، وهي حسابات تصل إلى حد "تهديد" إسرائيل من دون إيصالها إلى درجة "الغضب المطلق". مثل ما كانت للاستخبارات الباكـــستانية رؤيـــتها وأجندتها، كذلك لمزودي "حزب الله" بالسلاح وربما بالمال أجندة قد تتفق مع الحزب جزئيا في المرحلة الحالية، ولكنها قـــد تختلف في مرحلة لاحقة. والسؤال هل خراب لبنان يتفق مع تلك الأجندة؟ يبدو للمراقب أن "خراب لبنان" وسقوط الدولة وتفتتها على أرض "الخـــلاف الداخلـــي الصعب" تعطل الكثير من أجندة الأطراف الممـــولة بالسلاح والمال لـــ "حزب الله"، لانه في ذلك الوقت لن تجد المقاومـــة جبهة واحدة أمامها بل عدداً من الجبهات، تمسي بعدها أمام خطأ فادح لا يعوض، حيث أنها، أي "المقاومة" تعود مكشوفة "للعدو" مـــن دون ســـند سياسي مقبول، كما حصل في (تموز يوليو 2006)، حـــيث شكلت حكومة السنيورة القوة السياسية الناجحة ضد توسيع التخـــريب الإسرائيلي. إذا كان التآلف بين المجموعات البشرية المختلفة يحـــتاج إلى قوة إرادة وطول بال وصبر، فإن التآلف بين اللبنانيين يحتاج

إلى أكثـــر مـــن ذلك، يحتاج إلى وصول الأطراف إلى قناعة مشتركة وعامـــة، هي أن تفجير الموقف هو أسهل الطرق، فقد حدث ذلك منذ ســـنوات قليلة وخسرت كل الأطراف، وعندما تصمت المدافع وكواتم الـــصوت بعـــد أن تـــزأر، تتبين للجميع مرة أخرى فداحة وكلفة ما ارتكـــب. وقتها لن ينفع أي ندم، إلا أن المستحيل الثامن اللبناني يتمثل في أن لا الحـــرب ولا الـــسلم ممكنان أو في الأفق، وسيظل "النّق" بين الـــسياسيين مستمراً حتى يستنـــزف لبنان خيراته البشرية والمادية، ولا عزاء للبنانيين.

(13)

حروب عربية لم تنته وأخرى لم تبدأ بعد!

هل يلفت النظر أن الحروب التي لا تزال ساخنة أو هي على وشك التسخين على امتداد خريطة العالم الجغرافية المعروفة تكاد تنحصر في منطقتنا العربية، وأن جل تلك الحروب ناطقة بلسان عربي مبين، في الوقت الذي انتهت أو كادت الحروب المختلفة الدوافع في العالم؟ من دول أميركا الجنوبية إلى بلاد افريقيا السوداء؟ أليس ذلك مدعاة للتنبيه والبحث والتساؤل؟

يبدو لبعض المتفائلين أن الولايات المتحدة ترغب في إشاعة "دمقرطة" ما في هذه المنطقة، وأنها باتجاه ذلك تسخن الساحة تحت شعار "الفوضى البناءة". إلا أن ما نشاهده هو حروب تلد حروبا أخرى بين مجموعات من "القبائل" العاجزة عن التعايش فيما بينها في البلد العربي الواحد. وهي إما حروب مباشرة أو حروب بديلة، تخاض بالوكالة. والحسبة ظاهرة للعيان، فهناك حرب في السودان تتجدد بأثواب مختلفة، تارة في الجنوب السوداني، وأخرى في دارفور وربما مناطق أخرى جديدة - فالسودان بلد كبير - وحروب في الصومال وهي حروب منسية كما الصومال نفسه منسي كجزء من الجغرافيا العربية، وحرب ضروس في العراق، ليس هناك داع لتفسير أسبابها، ولكنها تكاد تصبح حربا أهلية حقيقة لا تجاوزا. وهناك حرب وشيكة في لبنان، وهي احتمال قائم وقد يكون قريبا على شكل حرب

أهلية، تتفجر بعدها حروب تصيب سورية أيضاً، إما بسبب الجوار أو بسبب اندلاع حرب إسرائيلية جديدة، وحرب محتملة في الخليج تكون شرارهّا الصراع على المكانة والقوة الإيرانية في المنطقة.

كـــل هـــذه الحـــروب وقودها عرب وان توسعت المفاهيم فهم مـــسلمون فى الغالـــب. نحن جميعاً إذاً في منطقة حرب ساخنة، حرب تخـــاض أو حـــرب يعـــد لها، وأخرى تحت الرماد والبعض في غرف التخطـــيط. الملاحظة اللافتة أن حروب الآخرين تنتهي بتقديم مسببيها إلى محاكم جرائم حرب أو إلى لجان تحقيق تتعمق في الأسباب والنتائج، إلا الحـــروب العـــربية، فمهمـــا قُتل من الناس وحُطم من الممتلكات وأوقعـــت الحـــروب مـــن خـــسائر، فـــإن مسببيها غالبا ما يكونوا "منتـــصرين"! بعض السذج يتساءل: لماذا تخاض كل هذه الحروب في منطقتـــنا الغنية بالنفط، والتي تتطلب منطقيا شيئاً من الاستقرار لأجل تدفـــق هـــذه المـــادة إلى الدول الصناعية من دون عائق؟ وهو تساؤل ســـاذج لأن الافتـــراض أن الاستقرار ينشط التجارة بمختلف أشكالها صـــحيح في الـــشكل، ولكن الحروب تنشط تجارة أكثر ربحا ولا تعود بتنمـــية مـــن أي نوع على الشعوب وهو المطلوب. تلك التجارة هي تجـــارة الـــسلاح. وقـــد يفاجـــأ البعض أن أكثر النشاطات التجارية والصفقات التي تمت منذ الحرب الأخيرة بين "حزب الله" في لبنان وبين إســـرائيل، هي صفقات سلاح لدول المنطقة، وهي تقدر بالبلايين من الـــدولارات، كما تشير الإحصاءات المنشورة. وما الضير في ذلك، اذا كانـــت هـــذه الصفقات تدير عجلة الاقتصاد عندهم وتطحن أجساد البـــشر عـــندنا، وتكون صالحة للاستخدام على أكثر تقدير لسنوات قلـــيلة، تصبح بعدها حديدا (خردة) تباع بالطن لمن يرغب! الحروب العربية أو في الجوار العربـــي وصفت في السابق بأن ما يجمع بينها هو

غياب العقل الرشيد الذي يرغب في قيام دولة حديثة وإشاعة الديموقراطية بمعانيها الأوسع، وهو غياب ليس لدى النخبة فقط، بل ولدى العامة. فهناك تساند بين ما ترغب به العامة وتروج له، وما يريده الساسة. يقود ذلك إلى ما يشبه حرب السبعين عاما في أوروبا، أي أن أمامنا عقودا طويلة من الحروب البينية والأهلية حتى نتبين ما تبينه الآخرون من أن الحروب عبثية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وان السلاح لا يحل المشكلات، خاصة الوطنية، وان كل تلك الحروب الأهلية وشبه الأهلية محاولة لإخفاء عيوب فشل "القبائل" العرقية والآيديولوجية والجهوية في بناء دولة كفؤة. في هذا الفضاء لا أحد يتوقع أن تخضع أسباب الحروب اللاحقة إلى شيء من المنطق العقلاني، فلا الحرب الأميركية الإيرانية القادمة مع الاصطفاف الحاصل من اجلها خاضعة لتسلسل عقلاني ومنطقي، ولا الحرب القادمة في لبنان تخضع لذلك التسلسل، وهي حرب أهلية ستكون أكثر فظاعة وتدميرا من الحروب التي مرت على لبنان في السابق وحتى اليوم، ولا الحرب في الصومال لها آفاق أكثر من تجدد الشعارات التي تخاض تحتها، ولا الحرب في السودان لها آفاق قريبة نسبيا للانفراج، بل العكس صحيح في كل ذلك. فالمتوقع والمنطقي أن تزداد تلك الحروب شراسة وان يجري تخريب الأوطان تحت شعارات إنقاذها، أما الذرائع فهي جاهزة، والعقل العربي العام قابل بمنطقها فرح بشعاراتها. لم أنس الحرب الأهلية المتوقعة بين ساعة وأخرى في فلسطين حيث يواجه الفلسطينيون بعضهم حتى كسر العظم، والكل يبكي على الوحدة الوطنية المهدورة من الجانب الآخر وعلى ضياع فلسطين، في خضم أزيز الرصاص ودوي المتفجرات، والاغتيالات الشخصية المتعاقبة بين الفرقاء والإخوة الأعداء، وفلسطين في حالة قضم دائم.

الظاهرة أوسع من بلد وأكبر من قضية. إنها مسار تاريخي يرفض بقـــوة وبعناد اللجوء إلى المنطق وتحكيم العقل، وينادي بإحياء داحس والغبراء. وفي صلب تلك العقلية الافتقار إلى تصور معقول وعملي لبناء دول حديـــثة على أنقاض تجمعات عرقية فئوية طائفية ومصالح ضيقة، تخضع الآجل للعاجل، وتقدم الشخصي على العام، وتسير مع الخارجي على المحلي، وتعلي المصلحة على الوطني. هل هو قدر العرب أن يمشوا هـــذا الطـــريق بعد تراكم الخبرة العالمية وتزايد المعرفة بأحوال التاريخ ومـــواعظه، أم هـــو خيار للبعض واستمراء السير فيه لتحقيق مصالح ضـــيقة؟ حقـــيقة الأمـــر أن صلب تلك المعادلة الشريرة عدم احترام للمؤسسات أو عدم قيامها، وثقافة تعلي القوة على العقل وتمجد الخيال على حساب الواقع، وتستمرئ الاستبداد والتسلط وتصوره على شكل دعاة معصومين وثقاة متبوعين وقيادات تاريخية مفوضة، يصاحب كل ذلك تغييب للقانون وقمع للرأي الآخر.

في أجواء كهذه لا بد من توقع أن حروب العرب البينية الداخلية والخارجـــية ســـوف تستمر بأشكال ودوافع مختلفة، ويضحى مستنقع الـــشرق الأوسط العربـــي مكانا خربا وصحراء فكرية وعملية لا تعلو فيها كلمات غير مصاحبة للقوة الغاشمة ومنطق الغلبة والتسلط.

(14)

بين الشرعي والقانوني[1]

اقلق عندما أقرأ تلك الأخبار التي تتصدر بعض الصحف العربية هذه الأيام، المشيرة إلى أن تلك الجماعة "الإسلامية" أو هذه، أو هذا المفتي أو ذاك، قد قرر أن ذلك الأمر السياسي يجوز أو لا يجوز شرعاً! لقد أتحفتنا بعض الصحف العربية في الآونة الأخيرة وعلى نطاق واسع باحتفالية استمرت عدة أيام، بأن تلك الجماعة (السياسية - الدينية) قد قررت أخيراً أن قتل السياح الأجانب لا "يجوز" شرعا! لأنهم قد أُعطوا الأمان عندما منحت لهم سمة الدخول إلى البلد. أو عندما نقرأ أنه يجوز للملكة العربية أن تستعين بالقوات الأجنبية إبان احتلال العراق للكويت! هذه الاحتفالية بمثل هذه الفتاوى تقلل من وجود الدولة، كما تتجاهل آراء آخرين في المجتمع ربما شكلوا الأغلبية.

واحدة من القضايا الفكرية التي سُكت عنها طويلا في الفكر السياسي العربي، هي تحديد المرجعية، هل هي مرجعية من يقرر "يجوز أو لا يجوز" في العمل السياسي، وهل ما يفتى فيه هو اجتهاد سياسي

---

(1) هذا المقال كتب في النصف الثاني من التسعينات الماضية لمناقشة فوضى "الفتيا" وقد قرر الملك عبد الله بن عبد العزيز في صيف عام 2010 حصر الفتوى في المملكة العربية السعودية بجهات افتاء رسمية فقط هي هيئة كبار العلماء، فهل تقرر بقية العرب ضبط الفتوى المنفتحة على كل متحدث تلفزيوني أو كاتب صحفي!!

يعلى إلى درجة التقديس، أم يصُح فيه الصواب كما يصح الخطأ، أم هو أمر "شرعي" يتدخل فيه الهم العقيدي للإنسان أو المجتمع؟[1]

لقــد شغل هذا الأمر حيزاً من تطورنا الفكري والسياسي، إلى الدرجة التي لو فصّل تاريخنا لعرفنا أنها معضلة لم تجر محاولة حلها حتى اليوم. والخروج المتعثر حتى الآن للعرب وبعض المسلمين من الشرعي إلى السياسي، هو ما يقود إلى كل هذه الفوضى السياسية التي تعصف بمجتمعاتــنا اليوم، كما عصفت بها في تاريخنا السابق. وحتى الآن لم نــتوافق علـــى تحديـــد ان ما "يجوز أو لا يجوز" في العمل السياسي والوطني العام، هو تكيف سياسي له مجال معروف هو السياسة، وليس مجالــه بالقطع الدين، وذلك لعدد من الأسباب لا تخفى على العاقل الحصيف.

إلا أن تلـــك النتيجة هي أسهل أن تقال وأصعب من أن تطبّق في فـــضائنا العربـــــي، والدليل على ذلك هو احتفاء الصحف ووسائل الإعـــلام بـــتلك الفتاوى الجديدة التي ذكرت آنفا لما يمكن أن يسمى بفـــتاوى "الإسلام الجديد" الذي تخرج فيه الممارسة السياسية من نطاق الـــنقاش إلى نطاق الحسم. هذا الاهتمام الإعلامي هو في جزء كبير منه اعتـــراف بأهمـــية ومركزية هذا التوجه في القرار السياسي، أي تدخل فـــتوى الجماعات، التي انتشرت، في الشأن السياسي، عن غير الطريق المـــتعارف علـــيه في العمـــل الـــسياسي، وهي الأحزاب والنقابات والمؤسسات الدستورية، إن وجدت.

---

(1) عـــندما ســـأل رئيس المحكمة المصرية الشيخ محمد الغزالي أثناء المحاكمة (العـــضو القـــيادي في جماعة الإخوان المسلمين) عن رأيه في قاتل المفكر العلمانـــي المصري فرج فوده في 1992 أجابه: "لقد نفذ فيه حد الردة الذي تقـــاعس الإمـــام (الدولـــة) عن تنفيذه". عندئذ صرخ الارهابي القاتل: "الآن أموت وضميري مرتاح".

بالطبع لا يجوز الحديث في هذا الأمر دون الإشارة إلى نقص فادح في تطـــور المؤسسات السياسية الدستورية والنقابية المؤسسية في بلادنا العربية، وهو نقص يفسر لجوء البعض إلى تلك الفتاوى التي تخلط الديني بالـــسياسي والتسليم بها، وهي تخلط الدنيا بالآخرة كمرجعية نهائية في القضايا العامة.

احـــتفال الإعلاميين بهذه الفتاوى على أنها ايجابية توقعنا في المحظور، وهـــو أن يـــأتي يـــوم تـــصدر فيه فتاوى من نفس الجهات أو من يمثلها ويشابهها، تكون سلبية على المجتمع، فتفتح الباب لأي شخص أو جهة إلى القطـــع في أمـــور الحياة العامة، مقنعاً كثيرين، على أن ما كان أوله صواباً فآخـــره أيـــضاً صـــواب!! وذلـــك مدخل للشرور. وما مقتل الصحافي الـــسوداني[1] إلا دليل على إمكانية تفعيل تلك الآلية، وانكفاء الفتاوى إلى أعمال إرهابية، تقود إما إلى قتل أشخاص أو تهديد مجتمعات.

الخطأ في الفهم هنا ليس من أن بعض الجماعات قد تراجعت عن آرائهـــا وممارساتها السابقة، انما إظهار ذلك التراجع وتموضعه على أنه صـــادر عـــن المـــراجعات في الصبغة الدينية، وتلك فكرة خطرة على المجـــتمع. فالكل يمكن أن يخطئ وان يصيب، إلا أن في وضع الخطأ أو الإصـــابة تحـــت مظلة دينية، يكمن الخطر، وهو ضعف كبير في الفكر العربـــي المعاصر.

الخطـــورة الثانية في الإرتكان إلى تلك المرجعية، هي اضمحلال دور الدولة والمجتمع، وضعف الدولة في منطقتنا العربية، ما يسمح حتى

---

(1) عـــام 2005 والـــصحفي هو محمد طه، كذلك جلد الصحفية السودانية لبنى أحمد حسين. والعلماء الهنود أباحوا قتل روائية بقطع رأسها بتهمة الالحاد، وعلى شبكة الإنترنت فوضى من للفتاوي بأسماء شخصيات معروفة، بعضها يقود المطلّع إلى التهكم كما نقل عن الاباني أن الكذب حلال في الإسلام في بعض الأمور!!

اليوم بفسحة حقيقية لمثل جماعات التطرف أن تسود أو تتسيد على الفراغ التشريعي، وهي فسحة لا يخلقها عدم تطبيق القانون، بل عدم وجود دولة القانون بالمعنى الحديث، وهي الدولة التي تتيح الحريات في حدود ما يتفق عليه المجتمع، وتساير العصر الحديث، في إعلاء حقوق الإنسان وحرية القول والتجمع وضمان العمل الشريف.

هي باختصار غياب التنمية بمعناها الشامل، السياسي والاقتصادي والثقافي. من هنا فإن بعض وسائل أعلامنا تركّز عن قصد أو بدون قصد على الأمر الآني وكأنه انتصار على فكر متطرف في ما يجوز أو لا يجوز في العمل العام، بُعدا عن الحديث الأكثر جدية، وهو بناء التنمية الحقيقية، بما فيها إقامة المؤسسات الحديثة.

وعلى الرغم من النقد الذي واجهه تصريح الرئيس السابق جورج بوش حول ما سماه "الفاشية الإسلامية" إلا أن تلك التوصيفات صادرة من فكر مستند على مرجعية أصولية في المقابل. وقد نشرت مجلة "فورين افيرز" الأميركية البالغة التأثير لعدد سبتمبر - أكتوبر2006 محورا هاما جديرا بأن يدرس من قِبَلنا، بعنوان "الدين والسياسة الخارجية الأميركية". وتُظهر هذه الدراسة الهامة مدى تغلغل التفكير البروتستانتي المتشدد في رسم السياسة الخارجية الأميركية المعاصرة، فهذه السياسة تعتمد على تقسيم العالم إلى قلة مختارة، وأغلبية موعودة بجهنم، وتلك القلة عليها إقناع الأغلبية بخطأ طريقها. وهي أفكار تخللت الممارسة السياسية الأميركية في السنوات الأخيرة، وهي مصرة عن قناعة أيديولوجية على تحقيق أهدافها بكل تصميم.

الفرق في خلط السياسي بالديني في بلاد مثل الولايات المتحدة وبلادنا أن هناك من يتصدى لهذه الممارسات ويضعها على طاولة التشريح السياسي والمناقشة العامة، كما يحمي من الشطط الكبير وجود

مؤسسات حديثة، وتنافس سياسي، حيث تخضع النتائج للعقل والمصلحة. وعلى عكس ذلك فإن خلط الشرعي بالسياسي عندنا، يقدم للسياسي في بلادنا ستارا كثيفا من الحماية المقدسة، حتى لو بدا ما يقوله أو يدعو إليه فقيرا في المنطق وعاجزا عن الإقناع العقلي، كما يلجم الآراء الأخرى عن التعبير، وهو أمر يسعى إليه الأحاديون في فضائنا العربي المسلم بكل جهد وتُصم لتقوله الأفواه.

(15)

النفس المقموعة

لا أزال اعتقد أن ما يحدث في مصر من أحداث سياسية يمكن أن يسمع صداها عاجلاً أو آجلاً في البلاد العربية الأخرى، تلك قناعة مستقرة منذ زمن، ونابعة من استقراء التاريخ الحديث، وليس من الاندفاع وراء العواطف. نجد في مصر تطورات لافتة للنظر على الصعيد السياسي، ولكن أيضاً في مصر ما يزعج العاقل ويثير الحكيم أيضاً. أيمن نور وقضيته واحدة من الموضوعات التي تثير الجدل وتقلق المتطلع إلى وضع سياسي أفضل وحريات أشمل مرحّبة بالتغيير. قبله كانت قضية الدكتور سعد الدين إبراهيم، ومع أنه خرج منها بريئاً إلا أن وضعه الصحي تدهور، فنحن أصدقاؤه لم نعد نستطيع المقارنة بين حيوية سعد قبل المحنة ووضعه الصحي بعدها. لا يمكن لعاقل رشيد أن يعتقد أن الحريات العامة يمكن أن توزع هبة على الناس، خصوصاً في الوضع التاريخي والاقتصادي الذي يعيشه العرب. فالحريات تكتسب بنضال طويل وشائك ومكلف أيضاً. ومن يقرأ تاريخ الشعوب التي حققت التقدم والرقي والتنمية يعرف أيضاً كم عانت قطاعاتها المختلفة من الضيم والضنك، وعبّدت مسيرةِ حريتها بالكثير من التضحيات العظام. الثورة المصرية (1952) مر عليها الآن أكثر من نصف قرن، وصلت أثناؤه أجيال مختلفة إلى الحكم والسلطة، ومن المفترض أن تكون التجربة قد نضجت أو أشرفت على النضج، ومن دون مبالغة فإن الحريات

العامة التي يتمتع بها المصريون اليوم لا تقارن بما كان في السابق من الأيام، ومن دون مبالغة أيضاً فإن الحريات هذه اكتسبت عن طريق نضال ورؤية، ونضال رجال أمثال أيمن نور وسعد الدين إبراهيم وعصام العريان، وهم ثلاثة يمثلون عشرات إن لم يكن مئات من المصريين المستنيرين، وأيضاً عن طريق وعي ورؤية بعض القادة التاريخيين المصريين في الحقبة نفسها نتبين أن الزمن تغيّر.

كثيراً ما يدور في خلد المراقب تساؤل هل كان من الممكن أن تحكم مصر اليوم سلالة منحدرة من الملك فاروق؟ ويأتي الجواب بالنفي، فعندما ذهبت الملكية من مصر ذهبت لسبب تاريخي... انعطاف كان يجب أن يحدث بسبب ما تراكم قبلها من أحداث، وحريات جديدة ما كان لها أن تطل برأسها كما نراها اليوم لولا تراكم تاريخي قاد إلى ما وصلت إليه. إلا أن الإشكالية التي أريد أن اعرضها ليست هنا، بل هي إشكالية لها علاقة بالتكوين النفسي للمواطن تجاه السلطة.

وحتى تتبين الصورة بوضوح أكثر وجب نقل ما أشار إليه كتاب أعجبني كثيراً، وصدر في مصر أيضاً عن رجل كان في حقبة من التاريخ قريباً من خلفية الصورة لما يحدث في مصر، ولكنه كان فاعلاً بشكل ما. الكتاب هو (أوراق العمر) والكاتب هو الدكتور علي السمان. في هذا الكتاب روايات كثيرة حقيقية وبعيدة عن التزلف أو التزييف، لكن هناك واحدة تلفت النظر تعبيراً عن النفس المقموعة.

تقول الرواية أن السمان، وكان تلميذاً في عام 1954 في مدينة فرنسية، ناشطاً كشباب جيله، انزعج لما حدث في مصر وقتها، مما سمي لاحقاً بـ "أزمة مارس" وهي لجيلنا معروفة لكنها ليست معروفة للجيل اللاحق. اختصارها أن صراعاً دب بين القائمين بالثورة وقتها،

وكـــأي صراع لا بد له من رمز، فكان الرمز إما "عودة الديموقراطية" إلى مـــصر، وتـــزعّم فكـــرتها محمـــد نجيب، أو الاستمرار في الحكم العـــسكري من أجل تحقيق أهداف الثورة، التي تزعّم فكرتها جمال عبد الناصر. ولا يعرف أحد حتى الآن أكانت مناورة أم فرض ظرف قاهر هـــو ما جعل جمال عبدالناصر ومناصريه في مجلس قيادة الثورة يوافقون على الفكرة القائلة بعودة الأحزاب والحكم المدني، وانصراف العسكر إلى ثكـــناتهم. كانت أزمة حقيقية، انشطر أهل الرأي المصري شطرين. إلا أن الطالب في فرنسا علي السمان لم يعجبه ذلك، ولم يستطع أقناع رفاقـــه الطلبة بموقف، فحرّر برقيتين على حد قناعته الشخصية، واحدة لمحمد نجيب، قال فيها أن المطالبة بعودة الأحزاب هي أكبر عملية نفاق في تـــاريخ مصر، والثانية لعبد الناصر يقول فيها أن الثورة لا تستقيل! يكمـــل السمان أن برقية نجيب الغاضبة سرعان ما وصلت إلى المكتب الـــثقافي المـــصري في بـــاريس، ووصل خطاب عنيف إلى الطالب من المستـــشار الثقافي يُستدعى فيه للتحقيق، ولما لم يردّ وصل خطاب آخر يحمـــل المضمون نفسه. وبعد أسابيع قليلة حدث تحوّل في مصر، أدى إلى عـــودة مجلـــس قيادة الثورة، وفجأة جاء المستشار الثقافي لصاحبنا وهـــو في مدينة وسط فرنسا يدق بابه بليل، ويشرح له أنه أراد حمايته بإرســـال الخطاب إليه، ثم يطلب منه النـــزول للطلاب لتجنيدهم وراء عـــبد الناصر! يستطيع كثير من القراء أن يقارنوا ما مرّ في حياتهم بمثل هـــذا المستشار، لكن القضية أكبر من شخص، إنها الثقافة المقموعة التي يمكن أن تبرّر الشيء ونقيضه في سبيل البقاء في المكان أو الرضا من "آلهـــة" السياسة أو البيروقراطية سيان. فعندما تُنفى حرية الإنسان يـــصبح طـــوعاً للأوامـــر الصادرة، ولا حرية للوطن عندما يتخلى المواطن عن دوره.

انحسار الحريات في وطننا العربي، خصوصاً الحريات السياسية، وتطبيق القانون حتى لو كان هذا القانون يشوبه اللبس والنية السلبية المبيتة، يضع الفرد العربي في مأزق وهو مأزق الموافقة السلبية على الضيم. ولغياب الحريات العامة وحاجة الفرد إلى الدولة يتقاعس كثيرون من الإدلاء برأيهم الشاجب بأن ما يقوم به النظام من خلال المحاكم "الملاكي" على حد تعبير سعد الدين إبراهيم هو عمل خاطئ يضعف الوطن ولا يقويه، ويقعد المؤسسات عن عملها. في مثل هذه الوضع تغيب الحقوق وتنفتح شهية الأنظمة للقمع وتتحول قطاعات واسعة من الشعب إلى طرق أخرى للتعبير عن إحباطها، ويدخل الجميع دائرة جهنمية من ردود الأفعال. أن يقوم شخص أو أشخاص بتزوير وثائق لتقديمها إلى الجهات المختصة من أجل إشهار حزب، عملية مشكوك فيها، لا لأن التزوير غير وارد أو غير ممكن، بل لأن الجهة المختصة من واجبها قبل الترخيص التدقيق الثاقب في الأوراق، وأكثر ما يمكن عمله هو ترك الأسماء التي زوّرت تقاضي المزور، لا الحكم عليه بخمس سنوات من تقييد الحرية، وعلى شخصه معنوياً بالقتل السياسي. هذا كثير والساكت عنه ينضم إلى السيد المستشار.

(16)
المرأة العربية في قمة العالم

لم يلتفت كثير من المعلقين العرب إلى افتتاح الجمعية العامة للأمم المتحدة في الدورة الحادية والستين الحالية[1]. لقد أصبحت رئيسة الجمعية العامة امرأة عربية من البحرين هي السفيرة هيا راشد الخليفة، وهي ثالث امرأة في العالم تصبح رئيسة لهذا التجمع العالمي الغفير والمهم، وأول امرأة عربية. كيف يمكن لمثل هذا الحدث أن لا يلفت نظر إعلامنا العربي. لا بد من البحث عن تفسير، هل لأنه إعلام يهتم بالكثير من السلبيات، أما الايجابيات فهو يتجاهلها أو لا تشكل معنى رمزيا للعاملين في حقله، أم هو نقص بيّن في المهنية، حيث يستقبل هذا الإعلام ما يلفت نظر الغرب فينشره، ولا يرى بنفسه ظواهر عربية ايجابية.

المجلات النسائية العربية تركز على زينة المرأة الخارجية وتسريحة شعرها وطريقة تقليم أظافرها ومع الأهمية النسبية لكل ذلك، إلا أن التركيز هو اقل القليل على انجازاتها العملية والعلمية. والحديث عن المرأة العربية في فضائنا الإعلامي والسياسي هو حديث السلبيات لا الايجابيات، أما تدني دور المرأة العربية في مجتمعنا العربي فهو قصائد تنشر من الكثيرين وعلى أرض الواقع فإنها مبعدة ودورها هو الدور

---

(1) الدورة الحادية والستون للامم المتحدة كانت في عام 2006.

التقليدي نفسه، ولادة رضاعة تابعة وقابعة في المنــزل، رغم أن الولادة والرضـــاعة فعــل إنــساني عظــيم، إلا أن الاقتصار على ذلك البعد البيولوجــي، يعني رفض البعض أن تعيش المرأة حياتها الطبيعية خارج البــيت كإنــسانة، ويقــيدونها بقيود قرووسطية ما انــزل الله بها من سلطان. في العالم نرى أن الاحتفال بوجود المرأة في الشأن العام يدخل التاريخ، فالسيدة مارغريت ثاتشر لن تغادر تاريخ بريطانيا كأول رئيسة وزراء لهــا، والسيدة مادلين أولبرايت دخلت تاريخ الولايات المتحدة كــأول وزيــرة للخارجية، وربما تأتي بعد سنوات من الآن سيدة مثل هيلاري كلينتون (وزيرة الخارجية الأمريكية) لتكون أول رئيسة لأعظم دولــة في عالمــنا المعاصــر.طبيبات ومحاميات ونساء أعمال وأمهات عظــيمات حولــنا، ونتحدث دائماً عن "عدم تمكين المرأة" في خطابنا الــسياسي لأن بعــضنا يرفض أن يرى انجازاتها أو لأن البعض منا قد عــشش في ثقافــته فهم تقليدي لدور المرأة. شاهدت هيا الخليفة على التلفــزيون الأميركــي في نقل لخطاب الرئيس بوش في الجمعية العامة المــنعقدة حاليا، ووجدت أن امرأة عربية فخورة وراجحة العقل تجلس عاليا خلف منصة الرئيس، أي منصة الخطابة. هذا يعني الكثير، فلا بد أن الــرئيس جــورج بوش والرئيس جاك شيراك وغيرهما من الرؤساء الغــربيين الذين حضروا هذه الدورة، سيعرفون أن هذا العالم العربــي المــتهم بالتحيــز ضد المرأة العربية والتعصب في الكثير من الأمور، هو ليس كل ما يعرفونه وأن العالم العربــي والإسلامي، فيه غالبية ترفض العــنف ضــد المــرأة وترفض أيضاً تهميشها، وأن ما يكتب إليهم في التقاريــر أن المسلمين يرفضون حتى مصافحة الأنثى هم الأقلية وليس الأكثــرية، إنمــا صوتهم عال أكثر من الأصوات العاملة بصمت ولكن بتــصميم نحو إقامة مجتمع متوازن وإنساني. وإذا كانت هيا الخليفة من

البحرين فيحق لذلك البلد الصغير في حجمه أن يفخر بهذا الانجاز الذي تحقـق. قـبل ذلك تحقق مثله في تمكين المرأة في البحرين من أن تكون سـفيرة ووزيـرة، كمـا أن هناك في المنطقة الخليجية اليوم عدداً من الوزيرات ومن تبوأن الكثير من المناصب المهمة من السيدات في الإدارة العامـة أو في مجـال الأعمـال الخاصة، لعل السيدة موزة حرم الشيخ خلـيفة بـن حمد أمير قطر، هي مثال لما حققته وتحققه المرأة في دول الخلـيج مـن انجاز مشهود في استنهاض مجتمعها، كما إنها في كل من عمان والكويت وبلاد أخرى عربية، لم تعد مهمشة من العمل العام و لم تعد معزولة.

الرسالة التي يرسلها العرب من خلال أعلى منبر عالمي أننا مثلكم تماما، لدينا مجتمع فيه الكثير من الاجتهادات، وكلها لا تؤخر مجتمعاتنا عن الركب الإنساني، أما كل هذه الدعايات المسمومة حول "اضطهاد المرأة" و"كونها مواطنة من الدرجة الثانية" ليس صحيحا على الإطلاق، وان كـان ممارسـا، فهـناك قوى اجتماعية حية تناهض ذلك التوجه وتـضرب الأمثلة الواعية عليه. فها هي المرأة العربية أو ممثلتها تأتي من منطقة تقول كل دعايتكم أنها متخلفة، وترأس الجمعية العامة، على ما يمثل العمل فيها من مشقة سياسية وديبلوماسية، وتنجح في إثارة الرأي العـالم العالمـي إلى درجة أن تخصص مجلة فرنسية شهيرة للحدث ما يـستحقه، إلا الـناعون على منابر إعلامنا أو الكثير منها يبحثون عن سـلبيات الظواهر لا ايجابياتها. تحقق صورة المرأة العربية على أعلى قمة دولـية دبلوماسية الإيمان بهذه المؤسسة الدولية، وتعضيد أعمالها. ولعل الاعتـراف بوضـع المرأة العربية لم يكن بعيداً عن تفكير هذه السيدة حـيث قالت في خطابها وأمام العالم ما نصه: "ولا تكاد تفارق ذاكرتي الحـالات التي اطلعت عليها، والتي تعكس ما تعاني منه المرأة في بعض

مـــناطق العـــالم مـــن اضطهاد وامتهان لكرامتها الإنسانية. ولعل تلك الحالات تحفزني للعمل معكم من أجل وضع حلول مناسبة لذلك، وفقا للميثاق الذي كفل احترام الحقوق الأساسية للإنسان دون تمييز". هذا المقـــتطف مـــن الخطـــاب يؤكد أن هيا الخليفة ومثيلاتها من الرائدات العـــربيات يستطعن أن يقدمن صورة مختلفة للمرأة عما علق في الخيال الغربـــــي. بقرار جامع من جامعة الدول العربية يتوجه العرب في هذه الـــدورة المـــنعقدة للجمعية العامة وإلى مجلس الأمن للبحث الجدي في استطلاع طريق سلام في الشرق الأوسط، وذلك يعني إيماناً بقيمة هذه المؤســـسة الدولـــية ودورهـــا الفاعل. ولقد اعتمد العرب في كثير من قضاياهم على تعاطف العالم في هذا المنبر العالمي الحاشد، ووجود امرأة عـــربية هـــناك هـــو أمر يكمل الجهد ويعضده. فهل يستطيع الإعلام والديبلوماسية العربية أن يلتفتا إلى هذا الأمر؟ أرجو ذلك.

(17)
التفكير السحري وفن إضاعة الفرص العربية

في الفيلم الشهير الذي قام ببطولته المرحوم احمد زكي عن حياة وأعمـــال الرئيس الراحل محمد أنور السادات، تظهر لقطة في الفيلم هي عبارة عن منظر حلاق الرئيس وهو يحاوره على كرسي الحلاقة، فـــيقول الـــرئيس للحلاق افتراضا كم كرسي في صالون حلاقتك؟ فيجيـــبه الحلاق: اثنا عشر كرسيا، فيرد السادات لو جاءت عصابة وســـرقت كـــل الكراسي، واشتكيت واستعطفت وذهبت إلى آخر الدنـــيا، ولم يرد لك شيء، ثم جاء احدهم بكرسي واحد من تلك الكراســـي، هـــل تأخـــذه؟ رد الحلاق بعفوية: نعم آخذه وأطالب بالكراسي الباقية.

لا أحد يعرف على وجه اليقين أن كانت تلك الواقعة حقيقية، أم أن كاتـــب السيناريو احمد بهجت إخترعها كونها فكرة يعرف أنها قد تصل إلى الجمهور بسرعة أكبر من أية كلمات ومشاهد أخرى تشرح الموضوع المراد!

المشهد كان يدور حول عملية السلام التي كان قد قام بها الرئيس الـــسادات، ودعوته العرب وللفلسطينيين كي ينضموا إلى تلك المسيرة وقتها، أو ما عرف لاحقا بمؤتمر فندق ميناهوس.

لقـــد جـــرت مـــياه كثيرة بعد ذلك التاريخ في خضم العلاقات والحروب العربية الإسرائيلية، ووصلنا إلى إقامة علاقات شبه طبيعية بين

بعض العواصم العربية وتل أبيب، وعلاقات ظاهرة باطنة بينها وبين عواصم عربية أخرى، وانتهينا بخريطة الطريق ومعوقاها الكأداء، وبقية القصة كلها معروفة بتفاصيلها المملة.

قبل أسابيع أعلن الأمين العام لجامعة الدول العربية وعلى رؤوس الأشهاد "موت عملية السلام" في خضم بدء الحرب على لبنان، ثم جاء الاجتماع الأخير لوزراء الخارجية العرب، واتخذ قرارا بـ "إحياء عملية السلام"! وعندها تذكرت كلمات المرحوم المفكر الدكتور زكي نجيب محمود حيث قال في حالنا العربي ما نصه "إننا في حياتنا العقلية مازلنا في مرحلة السحر التي تعالج الأمور بغير أسباها الطبيعية. وإننا لولا علم الغرب وعلمائه، لتعرت حياتنا الفكرية على حقيقتها، فإذا هي حياة لا تختلف كثيرا عن حياة الإنسان البدائي في بعض مراحلها الأولى".

قد تكون المقارنة للبعض صعبة، وربما قاسية، ولكن أليس في قتلنا لعملية السلام الكلامية وإحيائنا لها بين ليلة وضحاها، ما يشير ولو بشكل ما إلى ذلك التفكير "السحري" الذي وصفه أحد مفكرينا الكبار رحمه الله.

صور من هذا التفكير ومن ثم العمل، مرت بنا في الفترة الماضية. فعلى خلفية الحرب على لبنان، اتخذ العرب قرارا بالذهاب من جديد إلى مجلس الأمن لإحياء عملية السلام وإيداع تلك العملية الشاقة المجلس الاممي مع تزويده بكل الملفات الضخمة للصراع العربي الإسرائيلي، بدمها ودموعها، لعل وعسى! ولا يخرج الأمر عن رمزية ملفتة في أن "إحياء وموت" عملية السلام تقرر من طرف واحد، واعتقد أن حلاق الرئيس السادات لو شُرحت له عملية السلام بهذه الطريقة المجازية لما فهم المقصود.

في المقابـــل نرى صورة رمزية أخرى في "العقلية السحرية" تظهر علـــى الساحة الفلسطينية، وهي أن حكومة حماس والسلطة الفلسطينية يفكـــران بحكومة "وحدة وطنية" ولكن شرط حماس هو إطلاق من تم احتجازهم من مسؤوليها من قبل القوات الإسرائيلية! أليس في ذلك ما يثير العاقل ويجنب الحصيف الرؤية المتزنة؟

لقد كان بإمكان الإخوة في حماس رؤية القادم منذ أشهر طويلة، وكان يمكنهم التفاوض على أهداف أهم واكبر حيث طلب العقلاء من العرب وأصدقائهم في العالم، من الحكومة الحماسية الجديدة، النظر إلى توازن القوة والاحتكام إلى العقل، فليس الموقف المعارض لأي فريق هو الموقــف في الحكـــومة، حـــيث أن هذا غير ذاك، ولم يكن أحد على السمع، غير الشعارات الضخمة والمسيرات الحاشدة. ثم تطورت الأمور إلى مـــا انـــتهت إليه، وهي الموافقة على حكومة ائتلافية تنقذ ما يمكن إنقـــاذه، ولكن بشرط (وهو شرط متواضع إذا قيس بالشروط الأولى) إطـــلاق من تم القبض عليهم! ألا يؤكد هذا الأمر من جملة تأكيدات أخرى "مرحلة التفكير السحري" كما يؤكد التفنن في تضييع الفرص، كما أوحى السادات لحلاقه؟!

في جو من الانفلات الأمني في مرابع غزة اليوم لا تظهر لا السلطة ولا الحكـــومة، إلى درجـــة اخـــتطاف مراســـلين أجنبـــيين والطلب (التعجيزي) بإطلاق كل السجناء المسلمين في سجون أميركا! لتركهم أحرارا من جديد، كل هذا "خدمة للقضية الفلسطينية" التي استنـــزف بعض أبنائها كل قدرة من الآخرين على المساعدة! فأي مشهد عربـــي مكفهر هو الآن قيد العرض الدولي؟

بالعودة إلى "إحياء عملية السلام" ألا يحق للمراقب أن يتساءل أين جهـــود الدول العربية التي سالمت إسرائيل مباشرة أو مداورة لاقناعها

بالوصـــول إلى تسوية في هذا الخضم من القتال المستمر، ست حروب والباقي قادم؟ أم أن هذه الدول تفتقد منهج الإقناع، أو أن العلة في أن إســـرائيل ليست بوارد التفكير في السلام! مثل هذه الأسئلة لم يطرحها العـــرب على بعضهم، وإلا لما كانوا في حاجة إلى قتل عملية السلام ثم إحيائها من جديد!

في مذكرات الرئيس الراحل أنور السادات "البحث عن الذات" يلخص الأسباب الموضوعية التي جعلته يدخل في مفاوضات السلام الـــصعبة والكـــثيرة الدهاليـــز، أنه قام بما قام به بعد "اقتناعه" بأن إسرائيل لديها من المخزون النووي ما يحيل المنطقة صحراء قفراء. ان أخذنا بهذا الاحتمال، فإن فرصة أخرى للعرب قريبة، وهي حصول الجمهورية الإسلامية الإيرانية على مثل هذا السلاح، وهو سلاح قد يـــوازن الـــسلاح الإسرائيلي. فهل تظهر فرصة أخرى لوضع هذه القـــضية التي لازمت المنطقة أكثر من ثلاثة أرباع القرن حتى الآن، هـــل تظهـــر الفرصـــة لوضعها موضع التوافق، خاصة أن مطالب العرب والفلسطينيين قد تقلصت إلى تحرير الأرض التي احتلت عام 1967؟

ثم مـــا هـــي آفاق مجلس الأمن الذي تعود إليه الملفات من جديد لفرض تسوية، وكل التسويات السابقة تمت من خلال التفاوض المباشر والصعب مع الدولة الإسرائيلية؟

مـــن الواضـــح أن الحرب الأخيرة على لبنان تقدم فرصة جديدة لهجر عقلية التفكير السحري، كما هو هجر البحث عن وسيط، وعلى الـــدول المسالمة كما على الدول الممانعة أن ترى في ما بعد حرب لبنان فرصـــة سياســـية ســـانحة للوصول بهذه الملفات إلى مرفأ، يحقق أولاً للفلـــسطينيين الـــذين تنـــتهك إنسانيتهم كل يوم عيشا شريفا وحرا،

وللعـــرب الآخرين عودة أراضيهم المحتلة ولإسرائيل ما هي موعودة به من استقرار يجنبها الحروب كل بضع سنين.

الخيار الآخر هو البقاء في العقلية السحرية التي تطرب للشعارات، كمـــا تتطهر على جثث القتلى والثكالى والأيتام في انتظار دورة عنف جديدة.

(18)

الانتظار الطويل على محطة السلام في الشرق الأوسط

سـوف ننتظـر نحن العرب كثيرا من أجل أن نرى تغييرا جذريا يـريده بعـضنا في السياسة الأميركية، البعض أصابه الجذل من نتائج الانتخابات النصفية للكونغرس الأميركي الأخيرة على أساس رغبة دفينة في أن الـسياسة الخارجـية للولايات المتحدة سوف تتغير (بالطبع إلى الأفضل تجاه العرب) وهذه ربما تقارب رغبة إبليس في دخول الجنة، إن لم تكـن أصـعب، وهـي اعتراف باطني من جانب آخر ويثير الحزن والـشفقة، بـأن الأوراق الـتي تحملها الولايات المتحدة في يدها هي الأوراق الـرابحة في قضايانا، فإن وصل الديموقراطيون إلى الحكم اعتبره بعـضنا انتـصارا، ويذكـرنا هذا الموقف بمقولة الرئيس المرحوم أنور الـسادات أن تسعة وتسعين في المئة من أوراق اللعبة في يد أميركا، أو مقـولة محمد حسنين هيكل (باسم الرئيس المرحوم جمال عبد الناصر): نحن لا نستطيع محاربة أميركا! حقيقة الأمر أن الموضوع لا يقارب بهذا الشكل المبسط.

في الانتخابات الرئاسية عام 2004 في الولايات المتحدة، التي أتت بالـرئيس بـوش الابـن لـولاية ثانية وأفشلت منافسه جون كيري الديموقراطـي، كـان معظـم المحللـين العرب وقتها يرون في قدوم

الديموقـــراطيين تحصيل حاصل، مما دعا كاتب هذه السطور لنشر مقال ينصح فيه أن يستعد العرب لأربع سنوات من النواح، بسبب الاحتمال الأقــوى لعــودة بوش الابن لسدة الرئاسة. وذلك ما حصل. وقتها لم تــتوج رغبات النائحين بالإيجاب، لأنها كانت رغبات غير مبنية على الحقائـــق، ومليئة بالعاطفة. واليوم فإن تغييرا جذريا للسياسة الخارجية الأميركـــية تجاه العرب يظنها البعض سوف تحصل بسبب الانتخابات النصفية الأخيرة، وهي لن تحصل لعدد من الأسباب الجوهرية.

أولاً: الخلافات السياسية الأميركية يتم التخلي عنها كما يقول المـــثل المـــشهور عـــند حافة الشاطئ الأميركي، أي أنها خلافات واجـــتهادات على مسائل داخلية في الأساس، وليست على قضايا خارجـــية، ففـــي الخارج مصالح الولايات المتحدة هي كما هي، لا تتغير بتغيّر أغلبية في الكونغرس أو تغيّر اللون السياسي لساكن البيت الأبـــيض، إذا أضفنا إلى ذلك أن الرئيس بوش قد تعامل إبان عمله كحـــاكم لـــولاية تكـــساس مع مجلس تشريعي منتخب اغلبه من الديموقراطيين.

ثانـــياً: تبـــيّن لكل متابع فطن أن الخلاف الداخلي في الولايات المـــتحدة إبان المعركة الانتخابية انه، ليس من أجل العراق أو لبنان أو حـــتى الـــصومال أو فلسطين، بل هو اختلاف حول برامج الاقتصاد والعمـــال ومـــوازنة الميزانية الفيديرالية وفرص العمل وسياسات الطاقة وسياســـات الإجهاض والفضائح الجنسية والمالية إلى آخره من القضايا الـــتي تهـــم المجـــتمع الأميركي، على تعدد تركيبته الإثنية والاقتصادية والإقليمـــية الداخلـــية، وكذلك الرغبة التاريخية في التداول السياسي الداخلي حماية للديموقراطية، وما قضايا الشرق الأوسط إلا جزء صغير من كل أكبر.

ثالثا: ان حجم المقبلين على التصويت في الانتخابات الأخيرة بلغ نسبة متواضعة لم تبلغها أي انتخابات نصفية أو عامة قبل ذلك، وهو دليل آخر على أن الجماعة الانتخابية الأميركية ترى أن الموضوعات المطروحة للنقاش ومن بينها (سياسة الولايات المتحدة في الخارج) ليست ذات أولوية قصوى لهم. أضف إلى ذلك أن الفروق في النتائج النهائية للفرز كانت فروقاً "شخصية" غير سياسية، بمعنى أن النتائج حسبت على ما وجده الناخبون في شخصيات المرشحين الآخرين من ضعف، بسبب فساد مالي أو غيره. كل ذلك من جانب، أما الجانب الآخر الموضوعي فهو أن الديموقراطيين ليسوا أقل حماسة لإسرائيل (وهي القضية الأم في الشرق الأوسط) من الجمهوريين. وإذا أخذنا التراكم التاريخي لتلك العلاقة وحسبنا نتائجها الفعلية بين الحزبين، فإننا سوف نصل إلى محصلة تقول إن إسرائيل تحصل على تأييد أفضل واكبر من الولايات المتحدة في حالة سيطرة الديموقراطيين على الحكم. تلك حقيقة تثبتها أي دراسة موضوعية فالسلاح والمال والتأييد السياسي، وكلها تشكل العمود الفقري لاستمرار إسرائيل وتطبيعها بالحيوية والتوسع، قادمة من اللوبي الديموقراطي، حيث للأقلية الصهيونية الليبرالية نفوذ يفوق نفوذ الحزام الديني المتزمت في أوساط الجمهوريين. فالخلاف بين الحزبين في نهاية الأمر هو خلاف على الوسائل لا على الهدف. القضية الرئيسة في الشرق الأوسط التي تسمم كل العمل السياسي في المنطقة ككل منذ أكثر من ثلثي القرن، هي الموضوع الفلسطيني، وهي قضية لها تفاصيل كثيرة، إلا أن جوهرها عقيدة إسرائيلية (خرافية) من الجانب السياسي، لها علاقة بسحر التعود على المألوف أكثر من القدرة على الابتكار، وهي التشبث بمقولة إن أفضل وسيلة للتفاوض مع العرب هي التفاوض الثنائي وليس الجماعي. أرى

أن هـــذه العقيدة يجب إعادة النظر فيها جذريا، من متخذي القرار في واشـــنطن وتـــل أبيب على السواء. والشواهد على فشلها كثيرة. لقد خضعت دول عربية لأسباب خاصة بها وأسباب موضوعية معروفة إلى تلـــك الخـــرافة (التفاوض الأحادي) ووقعت اتفاقات سلام. إلا إنها لم تـــستطع بعد ذلك التوقيع أن تتقدم أكثر في ذلك الطريق، لا اقتصاديا ولا سياسيا. وأصبح السلام جامداً، ومهددا في أي وقت، والدليل عدد المـــرات التي سحب فيها السفراء العرب من إسرائيل ثم عادوا. تبديل الخـــرافة القديمة هو أن يُعتمد على المبادرة العربية ككل، وهي مبادرة تقـــدم بها بشجاعة الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقمة العربية في بيروت 2002، وهـــي إكمـــال لمـــسيرة طويلة للسلام قادتها المملكة العربية السعودية، ولعلنا نذكر أن مبادرة "الأرض مقابل السلام" قدمها الملك الـــراحل فهـــد بن عبدالعزيز في قمة فاس الثانية في مطلع الثمانينيات. إسرائيل والولايات المتحدة ارتكبتا ولا تزالان ترتكبان الخطأ السياسي، وهـــو إصرارهما أو إصرار إسرائيل وموافقة الولايات المتحدة، على أن يكون التفاوض ثنائيا، بين إسرائيل وكل من الدول العربية منفردة، وهو إصـــرار يعقّد الأمور، كما رأينا في لبنان وفي غيره من البلدان المجاورة، لأن الـــشارع العربـــــي مفـــتوح على بعضه، أكثر بكثير من انفتاح الـــيهودي في نـــيويورك مـــثلاً على اليهودي في تل أبيب، ثم يردف بالـــشارع المسلم، أو على وجه الدقة بعض الشارع المسلم. لقد جُرب الـــتفاوض الجماعي ونجح نسبيا (وقد جرّبه بالمناسبة الجمهوريون) في مؤتمـــر مدريـــد عـــام 1992 وجر سلسلة من الاتفاقات، إلا أن حبل التفاوض الجماعي انقطع. (العودة إلى الاعتراف) بموقف عربـــي تكون محـــوره الـــسعودية ومـــصر وسورية، يلتحق به الفلسطينيون كمحور يـــستقطب آخرين من العرب الراغبين في الدخول في مفاوضات نهائية

مرادفاً بتوافق أميركي أوروبي وبموافقة إسرائيلية واضحة، خاصة بعد أن خبر الإسرائيليون حدود القوة العسكرية في حرب تموز (يوليو 2006)، من أجل تقديم ما يمكن أن يسمى "خطة السلام الشامل"، يقلل من كل هذه المعاناة وهذا الدم وهذه الفرص الحيوية الضائعة التي تتبخر مُفرَطة في تنمية المنطقة. كما يقلل من قدرة الطامحين في الإقليم على تسجيل انتصارات لصالح تعزيز مصالحهم التي هي ليست بالضرورة متوافقة مع المصالح العربية والفلسطينية. خطة السلام الشامل إن تم تبنّيها بشجاعة وإصرار وبطريقة حثيثة، سوف توفر على هذه المنطقة العديد من الحروب، أولاً البينية العبثية، وثانيا الحروب الأهلية المرشحة لها المنطقة في ظل الظروف الحالية، والتي تهدد بعدد كبير من القتلى وخسارة ضخمة في البنى التحتية، وخسارة تاريخية لإيجاد صيغة نهائية لهذا الصراع الطويل والمرير. أما الخيار البديل، فبصرف النظر عن المتحكم في البيت الأبيض، فإن الدماء المرشحة أن تسيل والأرواح التي سوف تفارق الأجساد، وعدد الثكالى والأيتام، وعدد المنازل والجسور المخربة والمزارع المحروقة في هذه المنطقة المنكوبة سوف تزداد في إحصائيات العالم، والتعب على من يقوم بالعد!. فهل تقبل إسرائيل والولايات المتحدة تشحيم عملية السلام بالعودة للتفاوض الشامل، أم تقع إسرائيل مرة أخرى ضحية التعود على المألوف؟

(19)

هل حققت الولايات المتحدة بعضاً من أهدافها في الشرق الأوسط؟

اعرف أن طرح السؤال بحد ذاته يسبب حساسية للبعض، ولكنه سؤال مطروح من أجل تحديد مجال اللعبة السياسية في الشرق الأوسط الكبير، إلا أن الإجابة القطعية بنعم أو لا على ذلك السؤال المركزي، هي من شيمة المتسرعين وقصيري النظر.

للولايات المتحدة الأميركية قبل كارثة 11 أيلول (سبتمبر) 2001 سياسات تريد أن تحققها في هذه المنطقة من العالم، وهي أساساً نابعة من مصالحها الآنية أو البعيدة المدى، فشلت في بعضها ونجحت في البعض الآخر. ومن أجل اختصار تاريخ طويل في النجاح والفشل بعد الحرب العالمية الثانية نوجز.

فقد وقف عبد الناصر في مواجهة الولايات المتحدة إبان اضطرام الحرب الباردة، وصعود نفوذ الاتحاد السوفياتي، إلا أن مصر الساداتية استقبلت الرئيس ريتشارد نيكسون بالورود في الشوارع ولم يمض عقد على وفاة عبد الناصر. الحقبة كلها اختلفت بعد 11 سبتمبر، والأهداف والوسائل اختلفت جذريا في الخمس سنوات الماضية. أصبح للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين أهداف أخرى مجملها "دعم الحركة الديموقراطية" و"محاربة الإرهاب" ودفعت أموالاً وبشراً وضحايا

واســـتثمرت طاقة كبرى من أجل تلك الأهداف، التي اعتقدت حقاً أو باطلاً أنها تكون الثنائي الذهبـــي للاستقرار.

والنتيجة أن الفلسطينيين، وكثيرا منا يعتقد أن قضيتهم هي العقدة الكـــبرى في الشرق الأوسط، وخاصة "الحماسيين" منهم، يقولون إنهم حققوا نجاحا في الانتخابات العامة الفلسطينية الأخيرة (فبراير 2006)، اســـتجابة لدعـــوة عامـــة لـــ "الدمقرطة" أطلقت صيحتها الولايات المتحدة.

إذا كان الإعلان ليس بهذا الوضوح، إلا أن كثيرين من مناصريهم يعـــتقدون أن الـــولايات المتحدة ليست جادة في دعوتها الديموقراطية، حـــيث ضـــيقت على "حكومة منتخبة" في الوقت الذي تدعو فيه إلى الديموقـــراطية. لـــيس المقام هنا لمناقشة التفاصيل، ولكن الاستقراء هنا واضح المعالم، وهو أن هناك دعوة لـــ "الدمقرطة" تسعى إليها الولايات المتحدة في المنطقة.

علـــى الجانب الآخر، ليس هناك من عاقل إلا يرى ويتخوف مما يحـــل بالعـــراق اليوم، إلا أن في العراق اليوم ممارسة للتعددية والجهر بالقـــول السياسي، والذهاب إلى صناديق الانتخاب، ورفض "تقديس" القـــيادة بـــل المـــبالغة في نقدها. وما هذه الآراء الكثيرة المختلفة التي نشهدها من عراقيين في الداخل والخارج، إلا نوع من "الدمقرطة" غير المسبوقة في الفضاء السياسي العراقي.

علـــى الجانـــب الأكثر صحة نرى أن دورتين انتخابيتين حدثتا في البحـــرين، وجـــاءت بعدد وافر من أعضاء "المعارضة" في جو انتخابـــي ديموقراطـــي صـــحيح وصحي، والدورة الثانية عادة ما تكون أكثر عمقا ونتاجا. وسبقت انتخابات البحرين بأيام، انتخابات على الطرف الغربـــي مـــن الـــوطن العربـــي الكبير، في موريتانيا التي خاض شعبها انتخابات

تعدديـــة حـــرة ونـــــزيهة ومبشرة باستتباب علاقة صحية بين الأطراف الـــسياسية الموريتانـــية. أما في لبنان فتخوض الديموقراطية في المنطقة أكبر وربما أهم معاركها. بين حكومة انتخبت ديموقراطيا ولها أكثرية في البرلمان، وبـــين قـــوى كبيرة مثل "حزب الله" العمود الرئيسي في مسيرة الرغبة في الـــتخلص من "الحكومة الديموقراطية"، أما القوى الأخرى المحازبة له فهي هامـــشية في الغالـــب. في الساحة اللبنانية الصراع ليس محدودا بها، بل له علاقـــة بـــصراع في الشرق الاوسط الكبير، وهو امتداد لرغبة الولايات المتحدة والغرب في إشاعة "الدمقرطة" وصولا إلى تحقيق سلام أهلي وتنمية اقتـــصادية واجتماعـــية متوازنة تحقق للأغلبية من السكان الأمان والعيش الكريم وبالتالي تقلل من مصادر الإحباط التي هي أحد منابع الإرهاب.

ليس هذا فقط وإنما الحوار الوطني الذي انساب في المملكة العربية الـــسعودية بتشجيع ورعاية من أهل الحكم والسلطة، يأخذنا إلى نفس النـــتائج العامة التي ترغب في تحقيق مشاركة أوسع لمختلف الشرائح في تقرير ما يجب أن يختاره الوطن عن طريق الشورى. وفي دولة الإمارات تـــستعد الدولة، التي حققت خطوات هائلة في التنمية الاقتصادية، إلى الولوج بتجربتها في التنمية السياسية بابا جديدا، وهو الانتخابات العامة الـــتي تعتبر الخطوة الأولى نحو تحقيق مشاركة أوسع. وفي مصر الكبيرة والمهمـــة يجـــري السياق على مسارين الأول هو إصلاحات دستورية واســـعة، مخـــتلف عليها ولكنها موضوعة على نار ساخنة من النقاش، وانتخابات عامة أوصلت "الإخوان المسلمين" إلى مقاعد النواب باعداد لم تكـــن متوقعة من أكثر المتابعين تفاؤلا، بعد أن بقي "الاخوان" على هامش العمل السياسي لفترة طويلة.

بالطـــبع، إلى جانب كل ذلك هناك على الأقل شقان من النقاش يحتاجان إلى إفصاح، الأول هو ما يُكتب في الغرب وخصوصاً الولايات

المتحدة، حول محدودية أو ندرة أو استحالة "الإصلاح الديموقراطي" في المـــنطقة، وهي كتابات وإن صدرت عن بعض الأفراد الذين يغردون خـــارج السرب، أو لهم صدقية محدودة أو على الأكثر يعرضون وجهة نظـــر، فإنه يتم تلقفها في فضائنا العربـــي، خاصة من محازبـــي"الويل والثـــبور" علـــى أنها لا تخرج عن الحق المطلق، وأنها، أي تلك الآراء، صـــحيحة صحة لا جدال فيها. وفي الذهن مثلان حاضران. الأول ما كتـــبه ريتـــشارد هاس حول "نهاية الهيمنة الأميركية" والكثير مما قرأت عـــربياً تعليقاً على الموضوع، اعتبر أن "عنوان" ذلك المقال هو الإجابة النهائـــية، وأطعمـــه للقارئ العربـــي على ذلك الأساس، والمقال في حقيقـــته مناقشة لتحسين شروط الوجود الأميركي، في جو من الحرية يتيح للكاتب وأمثاله التقدم بمرئياتهم المختلفة. والمثال الثاني هو ما كتبه تـــوماس فريدمان حيث نقل عن كاتب آخر هو لورنس هاريسون في كتابه "الحقيقة الليبرالية المركزية" "أن بعض الحضارات ذات نـــزعة إلى التقدم، وأخرى ذات نـــزعة معادية للتقدم". وأوحى الكاتب في تعميم لـــيس بعيداً عن العنصرية، أن العرب تنقصهم المؤسساتية و"رأس المال الاجتماعـــي" من تعليم وخبرة، وهي تبريرات ربما أملتها لهفة الكاتب لتحقـــيق نجـــاح سريع في موضوع يتصف في كل مجتمعات الدنيا بأنه "صيرورة" وليس قرارا فوقيا. ويناقض هذين المثالين الإصرار من أطراف عـــربية كثيرة على أحقية التقدم في مضمار لم يعد حكرا على غرب أو شرق، بل أصبح إنسانياً وعالمياً.

مـــا عرضـــت هو الشق الأول من النقاش، أما الشق الثاني فهو ممارســـة العمل الديموقراطي وصعوبته، وقد جمعهما اثنان من المسؤولين العرب في كلمات قليلة، ولكنها معبّرة. والغريب أن احدهما من أقصى الشرق العربـــي، والآخر من أقصى الغرب العربـــي.

يقول عبدالمجيد العلوي، وهو وزير بحريني كان لفترة طويلة في المعارضة، إن العمل في المعارضة أسهل بكثير من العمل في الحكومة. ويقـــول محمد بن عيسى، وزير الخارجية المغربـــي المثقف أن "كل دولة عربية لها قرحة"، تختلف القرحة في الحجم، ولكنها تتشابه في الموضوع.

تعلـــيق الوزيرين نتج عن خبرة في العمل السياسي، وان اختلفت مفرداهما فهي تقود إلى حقيقة، وهي أن العمل والممارسة الديموقراطية يحـــتاجان إلى الكـــثير من الصبر ومن الأناة، من كل أطراف اللعبة، في المجتمع العربـــي الواحد. فالقرح موجود في كل مكان، كما يقول بن عيسى، كما أن الإطلال عليه من الخارج، من نافذة "المعارضة" أسهل ولا يكلـــف غير اللغو وحشد الأنصار بإثارة نعرهم الغريزية كما يقول العلـــوي. وهـــي نعرة تسد الطرق بكل قوة امام الحوار المعقول، كما يحـــدث الآن بين السلطة الفلسطينية و"حماس"، وبين الحكومة اللبنانية والمعارضة.

والخـــيار بعـــد ذلك هو إما حروب أهلية مختلفة، كما حدث في السودان في السابق واللاحق، أو في الجزائر، أو كما العراق مرشّح اليوم أو حـــتى لبنان أو فلسطين، أو القبول بشرط اللعبة الديموقراطية، فهناك خطوط ثابتة في المبادئ والأعراف والقيم يسير عليها أي مجتمع يرغب في ممارسة الديموقراطية، فهي ليست حقاً إن كانت لي وباطلاً إن كانت علّي، كما تظهر في بعض ممارساتنا.

والآن للإجابة على السؤال المركزي الذي طرح في مقدمة المقال، هـــل حققت الولايات المتحدة بعضاً من أهدافها في الشرق الأوسط، الإجابـــة نعم ولا في نفس الوقت، نعم للتقدم في إشاعة ثقافة "صناديق الانتخاب" ولا لأن الديموقراطية لا تتوقف هناك، فهي ممارسة في صلبها

احترام قوانين اللعبة. وحتى يتحقق ذلك الاحترام يجب أن تحترم الأطراف المختلفة بحق تلك القوانين وتشيع ثقافة الديموقراطية، ولن تقوم الولايات المتحدة بذلك، بل يقوم به قادتنا الثقافيون والسياسيون.

(20)

المكون المفقود في الشرق الأوسط

هـــل ثمـــة قاســـم مشترك يجمع ما بين سقوط الشهداء في بيروت وإخراج المنتمين لحركة "فتح" في غزة من مقراهم وهم نصف عراة رافعين أيـــديهم أسرى بين أيدي معتقليهم، وحرب المساجد في العراق بين السنة والـــشيعة، وسقوط مئات آلاف الضحايا في دارفور والحرب الضروس في الـــصومال والمناوشات في جبال اليمن، فقط لتسمية بعض المظاهر العربية المحـــيطة، وإذا كـــان ثمـــة أمـــر مشترك ما فما هو؟ باختصار هو غياب الديموقـــراطية بمعـــناها المؤسسي الحديث، وهو مكوّن لم يغب اليوم عن الـــساحة السياسية العربية ولا بالأمس. إنه غياب تاريخي، فشلت النخب العـــربية مـــا بعـــد الاستعمار في استحضاره وتفعيله في الفضاء العربـــي السياسي من أجل الشروع في إقامة أجندة وطنية تنموية حديثة.

لم يعتـــر التجربة الناصرية الكثير من السلبيات فقد كانت بشكل عـــام وطنية تريد تحقيق الأفضل لشعبها وجواره. كانت هناك أخطاء ضـــخمة ارتكبتها، ولكن أعظم ما ارتكب من أخطاء هو غياب تفعيل شيء من العمل المؤسسي الديموقراطي.

وكذلك لم يشب التجربة البورقيبية في تونس الكثير من الشوائب، فقد كانت حريصة على تقدم وهضة تونس، إلا أن المكوّن الديموقراطي المؤسسي هو الذي أقعدها في النهاية عن الوصول إلى ما كانت تبتغي، وهو بناء دولة حديثة.

أردت أن اضـــرب مثالين لأقدّم، من مشرق العرب ومن غربهم، دليلاً على غياب هذا المكوّن المهم في التجربة العربية ما بعد الاستعمار. أمـــا إذا مددنا النظر في تجارب عربية كثيرة من الجزائر إلى الخليج، فإننا سوف نواجه بعقبة الغياب القسري للحريات المقننة وذاك يفسر الفشل الذي نخوض فيه اليوم.

ولا اقـــصد هنا الديموقراطية الشكلية بمعنى صناديق انتخاب ذات طـــريق واحد يكتفي بنعم أو لا من الجمهور الكريم، أو تجربة الحزب الواحد، أو حتى التعددية المحصورة في بضع نخب تتداول السلطة. اقصد الديموقراطية بمعناها الأوسع القائمة على قوانين محترمة ذات مرجعيات دستورية، وحريات في القول تضمن أن يسمع كل صاحب رأي رأيه، مـــع الاعتراف بحقوق الآخر المخالف دون تخوين أو تكفير، وهي في جوهـــرها تؤمن بأن لا أحد من البشر معصوم، وان من يعمل يخطئ، ولا يعـــرف الخطأ إلا بضده. تلك هي الفلسفة الأعمق التي تحرم تأليه البشر. لم يتم تفعيل التجربة الديموقراطية على وجه الدقة واليقين في أي بقعة من بقاع العرب. التجربة اللبنانية وهي الأقرب إلى الفحص تقول لـــنا أن مـــا يحـــدث في لبنان هو غياب التعامل الديموقراطي بتوصيفه الـــسابق. نعـــم تمت انتخابات وحصل فرز بين أقلية وأغلبية في مجلس نيابـــــي. إنما بعد أن تغلبت المشاعر والمصالح والأهواء، ضُرب بعرض الحـــائط بكـــل ذلـــك التشدق بالديموقراطية، فالمجلس النيابـــي مقفل والحكـــومة وان كانـــت ذات "أغلبـــية نيابية حكومة فاقدة للشرعية" "حمـــاس" في فلـــسطين ومـــن خلال انتخابات حرة تصل إلى الأغلبية النيابية، تنتهي بـــ "تطهير" غزة من "العملاء والخونة والكفار" المناوئين لهـــا، في الوقت نفسه الذي تضع السلطة الفلسطينية العصي في دولاب "حمـــاس" المنتخـــبة من اليوم الأول. هنا فكرة القبول بالآخر التي تقوم

عليها أسس الديموقراطية غير واردة أو مُفعلة. الديموقراطية التي نفهمها هــي التفــرد. هذا التفرد الذي أودى بتجربة واعدة هي الناصرية في الستينات والسبعينيات من القرن الماضي في مصر. لقد كانت النقاشات وقــتها، خاصة بعد الانفصال السوري عن الجمهورية العربية المتحدة، تدور حول: هل تسمح الناصرية بالمعارضة؟ وبعد نقاش قيل، تفلسفا، إن هــناك بالفعــل معارضة غير مرئية في المجتمع المصري، مكونة من الطــبقات القديمة والباشاوات وأصحاب الحيازات الزراعية الكبيرة التي حــرمت من التعاطي السياسي فلماذا إذاً السماح لمعارضة؟ هذا كان الــسبب القاتل في انهيار التجربة بعد ذلك. فقد تراكمت الأخطاء من قــبل المــنفذين، وسهر القائمون على المؤسسة العسكرية سكارى في ملــذاقم من دون رقيب أو حسيب، ودخل الالاف السجون بتهم أو مــن دونها وبناء على وشايات، وهكذا جاءت هزيمة حزيران (يونيو) 1967 قبل أربعين عاما والناس غافلون في محاربة طواحين الهواء والأفواه مكممــة، ومن أراد أن يتكلم وينتقد أو حتى يتظلم فهو عميل فاسد! الــشعار نفــسه تطبّقه اليوم "حماس" في غزة والسلطة في الضفة، فلا صــوت يعلــو أو ينــتقد، "حماس" تدخل المساجد شكراً لله لأن غزة أصــابت "التحــرر الــثاني" من "الخونة والعملاء والكفرة أصحاب الدولارات الأميركية"

والمشهد إن اختلف في التفاصيل لا يخرج عن الجوهر في العراق، فالوضــع الــذي وصل إليه العراق بعد أربعين عاما أو يزيد من الحكم الديكــتاتوري البغيض كمم الأفواه وجعل من الرجال أرانب تعدو من أجــل لقمة العيش أو التزلف حتى مسخ كل من يتوقع أن يرفع صوته معترضــا حــتى على (صورة السيد الرئيس المقدسة) وهكذا خلق جو إرهابــي من الدولة وما أن سقطت حتى تحوّل الجميع ضد الجميع،

وتحت الشعارات المخونة المكفرة ذاتها. وفي مقابل حرب الخنادق في غزة ظهرت حرب المساجد. أهدم جامعاً سنياً أهدم لك جامعاً شيعياً.

ولكن المأساة في غياب المكوّن الديموقراطي لم تقف هناك، فهناك بلدان عربية ما زالت تسير على المنحى نفسه من دون أن تتعلم الدرس، وهو درس لا يخرج عن تدريب طويل المدى تشترك فيه كل المؤسسات الأهلية والحكومية لقبول الآخر، ووضع القانون فوق الجميع وإتاحة حرية الرأي والنقاش والشفافية. حقيقة الأمر أن المكوّن الغائب الذي أودى بتجارب عربية بعد الحرب العالمية الثانية والدخول إلى مرحلة (تصفية الاستعمار) ما زال غائبا. وهو إما غائب بمعنى أنه غير موجود، بدليل أنه ما زالت نتائج بعض الانتخابات الصورية تكرر نسبة التسعة والتسعين في المائة، وهي نتائج انتخابات صدام حسين المكررة، أو هي تتحول من غياب القانون إلى تغييب القانون عنوة وقسرا. كما في لبنان وليس وحده في ممارسة ديموقراطية عرجاء، تسعى لمصالح ضيقة فئوية ومصلحية تؤدي بالتجربة إلى الاضمحلال في عيون الجمهور أولاً ومن ثم الفشل في الانجاز.

غياب المكوّن الديموقراطي الصحيح يدفع إلى تغييب الأخطاء التي تكنس تحت سجادة المصالح أو تفسر على أنها خيانات من نوع ما حتى تتراكم كل الأخطاء وتنتفخ السجادة فيتزحلق عليها النظام برمته، ويذهب حسنو النية فيه قبل سيئي النية.

لقد ثبت من التجربة العراقية بعد دراستها أن صدام حسين قتل في الجمهور العراقي العام أولاً رغبة النقد، ثم قتل تلك الرغبة في خاصته، حتى صاروا يعتبرون أن كل ما يقوله أو يفعله هو الحق ومن دونه الباطل. وفي النهاية يقف العراق اليوم على شفا التفكك. وهذا يحدث

مـــع ما بقي من فلسطين. فتستطيع "حماس" أن تأخذ غزة وتقيم فيها "دولة غزة الإسلامية المستقلة"، وتستطيع المنظمة أن تحصل على الضفة وتقـــيم فيها "دولة الضفة الديموقراطية الشعبية". إلا موعد الجميع مع دولة فلسطين يتأخر مع كل ساعة من الشقاق سنة من الاستحقاق!

خيـــبة الأمـــل الـــتي تغطي السماء في فضائنا العربـــي السياسي والتنموي هي نتيجة فشل النخبة الحاكمة العربية في استطلاع المستقبل والـــتحوط لما هو آت، وهكذا تسقط التجربة العربية في الحفر العميقة يوما بعد يوم.

علـــى الـــصعيد الإقليمي لا نتوقع أن يحدث تغيير، فلو قدر أن فهمـــت مبادرة الشيخ زايد بن سلطان رحمه الله في الطلب من اجتماع الجامعة العربية في شرم الشيخ عشية الحرب في العراق أن يتنحى صدام حسين عن السلطة ويترك العراق قويا موحدا تحت إدارة أخرى مختلفة، لو قدر لذلك الاقتراح أن ينجح لما عانى الشعب العراقي بكل مكوناته مـــا يعانـــيه اليوم من بشاعة الاقتتال. وبالمثل لو تحلت الجامعة العربية بشيء من الشجاعة تجاه لبنان أو فلسطين لاستطعنا أن نتجنب الكارثة القادمة. إلا أن ذلك أضغاث أحلام، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فغياب العنـــصر الديموقراطي هو غياب تاريخي، وما زال حتى الساعة في غرفة الإنعـــاش، وأفراد المجتمع الذين لا يتمتعون بالحرية لا يمكن أن يكونوا مصدرا للتخيل أو للحكمة.

(21)

تأثير التعديلات الدستورية المصرية على العرب

هـــناك مدرســـة عربية انتشرت على الأقل في النصف الثاني من القـــرن العـــشرين تقول أن ما يحدث في مصر اليوم سيحدث في البلاد العربية غدا أو بعد غد. لست متأكداً من "علمية" هذه المدرسة، ولكن بمـــراجعة الأحـــداث، علـــى الأقل في معظم النصف الثاني من القرن العشرين، يبدو أن الافتراض صحيح، إذا استعرضنا كوكبة من التغيّرات سواء "الثورية" أو التنظيمية، من التغيير عن طريق العسكر، إلى احتضان الاشـــتراكية، مـــن السودان حتى المغرب، وحتى المفاهيم المستعملة في الإشـــارة إلى المؤســـسات (مجالس الأمة، وزارة الإعلام إلى آخره) مما احتضن عربيا وكان أصله مصرياً. فهناك "عدوى" من نوع ما تصيب العـــرب إذا أصـــابت القاهرة.عمقا في تاريخنا العربـــي قامت الآداب الـــسلطانية علـــى مبدأ النصيحة وليس المشاركة أو إيجاد آلية للتغيير. الناصـــح يـــتوهم أن نصيحته سوف تلقى أذانا صاغية، ولقد تنبه ابن خلدون مبكرا إلى أن ما يُسدى من نصائح لا يساهم في تسديد أخطاء "البيت السلطاني" فقد بنى نظريته على العصبية والغلبة وإظهار الشوكة، كمـــا لاحـــظ في أيامه، فالسلطة في بدئها ومنتهاها لا تقوم إلا على الزجـــر، ولا يرى للنصح وأربابه مكاناً في الحكم والسلطة، والزجر في

يومنا هو التنظيم الاجتماعي السياسي ذو المصلحة المحددة في التغيير في هـذه أو تلك من السياسات، وهو أمر يبرز في فضائنا العربـي دون إبطـاء. ويـبدو أن المـراوحة بين فكرة "المطالبة بالتغيير" عن طريق "النـصيحة والـدرس" أو التغيير من فوق وبالقوة، تتقدم الثانية على الأولى، فيما شهده عالمنا على الأغلب، وهي واحدة من أهم معضلات التغـيير والتطوير في بلادنا العربية فهي لا تصدح "للنصيحة"، وقصرت حتى الآن عن تطوير وترسيخ آلية تسميها الشعوب المختلفة من الشرق إلى الغرب (آلية تداول السلطة سلميا) من خلال مؤسسات ثابتة ومتفق علـيها. المخرج هو تعديلات دستورية تهبط من الرأس لضخ شيء من الحـياة في الممارسـة. مـن هـنا فإن الاقتراحات المقدمة من رئيس الجمهـورية المصرية حسني مبارك لتعديل بعض مواد الدستور المصري (مـارس 2007) لافـتة للنظر، وربما أدت في نهاية المطاف إلى تركيب "آلية" حديثة لتبادل السلطة السلمي، فكثير من الدول العربية التي تبنت (دسـاتير) اعتبرتها دائمة وثابتة وغير قابلة للتغير، مع تغيّر الأزمان ولم تـستطع أن تنفذ إلى آلية مدنية تتغير فيها السلطات تغيراً سلمياً وسهلاً ودورياً، تعلي المصالح المتغيرة للناس.

الدليل على ذلك يأتي من «أقدم» الديموقراطيات العربية وهي في لبـنان، ونـرى كم هي غاطسة بين كل فترة وأخرى في حرب أهلية سـاخنة أو باردة بسبب غياب تلك الآلية أو فساد تطبيقها. فمالك في أمـاكن عربية أخرى تجري فيها تجارب مختلفة، ولكنها جميعاً غائبة عن اسـتنباط حـل عـصري بين النصيحة والحكم العضوض، هو حكم المؤسسات.

ومع التغيرات الحادثة في العالم والتي تحث على تقليص السلطات المركـزية وتخفـيف حدة الحكم العسكري أو الفئوي صاحب النفوذ

المطلق لفئة صغيرة من الناس، التي تتداخل فيها الشخصانية بالعائلية بالقبلية بمصالح مدمجة مع الدولة، تتوق الشعوب العربية إلى "خلاص" ما. وقد تكون المقترحات المصرية القادمة هي واحدة من الحلول ومدخل إلى البحث الجدي، وإن قوبلت الاقتراحات بعاصفة من النقد السلبي، وهو نقد تداخلت فيه الرؤى والاجتهادات، وقابل المقترحات بعض النشطاء في مصر بالكثير من الشكوك.

وفق الدستور القائم في مصر حاليا تتمتع السلطة التنفيذية التي يقف على رأسها رئيس الجمهورية بهيمنة تامة على مكونات النظام السياسي والتنفيذي، يملك الرئيس مكانا مميزا في هذا النظام ومن مجموع خمس وخمسين مادة في الدستور، كما يشير الخبراء، تتضمن صلاحيات أو امتيازات دستورية، يختص رئيس الجمهورية وحده بما يقارب خمساً وثلاثين صلاحية وسلطة، بنسبة تقارب حوالي 63 في المائة من تلك السلطات، حين بلغت سلطات الوزراء أربعة، وسلطات القضاء مثلها، أي بنسبة 2 في المائة لكلا السلطتين. أما السلطة التشريعية بمجلسيها (البرلمان والشورى) بأربع عشرة سلطة، أي حوالي 25 في المائة من المتوفر، والبقية الباقية وهي قليلة، تذهب إلى المدعي الاشتراكي (قبل حل سلطته في التغييرات قبل الأخيرة) وإلى المجلس الأعلى للصحافة، وهي سلطات محدودة على كل حال.

أمام السلطات الواسعة التي يتمتع بها رئيس الجمهورية، فإنه في المقابل لا يخضع لأي نوع من أنواع المساءلة سواء أمام البرلمان أو أي من المؤسسات الأخرى، ولا تخضع أعماله للرقابة، على الرغم من شكوى الكويت مثلاً من برلمان لا يجعل الوزير يهنأ بوزارته، جراء الاستجوابات أو التهديد بالاستجوابات المتواترة التي تقارب سحب الثقة أو الاستقالة قبلها بوقت قصير، لم تشهد مصر منذ عام 1952

سحب الثقة في البرلمان من وزير واحد. وفوق ذلك فإن البرلمان المصري في وضـــعه الحـــالي لا يملـــك واقعا أو قانونا لسحب الثقة من مجمل الحكـــومة، ما يملكه قانونا هو سحب الثقة من أحد الوزراء، و لم يفعل بسبب ظروف تركيبة المجالس البرلمانية المتعاقبة.

يـــرى المراقبون أيضاً في التشكيل الحالي للسلطة في مصر، أنه وإن كـــان هـــناك قضاة مصريون لا يشك في استقلاليتهم وكفاءتهم، فإن القضاء قانونا ليس قضاء "مستقلا" بالمعنى القانوني الحديث، وما معركة نادي القضاة التي أخذت أبعادا سياسية كبرى في السنوات الأخيرة إلا شـــاهد علـــى التجاذب الحاصل في محاولة تأكيد فصل السلطات عن بعـــضها، الـــتي تـــؤكدها الممارسة الدولية في "استقلال السلطات مع تعاونها" المأخوذ به في المجتمعات التي رسخت فصل السلطات، من أجل تحقيق عدالة وشفافية أكثر تحقيقا لمصالح الجمهور. وبين تأكيد وحدتها المركزية سلامة للنظام كما يفترض.

يلاحظ من يتابع تركيـب السلطة في مصر ما يسمى بعدم انسجام بنائـــي بـــين السلطات الثلاث، التنفيذية والتشريعية والقضائية، وهناك مطالـــبة بين المهتمين باصلاح حقيقي وتعديل التناقض إلى انسجام في هذا التسلسل الحاكم، تبقى الأمور على ما هي عليه.

مـــن هنا فإن الاقتراحات المقدمة في مصر لتطوير التشريع من خلال تعديلات في نصوص بعض مواد الدستور فى (مار س 2007) لها أهمية ليس في مـــصر فقـــط، بـــل أيضاً في فضائها العربـــي، ولعلنا نذكر أن أول انتخابات "تعددية" للرئاسة حدثت في الانتخابات الماضية في مصر، وعلى ما شابها من نقد وما تلاها من أحداث، وهي والانتخابات العامة لأعضاء الـــبرلمان، إلا أنها لا شك أطلقت دينامية شاهدنا تأثيرها في جنوب الجزيرة العربية، حين تنافست شخصيتان في الانتخابات اليمنية على سدة الرئاسة.

إن تطــور الاقتراحات المقدمة من الرئيس المصري لتبعث حياة في الــبرلمان وتتطور الأحزاب لتستخدم بعض الأسنان السياسية في الرقابة والمــساءلة، بعــيداً عن التكتل ذي اللون المذهبــي والعقيدي، سوف يــنفخ في الحياة السياسية المصرية حالة تتطور على شاكلة مؤسسية لم تعــرفها في الخمــسين سنة الماضية، وتتحول الحريات التي لا شك في وجودها اليوم، من حريات ممارسة دون غطاء تشريعي، إلى حريات لها سقف ينتمي إلى آلية تشريعية حديثة.

كــل ذلــك سوف يؤثر فيما هو قائم في الجوار المصري، وهو الجــوار العربــــي، الذي كثيرا ما تأثر بما يحدث في مصر، وفي نظر الــبعض أن هذا التحول هو شبه طبيعي يأخذ من التراكم الكمي تحولاً نوعــياً. إلا أن المعــركة الــسياسية ما زالت في أولها، فلا يزال بعض "وعــاظ الــسلطان" ينظــرون إلى السياسة على أنها فضائل ورذائل، مخاصمين العصر من دون تصالح.

(22)

الاستقلال العربي المفقود

قـــراءة المشهد العربي بعمق وبتؤدة تقول إن العرب أو معظمهم فقدوا استقلالهم.

تعالوا نستعرض الصورة الحقيقية التي تنبئ بهذا الأمر. ما يحدث في السودان من كر وفر بين حروب صغيرة وكبيرة مدمرة يذهب ضحيتها مئات الآلاف من الضحايا تتدخل فيها القوى العالمية وتستنـــزف طاقة الـــسودان الاقتـــصادية. تقـــول لنا الوثائق الدولية إن أردت أن تقنع الـــسودان بشيء أو بخطوات عملية لقبول تدخل دولي لتخفيف المآسي الإنسانية، فعليك بالحديث مع الصينيين، لأنهم قادرون بسبب علاقاتهم الاقتـــصادية المتجذرة، أن يقنعوا السودانيين بفعل شيء أو نقيضه. وان أردت أن تتحدث مع "حماس" في غزة عليك أن تتجه إلى عنوان غامض في دمشق يسكنه المتحدث الرسمي لـــ "حماس"[1]، الذي سوف يتريث حتى تأتيه الإشارة ليس من وسط دمشق، بل ومن طهران أيضاً. أما إذا كانت ثمة محكمة لمتابعة معرفة حقيقة مسلسل القتل البارد للسياسيين في لبنان، من الرئيس رفيق الحريري النائب وإلى القاضي وليد عيدو مروراً

---

(1) كتب الكاتب كثيرا عن فلسطين ونكبتها، إلا أن أحداً لم يتصل به، إلا في هذا المقال بعد نشره، فقد اتصل به السيد خالد مشعل لينكر ما ذهب إليه الكاتب. فكـــرة الاتـــصال تعنـــي انك تكتب عن القضية ما تريد، إلا أن الكتابة عن الاشخاص تثير القلق!!

بكل الضحايا في لبنان المنهك، فعليك أن تقرأ الفصل السابع من شرعة الأمم المتحدة، وترى كيف تتصرف الدول الخمس الكبرى صاحبة العضوية الدائمة في مجلس الأمن تجاه الموضوع برمته. أما إذا كنت متشوقاً لمعرفة سبب الأحكام القضائية المتناقضة على الممرضات المتهمات بنقل الدم الملوث في ليبيا فعليك أن تسأل الاتحاد الأوروبي. ولا حاجة للحديث عن قرار بغداد الموجود أولاً في مكتب السفير الأميركي في المنطقة الخضراء في قلب بغداد، السيد ريان كروكر، ومن ثم دوائر الخارجية والبنتاغون والبيت الأبيض. أما إذا أردت أن تعرف لماذا تتم بعض الإصلاحات العرجاء الشكلية في بعض العواصم العربية، فعليك أن تقرأ التقارير الدولية حول حقوق الإنسان ووضع المرأة، أما إذا كانت لديك رغبة في معرفة من أين تتدفق الأموال على الخلايا النائمة في كل مكان تقريباً من أرض العرب فإن الجهات الدولية تستطيع أن تخبرك عن مصدر قدوم هذه الأموال. وهكذا تتسرب حقوق السيادة العربية التي ناضل جيل كامل من أجل استردادها. إنه فشل صاعق وغير مسبوق في بناء الدولة الحديثة، إلا إذا استثنينا بعض مناطق أفريقيا السوداء.

أما الصورة عن قرب فإن اجتماعات الجامعة العربية هي حبر على ورق، فلم تعد لجهود أمينها العام الدائر على نقاط السخونة الكثيرة حوله قدرة على التأثير الايجابي ولو بقليل على الأحداث العربية الجسام، فإن هو توجه إلى بيروت قيل له كلّم طهران، وإن توجه إلى الخرطوم قيل له اذهب إلى بكين. وهو في كل الأحوال يرى أن مرجعية الأمم المتحدة الأكثر تأثيراً في العواصم العربية المختلفة من تمنياته وحكمته هي التي منعته حتى الآن من الذهاب إلى المغرب والصحراء لأنه يعرف أن مفتاح الربط والحل ليس إلا في مكان آخر.

يجــتمع الفلسطينيون في مكة ويحلفون بأغلظ الايمان أنهم سوف يقومون بتحريم دم الفلسطينيين على رصاصهم، وما هي إلا أسابيع حتى يــأتي أمر عمليات من مكان ما (حرروا غزة من الخونة والكفار معاً) ويحدث أن يضرب رصاص الفلسطينيين بعضهم بعضاً، كما لم يضربهم عدوهم.

مــا تفسير هذه المشاهد العبثية الذي تسير فيه أمم كثيرة في هذا العــالم صــغيرة وكبيرة إلى الاستقلال والتنمية، ويسير فيه العرب في الطريق المعاكس؟!

ببساطة الأسباب متعددة، على رأسها أن قوى سياسية ذات إسناد أصــولي تــركت ملياً للتحكم في الشارع العربي الذي هيئ كي يقبل التــسلط، وبسبب قوى حاكمة تريد الشهد من دون أن تعرض نفسها لقــرص ابــر النحل، شاخت أو تداخلت مصالحها الضيقة مع المصالح العامــة، فغابت المصالح المرسلة تحت وطأة تقنين الفساد وحرمان الناس من حق أدنى للتعبير.

كــل ذلــك أنــتج غالبــية مغلوبة على أمرها، يساندها الجهل والتجهيل. فعدتها المعرفية التي تتغذى عليها وتسيطر على جمهرة العقول العــربية هي دون الحد اللازم لمعرفة ما يجري حولها. بسبب كل تلك العــوامل فُقِــدَ التصور المعقول للخروج من المأزق التاريخي، وسارت شعوب عربية كي ترتطم بالحائط وهو الحروب الأهلية.

العرب الفاعلون والمؤثرون لا يخرجون عن نخبتين، واحدة خارجة عن المحيط، وأخرى خارجة عن العصر.

ملامح الخطر مرئية أمام الجميع، رغم أن اكتشافها تم قبل سنوات وأشار إليها كاتب ياباني هو نوبوواكي لوكهارا في عمله الذائع الصيت (العــرب بعيون يابانية)، عمل تحدّث عنه بعضنا أكثر من مرة، إلا أن

تحذيــراته ذهـــبت أدراج الرياح. لقد قال في كتابه إن هناك توتراً في الــشارع العربي وصفه بــ "صراخ الصامتين" ووجد في صلب أسبابه "غياب العدالة" كما قال، ثم أردف "في اليابان تضاف حقائق كل يوم بيـــنما العربي يكتفي باستعادة الحقائق التي اكتشفها في الماضي البعيد" وهذا ينطبق على الاقتصاد والاجتماع والسياسة العربية.

لن نذهب بعيداً عن الحقيقة عند القول أن لب أزمة التنمية العربية (الــسياسية والاجتماعـــية) هـــو ضـــعف الإدارة العامة أي هشاشة المؤســـسات الـــتي فشلت فشلاً ذريعاً في تفعيل رأس المال الاجتماعي، وهـــم الأفراد العرب القادرون والمؤهلون لبناء دولة حديثة. وليس هذا ذنـــب الحكـــومات فقط، بل هو ذنب تتقاسمه الأحزاب والنخب حتى خـــارج الحكم والسلطة. كل ذلك أدى إلى أن تفقد الدول العربية أو كثير منها السيادة الوطنية، وهي لم تفقدها نتيجة التدخلات الأمنية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 المزلزلة، التي لم تقرأ نتائجها حتى اليوم بدقة، ولكـــن أيـــضاً نتـــيجة فشل ذريع في عدم حفظ الحد الأدنى من القيم الإنسانية.

لهـــذه الأسباب فقد العرب استقلالهم، وإذا لم يقتنع أحد بذلك فهـــل يستطيع أي منا أن يجيب على سؤال لماذا وقد دخلنا حروباً مع إســـرائيل لمدة أربعة عقود حتى الآن، تنتهي تلك الحروب بقوات دولية على الحدود، ولكنها تعسكر على حدودنا؟.

هل بقي شيء من الاستقلال نتحدث عنه؟.

(23)
احتضان الحياة والتنمية في الرسالة الإسلامية

تلقى المختصون والمراقبون في العالم الإسلامي والعربي، قرار الكونغرس الأميركي (2006) الذي تحدث عن الإسلام كونه "من أعظم الديانات السماوية" بترحيب شديد، حيث لاحظ القرار أن المسلمين اليوم يشكلون أكثر من بليون ونصف البليون من سكان هذا العالم، كما أن القرار بشكله وبما احتواه من نصوص يتقارب مع الواقع، ويبعد التشنج والتعصب اللذين ابتليت بهما العلاقة الغربية الإسلامية منذ ست سنوات بسبب أحداث 11 أيلول (سبتمبر). هذا القرار عقلاني من جانب المشرّع الأميركي، كما أن استقباله من قبل الأوساط الإسلامية لفظاً على الأقل يشجع للحديث عن نقلة أخرى نقوم بها نحن المسلمون تجاه الحفاظ على رسالة ديننا الإسلامي الحنيف[1].

قبل الدخول في تفاصيل الخطوات التي يمكن أن تقوم بها المجتمعات الإسلامية من أجل تعزيز تلك الرؤية الايجابية، لا بد من التذكير بقليل من الحقائق التي لم تعد سراً إلا على من لا يريد أن يرى.

---

(1) المؤسف ونتيجة لردة الفعل الغاضبة تحولت كل تقاليد الإسلام الحضارية العظيمة – لدى البعض- إلى نزق المعاندة، وتحولت بعض الممارسات من الاصول إلى الفروع مما اضر بسمعة المسلمين وعرّض مصالحهم للخطر.

من تلك الحقائق أن العمل السياسي الإسلامي انتشر في الأوساط العــربية والإسلامية منذ فترة زمنية بشكل واسع وملحوظ، فإذا أخذنا بلــداً مــثل تــركيا وهي المثال المشهور في العمل السياسي الإسلامي الديموقراطــي نكون قد أشرنا إلى شاهد واضح، إلا أن باكستان مثل آخــر، فأقــوى حزبين لهما أو لإسميهما علاقة بالإسلام هما "الرابطة الإسلامية" و"الجماعة الإسلامية". أما في إيران فليس لكاتب أن يؤكد علــى ما هو مؤكد بأن العمل السياسي في إيران، ظاهراً وباطناً اعتمد ومــا يــزال على مقولات إسلامية وأسماء إسلامية، كالإشارة إلى ان الجمهورية هي "جمهورية إيران الإسلامية".

مــن جهــة أخرى فإن وصول عدد من الأحزاب للمشاركة في الحكم أو البقاء في السلطة تحت هذا الشعار الإسلامي أو ذاك أصبحت أوضح من أن توضح، سواء في السودان أو مصر أو المغرب أو لبنان أو غيرها من البلدان العربية والإسلامية المختلفة. ومن الحقائق الأخرى أن المــنظومة الاقتــصادية التي لها علاقة بالإسلام مثل البنوك الإسلامية أو شــركات الــتأمين الإســلامية وغيرها من المؤسسات تأخذ الصبغة الإسلامية في شعاراتها عدداً يتنامى ويتوسع أضعافاً.

الإشكالية التي يواجهها العمل الإسلامي السياسي وما يتفرع عنه أن لا مرجعية موحدة له، وقد ضج كثيرون بالشكوى من الانفلات في "الإفــتاء" بعلــم وبغــير علم، حتى أصبح لدينا مفتون (تحت الطلب) وبمجــرد إرسال رسالة تلفونية على رقم هاتف المفتي أو الحديث معه، تأتيك الفتوى قاطعة ونهائية في شؤون الدنيا والدين. وتضاربت الفتاوى في أرجاء عالمنا الإسلامي إلى حد التناقض، مما اضطر مؤسسة كالأزهر في مــصر أو المؤسسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية إلى أن تتدخل لتنظيم هذه الفوضى والتي لا اعتقد أنها سوف

تــنظّم في القريب العاجل. والسبب هذا الانفتاح الضخم على وسائل الإعلام والاتصال الحديثة وتدني الوعي.

الخطــورة تكمن في المقاربة الدينية لموضوع هو في أصله سياسي، وهــو الخطأ الذي وقع فيه كثيرون. ولتفسير القول السابق فإن الغرب عموما قد خلط بشدة، وسايره البعض منا، بين ما حدث في 11 أيلول 2001 كــونه سياسياً وبين الدين الإسلامي، وهذا الخلط لم يأت عن ســذاجة أو عن سبق قصد وترصّد، بل كان من الطبيعي الخلط وقتها بــين هذا وذاك، كون الخطاب الذي رافق تلك الهجمات ومهّد لها من قــبل لسنوات طويلة التبس مع الإسلام كدين وعقيدة، مما سهّل بعد ذلك على الطرفين (الطرف الإرهابــي) و(الطرف الغربــي) أن تختلط المفاهيم لديهما، ويؤسسا ردة فعلهما على فهم خاطئ جذريا.

ولتفســير ما سبق دعونا نبتعد قليلاً عن الحدث ذاته كي نضرب مــثلاً قــريبا منه، ففي السنوات الأولى من القرن الماضي دخل شعب ايــرلندا في صــراع مع مستعمريه البريطانيين، وتكونت حركة شعبية مقاومة ضمت الكثير من الكوادر الايرلندية وشنت تلك الحركة حرب تحرير أهلية على القوات البريطانية والمصالح البريطانية في الجزيرة الكبيرة ايرلندا. إلا أن الطرفين، توصلا في النهاية إلى حل وسط يتيح استقلالاً مــتدرجاً لمــواطني ايــرلندا بقيادة رؤوس المقاومة وقتها، وما أن وقع الاتفــاق حتى انبرت فئة من المقاومة ترفض ذلك الاتفاق مما أدى إلى تحــوّل الحــرب التي كانت بين المستعمرين والمقاومين، إلى حرب بين المقاومين أنفسهم، وتقاتل الإخوة قتالاً مريراً في السنوات التي تلت حتى تضاءلت قوة المتشددين وخرجت جمهورية ايرلندا إلى الوجود.

مع بعض الفارق ما حصل في الشرق هو نسخة وان اختلفت في التفاصيل. فقد حارب "المجاهدون" مع الأميركيين في أفغانستان جنباً إلى

جنب، وبعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها، انقسم الحلفاء السابقون إلى جسم كبير اعترف بأن الحرب انتهت والمهمة تحققت، فعاد البعض إلى أعمالهم اليومية، وآخرون قرروا أن يبحثوا عن حروب مماثلة. ذلك المسار أوصل البعض القليل إلى أحداث 11 ايلول وما تلاها من أحداث إرهابية في بعض الدول الإسلامية.

نعود من جديد إلى أصل عنوان هذا المقال وهو الإسلام التنموي، فقد ترك الأمر لغير أهله لتمثيل الإسلام والمسلمين في غياب واضح لرأي الغالبية المسلمة، حتى فاض الكيل. والمؤسف أن ترك الأمور كما هي ما يزال مستمراً إلى اليوم، إما لتفادي المشكلات التي يتوقعها البعض من إثارة هذا الموضوع، أو بسبب جهل ما يمكن أن تجره تلك الأفكار على العامة من الناس من نتائج سلبية. فمفتو الفضائيات تكاثروا حتى أصبح المراقب يعتقد بأن الموضوع هو (تجارة) لا أكثر، ويحرّفون الكلام عن مواضعه. في الوقت الذي نص القرآن الكريم على تحريم التجارة في كلماته ونصوصه. يقوم البعض عن جهل أو سوء طوية بانتقائية في النص ثم عزل النص القرآني عن أسباب نزوله ومن ثم تجريده عن غاياته الكبرى وقيمه الإنسانية المطلقة، وإطلاقه بغلو على عقول البسطاء على أنه نص مباشر. يتناسى هؤلاء القيم الكبرى للرسالة وفيها من النصوص الإنسانية المتسامحة، ما تعجز عن الوصول إلى قامته أي نصوص دنيوية. هذه النصوص في التسامح والقبول بالآخر والحث على المكارم والعمران والاستعفاف والتساهل والتعاون ونبذ التعصب والإصلاح بين الناس والتواضع وحسن السلوك والرفق والإحسان وأداء الأمانة ونبذ التنازع وسلامة الطوية والاستقامة والعدالة والعفو عن الناس ودرء الفتنة وذم الكذب والنفاق والغلو والابتعاد عن التعميم واستباق الخيرات واحترام التملك وتعظيم احترام

الأسـرة والوالدين والاعتراف بالشرائع الأخرى، هي من بين عشرات مـن القيم الإنسانية الرفيعة، التي يسميها اليوم علماء الاجتماع بالقيم المولدة للتنمية. هذه القيم تتغلب عليها لدى عقول البعض من المتصدرين قيم التخويف ونبذ الآخر والاحتراب، ويتوسع في استخدامها بانتقائية شديدة. والقيم الأخيرة هي مضادة للتنمية، في الوقت الذي تدفع القيم الكبرى الأساسية في الإسلام ومنها ما أشير إليه سابقاً إلى احتضان الحياة والسير في التنمية البشرية.

(24)

قرن عربي في التيه السياسي

قبل ما يزيد قليلاً على المائة عام، نشر فرح أنطون كتابه المعروف "يقظة العرب"[1]، وتم النشر في فرنسا حيث لم يتسن للكتاب أن ينشر عربيا وقتها، وقامت الدنيا ولم تقعد في الأوساط العربية عند ذاك، لأن فرح أنطون طالب في ذلك الكتاب أن تستقل الدول العربية عن السلطة العثمانية، وتشكل دولة واحدة مستقلة! كيلت للكاتب صنوف من التهم، أقلها أنه يعمل بوحي من الاستخبارات الفرنسية! واليوم بعد مائة عام أو يزيد من نشر ذلك الكتاب، من الصعب على عاقل أن يتحدث بصورة المفرد عن البلدان العربية، بسبب تناقض مسيرتها تقريباً في كل شيء، والصيرورة التي أصبحت عليها. قبل قرن من الزمان فقط كان الآباء يستهجنون حتى قيام دولة عربية موحدة، إلى أن أصبح الأمر شتاتاً ليس في كل دولة عربية حديثة، ولكن أيضاً في قطاعات اجتماعية عرقية وطائفية ومناطقية ودينية في تلك الدولة. لقد كان فرح أنطون مفرطاً كثيراً في تفاؤله الذي لم يكن له محل.

أصبح الخلاف في لبنان مثلاً على من يتحكم بهذا الحي أو ذلك من المدينة، وأصبح الخلاف في المدن الفلسطينية على من يتحكم بهذا

---

(1) صدر الكتاب أولاً في فرنسا بالفرنسية في مطلع القرن العشرين، ثم ترجم إلى العربية.

الشارع أو ذاك، أما الخلاف العراقي فقد أصبح على من يتحكم بهذا المنزل أو ذاك.

في قرن عربي واحد شهدنا كل هذا التشرذم إلى درجة قد لا يستطيع معها أحد أن يتكلم عن الوحدة الوطنية في البلد الواحد نفسه، فما بالك إذا استمر الأمر على ما هو عليه، ترى كم دولة عربية ستكون لدينا بعد مائة عام من الآن؟

علي عبدالله صالح رئيس الجمهورية اليمنية ذهب قبل سنوات إلى أميركا وظهر بزي صنعاني محلي فثار البعض في اليمن لأنه لم يظهر بزي جنوبي! السودان الذي تركه الانكليز موحداً، وكانت حفلة التسلم والتسليم في ذلك اليوم القديم من كانون الثاني (يناير)، يوم الاستقلال، على رأسها ثلاثة أشخاص، الحاكم البريطاني الذي يُعد للرحيل، ورئيس الحكومة السودانية، وثالثهم زعيم المعارضة، في احتفال مهيب، ظن البعض أن المعارضة جزء من التكوين القادم للدولة الوطنية! وانتهى السودان، ليس إلى تأكيد انفصال الجنوب عن الشمال، كما أصبح مؤكداً اليوم، ولكن أيضاً في خضم حروب أهلية بين المتماثلين أنفسهم لأسباب اقتصادية وسياسية لا تخفى على احد، أما الصومال فلا يستطيع مراقب أن يتابع بالواقع نفسه والسرعة الذي تتغير فيها التحالفات والخصومات، كل ذلك جعل من استنزاف الثروة سواء السودانية أو الصومالية القاعدة الأساس في حروب الإخوة.

ليست الجزائر ببعيدة عن هذا التوجه الذي يؤدي إلى تفتيت الأوطان تحت شعارات شتى وإغراءات مختلفة، مناطقية وعرقية واقتصادية ولغوية. وحتى البلد الكبير مصر، انتقل من تعانق الصليب والهلال في عام 1919 إلى المطالبة بأحزاب دينية، وتكفير المخالف.

مـــا بشر به فرح أنطون منذ قرن تقريباً أصبح فسيفسائيا لا يقدر حـــتى أن يصد عن نفسه وطريقة حياته وثرواته طموح الطامحين. هذا كله اظهر ميلا مرضيا للتشديد على الهويات الفرعية في ما كان يعرف بالوطن الواحد الذي نتج عن تسويات الحرب العالمية الثانية في منطقتنا.

يـــتحدث البعض اليوم عن حرب أهلية في العراق، ويتمنى بعض البسطاء والسذج في الفهم السياسي أن يعود العراق كما كان موحدا! وهـــو أمـــر لا يمكن أن يحدث. لقد تقرر تقسيم العراق عندما صوت العـــراقيون على الدستور القائم اليوم، فهذا الدستور المرعي حتى اليوم ولأجل قادم من الزمن يرسم الخطوط العريضة للتقسيم في العراق، ومن يقـــرأ نصوصه بتمعن يعرف على وجه اليقين أنه لا يهدف إلى فيدرالية كما يعتقد البعض، بل في أفضل حالاته إلى كونفيدرالية تكون مكوناتها شـــبه مـــستقلة، وأصبح الحلم العراقي أن يحقق فيدرالية تقوم السلطة المركزية فيها بالأعمال الحيوية للدولة أمنية بعيدة التحقق.

الأمـــثلة التي سقتها تعبّر عن فشل الدولة العربية، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، في أن تقوم بواجبات الدولة الحديثة. اتخذ البعض من الشعارات زاداً لاستمرار حكم القمع، فلا حافظوا على الدولة ولا حققوا التنمية ولا ساهموا في التحرير.

المأساة أن الفكر المسؤول عن تهيئة الشعوب لنتائج كهذه لا يزال ســـائداً ويقـــوم أساساً على رفض المعروض الحالي في سبيل توقع حال أفضل، وينتهي الجميع بقبول اقل من الحد الأدنى المعروض.

والأمـــثلة كثيرة وصادمة. يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل إن الغـــرب عرض على جمال عبدالناصر كل المساعدات الممكنة، فقط اذا وصـــل إلى تسوية مع إسرائيل. الموضوع فيه تفاصيل كثيرة، ولكن ان قبلـــناه علـــى علاتـــه، فبعد أربع حروب وفقدان مساحة من الأرض

العـــربية، أكبر من حجم إسرائيل التي كانت وقتها، توصل خلفاء عبد الناصـــر إلى التـــسوية، بـــثمن أكبر وبعد أن صرفت طاقات أضخم. وكذلك تكرر الأمر لدى "حماس" اليوم، فبعد رفض مبدئي للاعتراف بما وقعته السلطة الفلسطينية من اتفاقات دولية، وبعد عشرات الضحايا مـــن الفلسطينيين والحرب الأهلية التي بذرت بذرها، تعود "حماس" من جديد لتقول إنها على استعداد لقبول كل ما اتفقت عليه المنظمة دولياً في الموضوع الفلسطيني. ويكاد الأمر أن يتكرر في أكثر من قضية عربية وأكثر من دولة. رفض المعروض الآن في مقابل قبوله بشروط اقسى في المستقبل!

يتكرر الأمر في لبنان، فبعد تحرير للأرض تكاتف فيه السياسي مع المقـــاوم في عام 2000 واستقطب السيد حسن نصرالله عقول وقلوب كـــثيرين خارج حزبه وطائفته، انتهى إلى أن أصبح بعيداً عن التحرير، بوجـــود قـــوات كثيفة للأمم المتحدة على الحدود اللبنانية الإسرائيلية، وكان يواجه قراراً دولياً واحداً، فأصبح يواجه قرارين، وكان يظهر بين قـــومه فاختفى، وعلمنا التاريخ أنه عندما تختفي حركة سياسية تصبح أكثـــر راديكالـــية واقرب إلى الرفض المطلق، ويتحول شباب لبنان إلى عاطلين بعد توقف دورة الاقتصاد، وينضم كل فريق إلى فريقه استعداداً لحـــرب أهلية تقسم لبنان على صغره، وتنـــزلق من سيئ، وهو حرب طائفية بين المسيحيين والمسلمين في السبعينيات، على سوئها، إلى الأسوأ وهي حرب مذهبية بين المسلمين أنفسهم!

القـــرن الـــذي مر بين نشر كتاب فرح أنطون وبين اليوم، شهد الهـــوية الوطنية الواحدة التي طالب بها لكنها تتحول إلى هويات لبلدان مخـــتلفة، ثم تحولت أو هي في سبيل التحول إلى هويات فرعية في داخل الجـــسم الـــوطني الواحد، تتقاذفها ايديولوجيا التبجيل وتسخير الدين

للسياسة، وسياسيون معصومون من الخطأ، وجمهور غارق في الخرافات السياسية فيا له من قرن عربـــي!

(25)

سيدي الرئيس أهلا ولكن[1]

السيد رئيس الولايات المتحدة، أهلا بك في الكويت ضيفا عزيزا على حكومتها وشعبها، فالكويت وأهلها ممتنون لموقف بلادك الشجاع الذي قررت فيه مؤسسات الدولة الأميركية، خوض حرب بالاشتراك مع أشقاء عرب وأصدقاء من العالم، من أجل إحقاق الحق، وتحرير الكويت من براثن نظام جائر. وهذا الشكر هو من طبيعتنا في الاعتراف والتقدير لكل الأعمال والمواقف التي وقفتها الولايات المتحدة مع الكويت، ومع الحفاظ على الأمن في هذه المنطقة الإستراتيجية للاقتصاد العالمي.

والشكر في ثقافتنا سيدي الرئيس، يعني من ضمن ما يعني، أن يبذل المشكور جهده في مضاعفة العمل الإيجابي المشكور عنه، وهو ما سأتناوله في صلب هذه الرسالة.

نحن أصدقاء، يا سيادة الرئيس، والأصدقاء دائماً يتوخون الصراحة في الحديث فيما بينهم من أجل المصلحة المشتركة، ونعرف أنك تحب حديث الصراحة لأنه الطريق الأسلم لمعرفة مكنونات النفس.

تأتون، سيدي الرئيس، من ثقافة مختلفة، ثقافة أسس لها رجال كبار من الولايات الثلاث عشرة الذين قرروا في ذلك الزمن البعيد أن

---

(1) قام الرئيس السابق جورج بوش الابن بزيارة إلى الكويت ومنطقة الخليج في يناير 2008 (9 يناير) ورحب به الكاتب ضمن تطلعات العلاقات المتوازنة.

تـــستقل بلادهـــم عن الحكم البريطاني، مؤسسين للدولة وأن يصدروا الدســـتور الأميركي عام 1787، وهو أول دستور مكتوب، ومبني على احتــــرام حقوق الإنسان والحريات العامة، كما أتبعوه بقانون الحريات المكـــوّن مـــن عشرة قوانين، أصبحت في صلب الممارسة السياسية في بلادكم المؤثرة على النطاق العالمي، وتسمى قوانين الحريات.

ثقافتنا وثقافتكم تختلفان في الكثير من الأمور، فنحن نقول في إن الاخـــتلاف رحمـــة، وهـــو من طبيعة البشر. إلا أن الثقافتين، ثقافتنا وثقافتكم، تجلاّن الحق وتحترمانه، خصوصاً عندما يظهر ويتجلى للعقلاء فيهبون للدفاع عنه.

من هذا المنظور، ربما سمعتم، سيدي الرئيس، وستسمعون مطالب كثيرة في زيارتكم لهذه المنطقة، منها طلب التهدئة مع الجارة إيران، لأن الـــضرر لو حصل فسوف يصيب الجميع، وسوف تسمعون أيضاً عن مطالـــبات بإطلاق أبناء عرب، ومنهم كويتيون، من سجن غوانتنامو، ونحـــن مـــع تلك المطالبة، وربما ستطالبون ونطالب نحن معكم أيضاً، بتجفيف منابع الإرهاب، إلا أن ذلك كله وغيره هو من المشكلات التي نواجهها، تشترك - إن لم يكن كليا ففي هامش كبير منها- مع قضية لها علاقة بالحقوق الإنسانية، وأعني ما يجري على أرض فلسطين. وقد تسألون أو يتساءل من هم حولكم، عن علاقة كاتب كويتي يبعد مئات الأميال عن فلسطين بقضية كهذه؟! إنها العلاقة نفسها سيدي الرئيس، (وللتدلـــيل فقط) التي تربط يهودياً في بروكلين ونيويورك، مع يهودي آخر في تل أبيب.

مـــا أعنيه هنا، أن الكثير من الظواهر السلبية من حولنا، ينبع أو يـــستند حقـــاً أو باطلاً إلى تلك القضية، كما أن بعض شبابنا اليوم في غوانتـــنامو، وقد خيل لهم أن ما قاموا به له علاقة بفلسطين، تماماً كما

يحدث في إيران، حيث يقولون هم أيضاً إن ما يقومون به له علاقة مباشرة بتلك القضية، والأمر عينه في العراق وفي أفغانستان وحتى باكستان، ولو تتبعتم جذور هذه المسألة فسترونها ممتدة إلى هناك إلى فلسطين، ذات الوجع المفتوح بجراحاته في الشخصية العربية وعلى أرضها.

وأستدرك فأقول: أنه لايوجد عاقل يعتقد أيضاً، أن أوزار تلك القضية الأم كلها يجب أن توضع على عاتقكم، فقد فشلت جهود عربية بأكملها في التوافق العقلاني حول طرق حلها، وعليه ستظل هناك جهود عربية وفلسطينية يجب أن تبذل، إلا أن هذه القضية أصبحت كقميص عثمان، كل يدّعي صلته بها، وأنه بسببها يقوم بما يقوم به من أعمال، من احتلال الكويت، حتى بناء مفاعل نووي في إيران. والحقيقة التي لا جدل فيها، أن تأثيرات تلك القضية على النفسية العربية لها فعل السحر، فالتغيرات التي حدثت في منطقتنا وعلى مدى ثلاثة أرباع القرن الفائت، جلّها إن لم يمكن كلّها، تمّ حقاً أو باطلاً، باسم فلسطين، ولا يزال الأمر كما هو عليه في هذا المضمار.. فلا لوم إذن على جمهورنا العربي والإسلامي، حين يتبع ذلك الصوت، لأن هذا الجمهور مشبع بإحساس بالظلم عظيم وعميق وقع على إخوانه.

أنتم تستطيعون، ولا شك، تقديم المساعدة في اقتلاع أسباب هذا النزاع، وهو أمر نعرف، وتعرفون، أنه ليس ببسيط أو هيّن، إلا أن ثقل موقع بلادكم في العالم اليوم يستطيع أن يكون مؤثراً.

والأعظم من تشتيت الجهود، بسبب تلك القضية في منطقتنا، الفرص التي يمكن أن تضيع على أجيال كاملة، فإن الاستنزاف الذي تم في هذه المنطقة لموارد التنمية، والتي كان من المفروض أن تذهب للتعليم الجيد والحديث، ولخدمات صحية فاعلة، وإقامة بنية تحتية، من

الـــرباط حتى مسقط، معظم تلك الموارد ومنها البشرية، ذهبت هباء في خـــضم هذا الصراع، فسُلبت الحريات، وأجهز على آلاف مؤلفة من المواطـــنين، وتعطلت التنمية بأشكالها كافة، واشتعلت حروب، وكل ذلك بسبب الشعارات التي أطلقت باسم فلسطين. ليس أكثر من ذلك، يحـــتاج الكاتب منا ليقول إنها قضية مركزية، ترتبط بشكل أو بآخر، بكثير من القضايا التي تشغل اهتمامكم أيها الرئيس.

إلا أن السذاجة لا تأخذني أيضاً حد القول، بأن في حلها ستحل المـــشكلات كلـــها، ولكن أستطيع الجزم بأن فك عقدة هذه المعضلة المستعـــصية سوف يسهل كثيرا من فك عقد المشكلات الأخرى، أو على الأقل ينـــزع الذرائع المتداولة حولها هنا وهناك.

سيدي الرئيس: أهلاً بك ضيفا عزيزا في محطتك الثانية في كويت العـــرب، وطابـــت إقامـــتكم في بلدنا المضياف، واقبل تحياتي ووافر الاحترام.

(26)

رفع حجاب الأوهام عن حالة المرأة العربية

كثيرا ما تحدثنا عن المرأة العربية، وقد دبجت فيها الكتب الكثيرة والمقـــالات المتعددة، ولكننا حتى الآن، كمجتمع عربـــي، لم نتوصل إلى تحديد دقيق لدور المرأة في المجتمع العربــــي ومستقبل هذا الدور، نسمع عن المرأة كأم وكزوجة وأخت، ونقرأ فيها أشعار المديح لهذه الأدوار، ونفــــرح كثيرا إن قلنا أنها تقلدت المناصب العليا، فأصبحت وزيــــرة أو سفيرة أو مديرة، ولكن الدور الإجتماعي لها حتى الآن لم يتـــساو في الواقـــع المعيش مع الرجل ومن حيث المكانة ومن حيث الـــدور، ونـــتحدث عن التقدم والعولمة والوسائل الإعلامية المخترقة للمجتمعات والقارات واختزال العالم في قرية كونية، ولكننا لا نرى دورا جديـــدا للمــــرأة العربية في المجتمع كشريك أو مكافئ لزميلها الـــرجل، لا مـــن حـــيث الوضـــع القانـــوني ولا من حيث القبول الإجتماعــــي، ولا من حيث الدور التنموي، ودون الحديث عن دور الـــشريك في التنمــــية، في شــــكليه القانوني والإجتماعي للمرأة في المجـــتمعات العــــربية فإن ما نتحدث عنه تنمية وتطور لمجتمعاتنا هو حديث خرافة، أو على الأقل حديث مراوحة. إن قضية المرأة العربية تحـــتاج إلى إعمال لفكر حديث ومتطور ومبتكر، أكثر مما تحتاج إلى تكـــرار المقـــولات الـــسابقة في التحرر والأنغلاق، تحتاج إلى نظرة موضـــوعية تلائـــم بين المطلوب والممكن، ولكن في سياق حضاري

يأخـــذ بما أخذ به العالم من حولنا. لقد تابعت المرأة خطى التطور في تـــاريخ المدنية الحديثة، ولازمت الرجل في جهاده الشاق نحو المدنية، فإن كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلي والعقلي في بناء دعـــائم الحـــضارة التي نستمتع بها اليوم، والكشف عن بعض أسرار المجهـــول فـــيما حولنا، فقد ضحت المرأة بجهد نفسي، فأعطت من روحهـــا وعـــواطفها وإنفعالاتها ما قد يساوي أو يفوق ما قد أنفقه الـــرجل مـــن جهد، لقد عانت المرأة من عنف الرجل وظلمه أحقابا طـــويلة، لـــو قدرناها لفاقت تضحيتها في هذا المجال تضحية الرجل، ولولا فضل المرأة في العمل الشاق، وتدبير شؤون الأسرة، لتعذر على الـــرجل وحده أن يدب على الأرض ويكتشف أسرارها، ولقد عرفنا اليوم من تاريخ الجماعة الإنسانية الأولى أن الفلاحة واكتشاف النار، همـــا ســـببان أصيلان للحضارة الإنسانية، قد اكتشفا من قبل المرأة.
الحـــوار حـــول حقوق المرأة في المجتمع العربـــي سرعان ما يتحول تكرارا إلى حوار أخلاقي، خوفا على أخلاق المرأة من الفساد، هكذا يتـــصدى الـــبعض للوقـــوف أمام الحقوق الطبيعية والإنسانية للمرأة العربية، في بعض مجتمعاتنا دخلت بعض الفئات في مقاومة شرسة ضد تعلـــيم المرأة لأنها إن تعلمت - من وجهة نظرهم - وعرفت كيف تكتب، أمكن لها مراسلة الآخرين والإتصال بهم، هذه الحجة الساذجة من الخوف الوسواسي هي جزء من الخوف من التجديد، وقد سقطت هـــذه الحجـــة بمنطقتـــنا اليوم، ونحن في عصر الفضائيات والهواتف الدولية، وحتى الأنترنت، ويبتسم بعض أبناء وبنات الجيل الجديد غير مصدق أن هذه الحجة كانت إحدى قلاع الدفاع التقليدي ضد تعليم المـــرأة. أما الحجة الثانية التي لا تبتعد عن الأولى خطاً فهي أن المرأة تتعـــرض إن عملت مع الرجل إلى خدش حيائها أو الأغواء من قبله،

ونجـــد أن ملايـــين النساء يعملن اليوم جنباً إلى جنب مع الرجل في المكتب والمصنع والمدرسة، ومع ذلك فإن الشطط قليل ولا يكاد يخلو مـــنه مجتمع، مهما كانت القيود. والحياة الحديثة تجبر المجتمعات اليوم علـــى التكـــيف معها، وهي حياة تبتعد كل يوم عن الكسل والدعة وتـــتطلب النشاط والمثابرة والمشاركة في مجالات التنمية المختلفة، ما يعوق المرأة العربية في المجتمع العربـــي اليوم ليس نقص التشريع فقط، فهـــناك بعض المجتمعات العربية ما زالت تقاوم مثل هذه التشريعات الحديثة وتتحايل في تأخير أو حرمان المرأة من هذه التشريعات، إلا أن المـــشكلة الأهم هي أنه حتى في وجود التشريع فإن التطبيق ما زالت أمامـــه عقـــبات إجتماعية، وهنا الخطورة الكامنة، فإن يكون هناك تـــشريع ولا يكون هناك تنفيذ يعني أنه ليس هناك مجتمع دولة بالمعنى الحـــديث. إن الخطاب العام للمستقبل هو الخطاب الديمقراطي، والتي تـــسعى المجـــتمعات العـــربية في الـــسنوات الأخيرة من القرن الذي ينقضي - رسميا على الأقل - للحاق بهذا الخطاب ولو شكليا، وتقديم تطبيقات مختلفة له منها: مساهمة المرأة في المجتمع كشريك، وبالتالي لا يمكن لهذه المجتمعات أن تتجاهل نصف المجتمع وهي تدعي الديمقراطية وتحـــاول تطبيقها، لقد سألت أحد كبار المسؤولين في برلمان عربـــي دخلـــت فـــيه المـــرأة مساهمة أخيراً: ماذا عن دورها داخل البرلمان؟ فأجـــاب وأحسبه صادقا: إن المرأة دورها محدود جداً لأن الظروف الإجتماعـــية لا تسمح لها بأكثر من ذلك، وتلك هي إحدى القضايا الخاصـــة بالمرأة العربية، لأنها إن لم تحصل بعد على إعتراف إجتماعي بـــدورها يبقى الإعتراف القانوني، مهما أخذ من صيغ، شكليا بحتا، وأيـــا كانت زاوية النظر التي نرى منها تطور المرأة العربية سواء من منظور المجتمع السياسي أو المجتمع المدني، فإننا سوف نلاحظ أن هذا

التطور هو كمي مظهري لم يؤد بعد إلى تغيّرات نوعية جوهرية، فالمرأة العربية الحضرية التي شاركت في مجال العمل بقوة التشريع لم يؤد خروجها إلى العمل إلى تحررها ثقافيا واجتماعيا وتحررها من عقلية الحصار، فلا تزال الثقافة السائدة هي ثقافة السيطرة للرجل في مقابل الخضوع للمرأة، وهي عاجزة في بعض الطبقات الإجتماعية - مهما تعلمت - حتى عن إستخدام حقها وحريتها في إختيار شريك حياتها أو نوع عملها ناهيك عن القدرة على سفرها منفردة، وتعدد التيارات الفكرية العربية تجاه الموقف من المرأة، وهو تعدد إن أحسنّا الظن به، ومن المفروض أن يقود إلى محصلة ما تفيد المرأة، إلا أن هذا التعدد لا يزال متحصنا خلف متاريس أيديولوجية عالية الجرس، بعض هذه التيارات يسعى جاهدا للإستجابة للتغيرات التي طرأت على المجتمع والحصول على المزيد من الحقوق والمكاسب للمرأة، ولكن هذه الطريقة من المكاسب تحسب لما يضيف إلى رصيده السياسي لا بتقديم نظرة إنسانية. حديثة للمرأة كعضو في المجتمع، وبعضها يريد أن يستمر الحال كما هو، ويدافع عن الوضع القائم بدفوعات أخلاقية واجتماعية، إلا أن جميع التيارات الفكرية العربية تعي بوضوح أهمية تجنيد المرأة للدفاع عن الأطروحات السياسية التي تراها مناسبة، وقد يكون بعضها مضادا لمصالح المرأة، كما تواجه هذه التيارات جميعاً مشكلة إستيراد القيم الأيديولوجية والثقافية في الحركة النسوية العربية ولا تجد إلا في النادر من يدرس أزمة المرأة العربية من منطلق تراثي إجتماعي معاصر ومستنير، وليس بالضرورة أن ما خطته المرأة العربية إلى أن تخطوه، على الأقل في الشكل إن لم يكن في الجوهر.

وتؤكد أدبيات التنمية - من أي زاوية نظرت إليها - على أن أساس التنمية اليوم هو رأس المال الإجتماعي أي البشر وتتفاوت

التنظيمات الإجتماعية في العالم من حيث الشكل، فتعتبر اليابان مثلاً مجتمعاً يتميز بطابع المجتمعات التي تعمل طبقاً لمفهوم الجماعة، بينما تعتبر الولايات المتحدة على النقيض فهي إجتماعيا تعتبر رمزا للفردية والمبادرة، هذا الإختلاف يمكن الإشارة إلى عدد كبير من عناصره الأخرى، كالجمعيات التطوعية، ودور الدين في المجتمع، وشكل المؤسسات السياسية، ولكن تتشابه البلدان في نظرهما لرأس المال البشري الذي يعتبره الجميع محركا للتنمية، وهذا الرأسمال لا يقتصر على الرجل بل هو من الاثنين معاً الرجل، والمرأة، بل إن دور المرأة يشكل الرافعة في التنمية الشاملة، فلا يخفى على عاقل أهمية وخطورة دور الأم في عملية التنشئة الإجتماعية، بسبب قربها من طفلها في السنين الأولى من عمره، ودلت الدراسات على أهمية التنشئة الإجتماعية في تشكيل السلوك الإجتماعي للفرد، وما صيحة شخصية تاريخية مثل هتلر عندما إستغاث "بالأم الألمانية" إلا درجة من درجات تحفيز التشكيل الإجتماعي وإن كان سلبيا في تلك الحالة، وفي تاريخ الثقافات العالمية كما في تاريخ الثقافة العربية تأكيد لهذا الدور، فالقول المنسوب لنابليون (إن المرأة التي تهز المهد بيمينها بينما تهز العالم بيسارها) أو قول حافظ إبراهيم في البيت الشعري المشهور: الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق هو تحصيل لأهمية تعليم وتدريب وتحرير المرأة، ولكن ما يحتاج إلى مناقشة هو كيفية الإعداد ومحتواه، هل هو إعداد لحمل تبعات مجتمع حديث ومتطور أو هو إعداد لحمل الماضي كما هو أو تزيينه أو إعادة إنتاجه؟ ثم كيف يمكن أن نحوّل القيم المبتغاة من داخل الأسرة على إفتراض صلاح هذه القيم إلى المجتمع؟ إن من يدفع أكلاف غياب إجابات صحيحة على هذه التساؤلات هو أجيالنا القادمة، حيث أن إستمرارنا العيش في فجوة العوالم المتفارقة يشوه

مـــستقبلنا الـــذي نرجوه، فنحن لا نستطيع أن ننوب عن أي كان في عملية الموت الحضاري، وقد قال أحد الحكماء (ليس سبب مشاكلنا ما لا نعرف، إن سبب المشاكل هو ما نعرف و لم يحل بعد).

(27)
الجماعات الإسلامية بين قبول التعددية... ورفضها

أحـــد مكونات الحداثة التي تطبع الحياة المعاصرة قبول التعددية، والتعددية والواحدية في ثقافتنا العربية لها إشكال عميق، يضرب جذوره في تاريخـــنا القـــديم. حقيقة الأمر أن التعددية في الثقافات الأخرى لم تتجذر منذ وقت طويل، بل لازالت شبه الواحدية تطفو في الممارسات المخـــتلفة في المجـــتمعات الحديثة، إلا أن هناك تيارا فكريا واسعا أصبح يقـــرن التحـــضر بقبول التعددية، لأنها صلب الاجتماع البشري، فقد قامت معظم الحروب بسبب واحد هو تأكيد الواحدية، العرقية أوالدينية أو القومية.

لـــيس بعـــيداً في التاريخ الفصل العنصري في بلد مثل الولايات المتحدة، فقد عانى ذوي البشرة الداكنة (من أصل إفريقي) معاناة بالغة الـــسوء إبـــان الـــتاريخ الحديث لهذه البلاد، وليس بعيداً عنا الفصل العنـــصري بـــين البيض والسود في جنوب إفريقيا، كما إن بلدا مثل "إسرائيل" يمارس العنصرية وعلى نحو عنيف ليس ضد العرب والمسلمين أصحاب الأرض فحَسْبُ، بل وحتى ضد اليهود الشرقيين (السافارديم).

وقـــد يبدو في الظاهر أن المجتمعات الغربية اليوم قد تخلصت من الـــواحدية، أو مـــا يمكـــن أن يـــسمى اصطلاحا (العنصرية) ولكن

الممارســـات الواقعية تؤكد لنا بشواهد كثيرة أن العنصرية أو الواحدية لازالـــت تعيش في نفوس الناس، وتجري في الممارسة، وإن اختفت من كتب القوانين.

نبذ الآخر بسبب لونه أو جنسه أو دينه أو اسمه أوعرقه أومذهبه، هو صورة من صور العنصرية، تقول في طياتها: إني أنا أحسن منك، أو أفــضل منك، وأنت أدنى مني، في الوقت الذي أصبح مقبولا عقلا أن البشر سواسية.

مـــن هنا جاءت فكرة التعددية كقاعدة إنسانية للتطور السلمي، فـــنحن كبـــشر مـــتعددو الرغبات وألوان البشرة والثقافات والأسماء والأديـــان، ولـــيس بالـــضرورة أن يعـــني هذا التعدد التفوق والتميز أوالدونـــية، وبمجرد أن تشعر ثقافة ما أنها متفوقة، يعني ذلك أنها تحمل حملا عنصريا.

مظاهر رفض التعددية

لعـــل أهم مظاهر رفض التعددية تتجلى في شكلها المرضي فيما حـــدث في الحادي عشر من سبتمبر 2001، ثم ما تلاه في مدينة لندن العاصمة البريطانية في السابع من شهر يوليو 2005.

نستطيع أن نُجرم ما وسعنا التجريم، وندين بكل اللغات ما حصل في هاتين الحادثتين، ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن من قام بالعمليتين وأمـــثالهما يتمـــتع بحـــس طاغ من الأحادية، رغم أن إعدادهم لتنفيذ عملياتهم يضعهم في طائفة الأذكياء.

لقـــد أســـتطاعوا في العملـــية الأخيرة في لندن، أن يضللوا حتى سكوتلنديارد، الموصوف عملها الاستخباري، من بين أقوى مؤسسات الأمن في العالم بالدقة المتابعة، مع ذلك استطاع المنفذون أن يقتلوا عدداً

مـــن المسافرين الأبرياء في مواصلات لندن تحت الأرض وفوق الأرض، ولم تكن لندن الأمنية بغافلة عن احتمال وقوع عمل مثل هذا منذ فترة طويلة، ولكنه وقع بسبب قبول التعددية في المجتمع البريطاني، الذي أتاح لعدد كبير من التجمعات أن يكون لها مريدون وتنشر دعوتها في العلن. ولا نـــستطيع أن نتجاهل أيضاً أن الحدث وقع أثناء اجتماع قمة دولية للـــدول الثمان الأغنى في اسكتلندا في بريطانيا، ولم يكن المنفذون دون وعـــي بالتوقـــيت، فقد كان التوقيت بعد الانتخابات البريطانية، على عكـــس ما حدث في مدريد قبل عام تقريباً، فلو كان التنفيذ قبل وقت الانـــتخابات الـــبريطانية لحاز حزب العمال أكثرية المقاعد في البرلمان، ذلـــك ينم عن معرفة دقيقة بأن الشعب البريطاني على عكس الشعب الاسباني، بعيد عن العاطفة المباشرة والسريعة، وهو شعب يقبل التعددية أكثـــر مـــن غيره... فحسابات المنفذين تبدو أدق مما يتصور البعض، ولكنها حسابات رفض التعددية، وكره للآخر إلى حد القتل العشوائي.

قـــبل لوم الآخر وتدفق سيل الإدانات العاطفية التي تعودنا عليها، كعـــرب، علينـــا أن نحاول التعرف على الأسباب التي تجعل من بعض الـــناس من يقوم بمثل هذا العمل، وهو قتل الأبرياء بدم بارد، سواء في الرياض أو في المغرب أو لندن أو نيويورك، إنهم كُثر، ويبدو أن مصادر تمويلهم البشرية ليست بالقليلة، إلا أن دافعهم المشترك هو الاعتقاد بأن مـــا يؤمـــنون به هو الصحيح المطلق، والآخرون هم على خطأ مطلق، وهذه هي الواحدية التي أشرنا إليها.

فلم يعد سرا أنه منذ سنوات أصبحت أجهزة الأمن الغربية تفتح عـــيونها واسعة على كل شاردة وواردة قادمة من الشرق المنكوب، ولم يعد سرا أن (سمة الدخول) لبلدان أوروبا لم تعد سهلة أو ميسورة لأبناء الـــشرق الأوســـط، كما أن ملفات سكوتلنديارد ليست مغلقة على

مفاهـــيم ومقـــولات تقليدية، بل هي مفتوحة على كل الاحتمالات، ولكـــن المتابعة الأمنية في بلدان كثيرة تؤمن بالتعددية، وبالرأي والرأي الآخر، ويترك مساحة للآخر المختلف للحركة، فهي لا تنفي الآخر أو تهمّشه.

لماذا حدث ما حدث؟

لا يـــستقيم التحليل إن تناسينا أن هناك في الإعلام العربـــي غير المنـــشور، وأقصد به إعلام الإشاعة وإعلام التحليلات غير المنشورة إلا في الإنترنت، موجة من التغاطف ملحوظة تأييداً لما حدث في نيويورك عـــام 2001 وأخـــيرا لما حدث في العاصمة البريطانية عام 2005، هذا التأيـــيد أو الموافقة الضمنية منطلق من مقولة أن بريطانيا ومعها أمريكا، قامـــتا وتقـــوما بإذلال العرب، بشكل مباشر في العراق، وبشكل غير مباشر عبر دعمهما سياسة الاحتلال والتوسع الاستيطاني الإسرائيلي في فلسطين.

والحقيقة تلك لها وجهان، وجه صحيح، وربما تعرفه بريطانيا أكثر مـــن المـــسؤولين الأمـــريكيين، وهو أن الموضوع الفلسطيني موضوع مركـــزي في المعادلة التي تدفع إلى الإرهاب، أو هو ذريعة قوية، يمكن تـــسويقها في بلدان الشرق الأوسط للحشد والتجنيد، جراء ما يلاقيه الفلـــسطينيون مـــن ابتذال ومهانة، والثاني وإن اختلف حوله البعض، وأقصد الموضوع العراقي، لا زال يشكل هاجساً لدى كثيرين، أساسه غـــياب استراتيجية واضحة المعالم لما تريده كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية هناك.

العراق اليوم في شبه حرب أهلية، والعراق اليوم له حكومة انتقالية منتخبة أمام العالم، مع ذلك فإن الولايات المتحدة تصدر منها إشارات

متناقضة كل التناقض تجاه ما يحدث هناك. فتارة تقف بقوة خلف الحكومة المنتخبة وتؤيدها على نطاق عالمي، وتارة أخرى تفاوض (بعض القوى) خارج الحكومة، وهي ليست قوى معارضة بالمعنى التقليدي، بل لها علاقة بأحداث العنف والإرهاب المتفشية في العراق، وكثير منها قتل عشوائي، فلا الحكومة العراقية تعلم ما تريد دوائر الولايات المتحدة وبريطانيا على وجه التحديد، ولا أهل العنف في العراق يبشرون أنفسهم بقرب رحيل القوات الأميركية، علامة ذلك عندهم تفاوضها معهم، وهو دليل ضعف لا دليل قوة من وجهة نظرهم... هذا المشهد يترك كثيرين في العراق، وخارجه يضعون رهانهم في موقعين، الأول في راحلة القوة المسيطرة اليوم، والثاني في راحلة القوة التي يمكن أن تسود، وهي في هذه الحالة قوى المقاومة. إلا أن الاقتتال في العراق ينم عن ظاهرة عامة، وهي بغض التعددية، وفرض الأحادية.

انتشار الإرهاب له خلطة متعددة المداخل، هو ليس فكرا محضا، بل فكرا معجونا ببيئة سياسية واقتصادية، وغياب التصور الأوضح للسياسات الغربية في هذه المنطقة كان أحد العوامل المهيئة لبيئة الإرهاب.

أما العامل الثاني في الخلطة، ولا أقول الأخير، فهو غياب استراتيجية للتطوير والتنمية في منطقتنا العربية. لخص السيد توني بلير رئيس الوزراء البريطاني الأسبق مواصفاتها مباشرة بعد الإعلان عن تفجيرات لندن في الأسبوع الأول من شهر يوليو 2005، فقد قال (إن ما حدث تم باسم الإسلام، الإسلام والمسلمون منه براء).

هذا التعبير يجب أن يوضع تحت المجهر، خاصة في ضوء ما يحدث في العراق، وخصوصا على خلفية اغتيال السفير المصري الدكتور إيهاب الشريف بتهمة (الردة) وهو الرجل التقي، وفي ضوء

تـــصريحات أبو محمد المقدسي الذي أفرج عنه من السجن الأردني لـــيعاد إلـــيه بعد أيام وعلى خلفية كل الأحداث في عشر السنوات الماضية على الأقل.

على الرغم مما استقر اليوم لدى كثيرين أن موضوع الدين لدى (الجهـــاديين) بكافة أطيافهم، ليس الخلاف فيه على محتوى العقيدة الإســـلامية، ولكـــنه اخـــتلاف في التفسير السياسي، فهم في ذلك مستخدمون لنصوص يكيفوها على مرمى أهدافهم، ولكن الموضوع في صلبه هو (سياسي) بامتياز مغلّف بنصوص دينية، ويحسن القول ابـــتداء: إن أرقـــى أنـــواع التعددية هي القائمة على أساس ديني، والعكـــس صحيح أيضاً، فإن أسوأ أنواع الواحدية هي القائمة على أساس ديني أيضاً.

فالـــدين يمـــثل مخزوناً ثقافياً وإيديولوجية مشروعة لجماعات عديـــدة، وفي نهاية المطاف فإن الدين هو قوة توحيدية وتقسيمية في آن معـــا بحسب طرق تعامل كل جماعة مع نصوصه وتعاليمه، وهنا تظهر أهمية الفهم والتوظيف للنصوص في الدين... ومن جهة ثانية، فإن التعددية الدينية والإقرار بها هو المدخل المشروع لتحقيق أشكال التعددية الأخرى السياسية والاجتماعية والفكرية، والواحدية الدينية هـــي المدخل لتثبيت أشكال الواحدية الأخرى السياسية والفكرية والاجتماعـــية النابذة للآخر، ولا شك أن نتائج الواحدية المدمرة لا تقف عند حدود إلحاق الضرر بالجماعات الأخرى، بل تمتد آثارها المدمـــرة إلى الجماعـــة الواحدة التي ترى في نفسها (الفرقة الناجية) بحيث تنفر من أي فرص للتجديد والتطوير والنقد والتصحيح. تلك الواحدية المتمثلة في إرهاب المدنيين تعود على المسلمين كافة بأفدح النتائج، ويدفعون فيها أغلى الأثمان.

الإصلاح الديني هو قبول التعددية

إن تاريخ المذاهب الإسلامية يكشف أن كل المذاهب مرت بعمليات إصلاحية ومراجعة ونقد ذاتي، وهذا ينعكس في تباين الاجتهادات التي أدت في كثير من الأحيان لنشوب صراعات، فالاختلاف في تاريخ المسلمين بات هو القاعدة، وقد أحصى أبو الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين) 300 مسألة اختلف فيها المسلمون. وما نشوء المذاهب إلا واحد من الأمثلة الواقعية لمركزية التعددية في الاجتماع الإنساني.

توظيف الدين كان له دور في فرض الأحادية لأسباب سياسية، وسيظل معنا كمسلمين لفترة قد تطول، والفروق بين المنتمين للعقيدة تكمن في البرامج المطروحة، من اعتدال يدعو إليه البعض، إلى غلو وتشدد يمارسه آخرون، والإشكالية التي طرحت نفسها على شريحة واسعة من المهتمين بالشأن العام العربي، هي أن تلك المساحة المشتركة بين (المؤمنين) و(المتشددين السياسيين) هي مساحة قبول الآخر. فهناك حركات إسلامية لها طابع سياسي (سلمي) يختلط فيها عدد من الدعاة السياسيين، سرعان ما يستفيدون من الأرضية الممهدة بعناية كي يجندوا بعض الشرائح، خاصة من الشباب، في مجال التشدد، ولعل المقابلة التلفزيونية الأخيرة مع أبي محمد المقدسي قد قدمت لنا صيرورة تكاد تكون متشابهة في تقلص مساحة التسامح والقبول بالآخر، فقد قدم في البرنامج بصفته (معتدل)، ثم تبين أن الفرق بينه وبين تلميذه الزرقاوي المتشدد هو فرق في الدرجة وليس فرقا في النوع، أي في برمجة التسامح وليس في مبدأ قبول التسامح، وتكاد السيرة أن تكرر نفسها لدى الكثيرين. يتطور الرفض لدى الشاب من تجمعات في بر الكويت في الثمانينيات مختلطين بالمعتدلين! إلى دخول في دهاليز

التشدد شيئاً فشيئا، إلى تجنيد يفضي إلى تطرف غاضب ثم اغتيالات عشوائية رفضاً للآخر.

الطلاق بين التدين والسياسة

ألم يحن الوقت للتيقن من أن (الأحزاب السياسية الإسلامية) هي أحزاب سياسية، إلا أنها دون استخدام غطاء الدين تفقد الجاذبية في التجنيد أو حتى القدرة عليه؟ فكل من تحزب تحت تلك الراية هو في الحقيقة يضر بمجموع المسلمين، لأن السياسة متحركة ونسبية، والعقيدة ثابتة ومطلقة، ودليلنا على ذلك الانشقاقات والخلافات غير المتناهية، بين الرفاق في العمل السياسي الإسلامي، ولعل أكبر حزب سياسي إسلامي اليوم هو (الإسلاميون السياسيون السابقون) والسؤال الملح في هذا المقام، هو: هل خروج البعض من التنظيم هو خروج من الملة؟ ذلك سؤال جدير بالطرح لبيان الموقف السياسي من الموقف الإيماني.

فوهم بناء دولة إسلامية، تعيد ما كان، هو وهم موجود في عقول القوى غير الحديثة، لأن الدولة الإسلامية بهذا المعنى الوحدوي لم توجد في التاريخ إلا في فترة قصيرة جداً، فالأجندة لدى الواهمين والموّهمين بها هي أجندة سياسية، أفضل وصف إيجابي لها أنها خيالية ومثالية، ربما عبثية إلى حد كبير، ولكنها بالتأكيد ترفض التعددية، التي هي صلب السياسة اليوم.

ما نواجهه هو أن هذه الأجندة (المُكفرة) (الاعتزالية) هي شوكة المواجهة، أمام تشابك معقّد من المشكلات التي ليس لها حل في الأفق، حتى الساعة، غير التنديد من جهة، والقتل من جهة أخرى، وبعض هذه الجماعات وإن امتلك الوسائل والعزم فقد افتقد التكتيك، وغابت عنه الرؤية، كما حدث في لندن نهاية الأسبوع الأول من يوليو 2005،

والتي كانت، أي لندن، حتى الأمس ملجأ معقولا لمن يريد الفرار ليسلم بجلده، إن هو أراد التعبير عن نفسه سلما.

إن عدم قراءة الجماعات الكبرى للإسلام السياسي المتأنية للواقع الموضوعي السياسي والاجتماعي المحلي والعالمي، وعدم تقديمها للبدائل الواقعية التي تستوعب المكان وتعيش الزمان بكل متغيراته وتناقضاته، بما فيها قبول التعددية، جعلها أسيرة إيديولوجية ضيقة، غرزت رجلها في أماكن كثيرة، من أفغانستان إلى السودان، مروراً بعدد من المجتمعات الإسلامية والعربية، سواء كانت في الحكم أو المعارضة، كما عرّضت أطرافها للانخراط في دموية عبثية، تأتي بسوء العاقبة على كل معتنقي الديانة السمحة، وبسبب طبيعة نشأة هذه الدعوات السياسية ذات الطابع الديني في العصر الحديث، تحولت جهودها من جهود (إحياء) كما يجب أن تكون، إلى جهود نكوص وعزل كما هي في الواقع، واستنزفت طاقات لو أحسن توجيهها لكان حالنا أفضل، وهي طاقات، لا ينقصها الذكاء، إنما تفتقد إلى العقلانية التي تقبل التعددية.

(28)

نوبل: توق عالمي للسلام

حيثـيات اللجنة النرويجية لجائزة نوبل للسلام التي منحت جائزتها لعام 2009 إلى الرئيس الأميركي باراك أوباما، أظهرت مدى توق عالمنا إلى السـلام والأمن. فبعد أقل من عام على تسلّم الرئيس الجديد سدة الحكم استطاعت اللجنة العالمية أن تتبين توجهات رئيس أكبر دولة في عالمنا اليوم، وإصراره على السلام في مناطق العالم المختلفة. وعادة مثل هذه المدة من الحكم لا تبين التوجّه العام لأي إدارة سياسية، خاصة إذا كانـت هذه الإدارة تواجه من العوائق السياسية أكثر مما تتمتع به من التسهيلات.

مـنح الجائزة بحد ذاته يعني أن العالم يرغب في أن يستمر الرئيس الجديـد في هذا الطريق الصعب، طريق الحثّ على التفاوض في القضايا الـصعبة والشائكة. سلسلة الإنجازات للرئيس الأميركي طويلة، إلا أنها إنجازات في الرؤى والتصور، وكثير منها لم يتحقق على الأرض. الجائزة تقـول للـرئيس: أنت في الطريق الصحيح فسِرْ إلى نهايته، إن كانت البـشرية قد تعلمت شيئاً من أخطائها. أطلق أوباما في الأسابيع الأولى بعـد تولّيه الرئاسة عدداً من المبادرات، كان بعضها تحقيقاً لما وعد به الناخب الأميركي، مثل سحب القوات الأميركية من العراق، وإغلاق معتقل غوانتنامو، وبعضها الآخر كان تصورا في ذهنه أطلقه من خلال مبعوثين كبار يمثلونه إلى مناطق العالم المضطربة، ومنها منطقتنا التي تعج

بالصراعات المختلفة من أفغانستان حتى فلسطين، مروراً بكل هذا الإقليم الساخن. حديث أوباما إلى المسلمين والعرب في القاهرة كان إحدى الإشارات المهمة التي لاحظتها لجنة نوبل للسلام فنوهت بأهميتها، وهي إشارة إلى ما تحمله هذه المنطقة من احتمالات للسلام أو الحرب. التفاوض هو طريق حلّ التناقض والاختلاف، وليس الصراع أو الحرب، تلك هي قاعدة الدبلوماسية الأوبامية، وهي بشرى للإنسانية بأنه أخيراً صارت هناك قناعة بأن التفاوض والحلول الوسط تؤتي ثماراً أكبر وأهم من الحروب. لعلنا في هذا المقام أيضاً نذكر مبادرة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز الذي عضّ على النواجذ، وقدم مبادرة في قمة الكويت الاقتصادية، جوهرها البعد عن الصراع الساخن والتوجّه إلى البحث عن الحلول الوسط المحتملة، وهي في الحقيقة بحث إيجابي وجميل في النفس البشرية. وهذا هو صلب السياسة التي تبناها سمو الأمير الشيخ صباح الأحمد، امير الكويت، في كل تاريخه الدبلوماسي المليء بالسعي إلى الوفاق العربي والإقليمي.

اختيار أوباما للجائزة العالمية للسلام هو اختيار منهج سياسي يُراد ترسيخه، وهي أول الطريق لتشجيع سلوكيات وقيم إنسانية في العلاقات الدولية... الطريف أن اللجنة في نهاية إشادتها بتوجّهات الرئيس الأميركي اقتطعت جزءاً من قوله: "إنه آن الأوان لكل فرد منا أن يتحمل قسطه من المسؤولية في الردّ الشامل على التحديات العالمية"... إنها جائزة رمزية تجعل العالم يتذكر أن السلام والتفاوض في عصر الدمار الشامل هو الأقرب إلى العقل والمصلحة من النبذ والإكراه والتدمير.

العالم يبحث عن سلام والحروب تتزايد والدمار يعم، ومع ذلك لا زال الأمل ان يتغلب العقل على العاطفة ورغبة التعايش على غزية الاقتتال.

(29)
الرؤية والفرية، إيران والعالم

نحـــن في عصر الجمهور، إما أن تقوده النخبة وإما أن تنقاد له...
أكـــبر بلاد من حولنا يقودها الجمهور هي إيران، وبالرغم من الحكمة الفارسية والثقافة الزرادشتية التي تأصّلت مع مرور آلاف السنين، والتي قـــادت فارس التاريخية للتكيّف بنجاح مع المتغيرات العديدة التي مرت بهـــا، فـــإن إيـــران اليوم تكاد ترتكب نفس الخطأ الذي قام به صدام حـــسين، مـــع فـــارق الزمن. من دون الدخول في التفاصيل الجانبية، فالإيـــرانيون مـــن المفروض أن يكونوا أكثر ذكاء وأكثر ديمقراطية من حكم الرجل الواحد الذي تجسد في الحكم السابق في بغداد، وألا يقعوا في نفـــس الفـــخ الـــذي وقع فيه من ركب مركب الرعونة والتعنّت والمكابـــرة. ما يلاحظه المراقب أن طريق صدام حسين الذي قاده إلى الـــتهلكة، وقـــاد شعب العراق إلى التمزق، يكاد يتكرر من جديد في إيـــران. فالصراع مع القوى الغربية يكاد ينحصر بين نظريتين؛ الأولى: إصـــرار الحكـــم في إيران على الذهاب إلى آخر الطريق في الموضوع الـــنووي بعـــيداً عن أي رقابة، ومن دون فرصة متاحة لمؤسسة دولية مـــستقلة تؤكد أن المشروع سلمي لا عسكري كما يشتهي الإيرانيون إعلانه، والثانية: معاكسة، وهي إصرار الغرب على وقف ما يعتقد أنه بـــرنامج عـــسكري نووي إيراني. بين هذين المنطقين المتعارضين يقف الحكـــم الإيراني اليوم، ويحشد الطرف الدولي كل إمكاناته المخابراتية

والإعلاميـة للتسويق لنظريته. وعلى طريقة تصرّف الحكم في إيران سيتحقق؛ إما سيناريو صدام حسين، وإما الخروج من دائرة الشبهة إلى دائرة اليقين السلمي. تقول المصادر الإيرانية إن اتهامها ببرنامج عسكري هو فرية، ولكنها لا تقدم رؤية يقبلها العالم الغربي للتحقّق من أن الاتهامات باطلة، مع تزايد حجم الشكوك إثر التصريحات الرسمية التي تمالئ العامة الإيرانية ولا تلتفت إلى هموم النخب الحاكمة الدولية بإشارات غير منضبطة وغير دبلوماسية، في باطنها التهديد، ذلك بالضبط ما وقع فيه صدام حسين. المعارضة الإيرانية التي ينتظم في صفوفها رجال أكثر حنكة ودراية في التعامل مع الغرب، وأكثر حذقا في استخدام الدبلوماسية، لا يجدون آذاناً صاغية في زحمة الجمهور المتحمس في المدن الإيرانية، بل هم يُجَنَّبون الاشتراك والتشاور في القضية برمتها، على الرغم من أن كثيرا منهم تسلّم مسؤوليات كبيرة في السابق. التقط نجاد مؤخراً مؤشرات الاتفاق الروسي - الأميركي بالتخلّي عن نشر الصواريخ بعيدة المدى في بعض دول أوروبا الشرقية السابقة، على أنها طعم أميركي للروس لجلبهم إلى موقع أقرب في الموضوع النووي الإيراني، إلا أن تلك اللقطة لم يتبعها عمل سياسي حصيف في اجتماعات الأمم المتحدة، وقد تبيّن أن السيد نجاد ومستشاريه يخاطبون الجمهور الإيراني المتحمس من منبر الأمم المتحدة، إلا أن العالم لا يريد أن يسمع من السيد نجاد نفس أقواله في طهران، هناك يخاطب جمهورا متحمسا، أما في مبنى الأمم المتحدة فالجمهور أكثر قدرة على تمييز القول والأخذ بالأحوط تجاهه، لذلك غادر قاعة الجمعية العامة، والسيد نجاد يخطب، كثير من المندوبين، ولعل في ذلك إشارة لما قد قرر العالم أن يفعل في القضية النووية الإيرانية في الاجتماعات التي سوف تعقد لاحقاً. الإيرانيون أكثر ذكاء من طغمة

صدام حسين، وما لديهم من حوار داخلي، حتى وإن كان محدودا، قد يتيح هامشا لتعدد الرؤى في موضوع بالغ الحساسية، كما أن السياسة بشكل عام تحتمل عدداً من الاجتهادات، حيث لا يستطيع أحد أن يجزم أي الاحتمالات أصلح، حتى تظهر النتائج، وهي نتائج عادة ما تكون متأخرة، وتظهر بعد أن يقع الفأس في الرأس، كما يقال. لذلك فإن سياسة أحمدي نجاد تعارضها سياسة الإصلاحيين تجاه الموضوع النووي، فالأخيرون ينظرون إلى مصالح إيران ما بعد النووي، والحكم الإيراني يعتبر المعركة شخصية وفاصلة، الاثنان متفقان على أهمية الطاقة النووية لإيران، على الأقل في الجانب السلمي منها والجانب التقني العلمي، إلا أن الخلاف هو في طريقة تسويق ما تصبو إليه إيران للعالم. العالم مرعوب من احتمال وصول إيران إلى قوة نووية عسكرية، والرعب قائم أساسا على قاعدة التصريحات السلبية التي تقول بها القيادة الإيرانية السياسية تجاه عدد من القضايا الإقليمية والدولية. ركوب قطار الممانعة والتسويف والضبابية المتعمدة تجاه أهداف البرنامج النووي الإيراني، تحت مظلة إرضاء الجمهور، لن يزيد الموقف العالمي إلا تصلّبا. بعد أيام قليلة سوف يلتقي المفاوض الإيراني المفاوضين الأوروبيين.. لا أريد أن أقول إن الليلة تشبه البارحة في لقاءات المفتشين الدوليين في العراق، إلا أن هناك شبها قريبا، فركوب ذلك القطار المتحدي قد يؤدي إلى نفس النتائج، وخاصة بعد أن تراصّت صفوف الدول الكبرى وأصبحت قريبة من نفس الموقف السياسي المعارض أو المشكّك في الجهود الإيرانية النووية. هل إيران في مأزق أو أنها أمام فرصة تاريخية؟ أعتقد أن البابين مفتوحان على مصراعيهما، المأزق والفرصة؛ فالفرصة أمام إيران واسعة إن هي قررت أن تتلاءم مع الموقف لجلب المصالح وتقليل المضار، وعليها أن تقدم رؤية في هذا الاتجاه، فيها من الشفافية

وحتى المسايرة، ما يخفف الاحتقان ويطمئن الجانب العالمي إلى أن ما تتخذه من سياسات لا يتعارض مع ما تعلنه من أهداف. أما التصلب في المواقف، فإن الأقرب إلى التوقع إصدار سلسلة من قرارات دولية تشدّد الحصار على إيران، وهو حصار سيكون أشد قسوة وأكثر تضييقا مما قبل، وهو حصار دولي قد يفاقم في النهاية الأزمة الداخلية المحتدمة في إيران، والتي تضيع معها الحكمة الفارسية المعهودة، خاصة في ضوء ما عرف أن اثنين من كل ثلاثة مشاريع حصار دولي بعد الحرب العالمية انتهيا بحرب ساخنة.

(30)

حتى لو كان غير فاروق

مؤســـف للعـــرب وللثقافة العربية أن يخسر فاروق حسني والدولة المـــصرية كفاحهما للوصول إلى رأس منظمة اليونسكو. العرب خسروا أكثر من مرة محاولاتهم احتلال هذا الموقع الدولي المهم. أخذ على فاروق حسني، كما نعرف اليوم، تصريحه الشهير حول "حرق الكتب"، إلا أن ذلـــك كان ذريعة لا أكثر، استُخدمت من أجل منع فاروق حسني من الوصول إلى دفة المنظمة التي تهتم بالثقافة العالمية، واستُخدمت بلؤم كبير. لكـــن حـــتى لو تقدم من العرب غير فاروق حسني لبُحث له عن حجج كـــثيرة أخرى لتعطيل وصوله. ترى ما الدرس أو الدروس المستفادة من كـــل ذلك؟ بدلاً من البحث عن كبش فداء في (موقف الآخر المعادي) علينا أن نبحث في أنفسنا ونستكشف القصور الذي وقعنا فيه، ونقع فيه مرارا. لديّ حزمة من مظاهر القصور، لا أدّعي أنها هي الجازمة، كما لا أدّعـــي أن عناصر (المواقف المضادة) هي عناصر قليلة القيمة، إلا أن نقد الـــذات في هـــذا المقام أمر يحتّمه العقل كما يحتّمه التخطيط إلى معركة قادمـــة للعرب في هذه المؤسسة الدولية. لعل أول ما نلاحظ أن العرب بعمومهم غير مهتمين بنشاط هذه المؤسسة الثقافية الدولية، فهم يرسلون إليها، في الأغلب الأعم، مندوبين على قائمة الموظفين أو قائمة السياسيين المـــراد إبعـــادهم، ونادرا ما يُرسل إليها، كممثلين، أشخاص لهم دراية بالجوانب الثلاثة: السياسة، والثقافة، والمعرفة بلغة أهل المنظمة (الفرنسية)

معرفة دقيقة، إلى جانب لغات أخرى كالإنجليزية. في مثل هذه الحال كيف يمكن لهذا الموظف أن يسلك أمام حيتان هذه المنظمة الكبرى، غير كتابة التقارير وحضور حفلات الكوكتيل! هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الدول ذات التأثير الأكبر، وأعني بها هنا الدول الصناعية الغربية، لا ترغب في أن يكون على رأس المؤسسة الدولية للثقافة من يأتي من بلاد قد تكون غير حاملة لثلاثية: الاقتصاد الحر، تداول السلطة، نسبة عالية من حقوق الإنسان. بصرف النظر عن التبريرات التي نسوقها نحن فيما بيننا كي نقنع النفس بأن تلك (شعارات) للاستهلاك، فهناك مراقبة شعبية واسعة لهذه الحكومات في قضايا تهم الثقافة، قد تتجاوز تلك الحكومات الشروط الثلاثة في القضايا الاقتصادية والسياسية، وتتنازل عن بعض الشعارات عندما تلوح مصالح كبرى تريد تحقيقها، أما في المجال الثقافي فهي لا تستطيع الحراك إلا في حدود ما يسمح لها الفضاء الثقافي في بلادها، وهو فضاء شديد الحساسية للحريات العامة وإطلاق حرية التفكير والقول، ومكاسب إرضاء هذا الجمهور الثقافي أكبر بكثير من مكاسب رضا حكومة أو حكومات صديقة، هذا ما يفسّره الموقف الأميركي من بين دول أخرى غربية، فحتى تحت القيادة الجديدة الأوبامية، دأبت الدبلوماسية الأميركية على التبشير بعدم الرضا عن المرشح المصري/العربي، تارة خلف ستار من تقديم مرشحين آخرين ينافسونه، وتارة أخرى بالحث مباشرة على عدم انتخاب المرشح المصري/العربي (في هذه الحالة فاروق حسني)، بل وصل الأمر إلى أن أشارت بعض الدول الغربية بطرف خفي إلى دول عربية لتقديم مرشحين منافسين!

على الرغم من أن اليونسكو (كمؤسسة) تحظى بالكثير من الرعاية العربية، فهناك جوائز مخصصة من دول أو أفراد عرب ميسورين

لهذا النشاط أو ذاك، وفي حسبة صغيرة فإن دول الخليج العربي تستقبل دولاراً واحداً كمساعدات فنية من اليونسكو، في مقابل كل ثلاثة دولارات دعم لهذه المؤسسة، ذلك على سبيل المثال لا الحصر، كما أن المفارقة الأخرى أن هناك عدداً كبيراً من الفنيين العرب يشكلون لحمة الخبراء الدوليين في هذه المؤسسة. كتب على مدخل اليونسكو في باريس، تيمّناً، عبارة تقول: "إن السلام يبدأ في العقول، كما هي الحرب تبدأ في العقول"، وإن لم نحكّم العقل في معارك كسب المقعد الأول للعرب فإن الخسارة العربية سوف تستمر.

كسب المقعد الأول يبدأ بتقديم مرشح؛ أولاً يعمل العرب جميعاً منذ نهاية التصويت الحالي على الدعوة له، ويأتي من دولة أقرب ما تكون من الشروط الثلاثة التي أشرت إليها في السابق، وأيضاً يكون هو شخصية ثقافية بارزة، له تاريخ شخصي إيجابي في هذا المقام، وملمّ بلغة الحضارة الحديثة. نحاول باختصار حصر الإجابات بأسلوب معاصر وحديث فيما يخص المشكلات التي تواجهنا، بدلاً من البحث عن إجابات قديمة والتمرّغ في لغة المؤامرة ولعنها.

(31)

الأعمدة السبعة في خطاب اوباما

لم يمض على تسلّمه رئاسة الولايات المتحدة الأميركية، القوة العظمى في العالم، ستة أشهر، حتى جاء باراك أوباما إلى الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بخطاب جديد[1]، تلقاه بعض المتطرفين، حتى قبل تلاوته ومعرفة ما يحتويه، بعدائية شديدة، وبتشكيك من مراقبين، بعضهم غربيون مستشرقون، بينما انتظر الآخرون حتى يعرفوا ما جاء به الرئيس الجديد، وقد كان جديداً بالفعل. بقراءة متأنية لمحتوى الخطاب، من الرجاحة القول إنه عقلاني ومتوازن، قرر أنه لا يجوز تحديد العلاقة بين المسلمين وأميركا من منظور الاختلاف، بل سعى إلى تلمّس العوامل المشتركة من القيم الإنسانية بين الطرفين والبناء عليها، فهناك قيم مشتركة يقرّ بها كل ذي عقل، كما أقر الرئيس بأن أي تغيير لا يمكن أن ينتج من خطاب، فمَثل سياسة أميركا، كما قال أوباما في خطابه إلى الجنود الأميركيين في العراق قبل أشهر، كمَثل باخرة ضخمة، من الصعب تغيير مسارها إلا بعد وقت وجهد؛ ذلك قول، إلى جانب كونه منطقيا، فهو واقعي. القضايا التي لمسها الخطاب سبع رئيسية، إلا أن تسلسلها في الخطاب له معنى الأولوية في ذهن الرئيس

---

(1) في 4 يونيو 2009 القى السيد براك اوباما خطابه التاريخي في حرم جامعة القاهرة، وترجم الخطاب التاريخي إلى 13 لغة. نص الخطاب موجود على الشبكة الدولية.

متعدد الخلفية الحضارية. القضايا السبع هي: التطرف، فلسطين، السلاح النووي، الديمقراطية، المرأة، الحرية الدينية والتسامح الديني، ثم التنمية الاقتصادية. ومع هذه القضايا قضايا أخرى جانبية جاء عليها الخطاب، إلا أن الملاحظ أن القضايا السبع الكبرى نظر إليها الرئيس الأميركي نظرة متوازنة، وفي بعضها خرج عن المألوف في الموقف الأميركي التقليدي، لبدء خطاب جديد في السياسة الخارجية. في موضوع التطرف، كان حازماً وواضحاً في أن التطرف الذي يقود إلى سفك دماء الأبرياء مرفوض ومحارب من قبل الإدارة الأميركية الجديدة كما القديمة، ومن هنا دعا الفلسطينيين إلى الاقتداء بتجربة نضال السود السلمي في الولايات المتحدة لنيل حقوقهم. كما اعترف أوباما، وهو ربما يحدث لأول مرة من قيادة أميركية عليا، بالمعاناة الإنسانية التي يحملها الفلسطينيون على كاهلهم بسبب الاحتلال. كما تلمّس موضوع الديمقراطية باحتراف كبير، فهو ضد فرض أي نظام سياسي على أي شعب، ولكنه في المقابل مع الحريات والشفافية وحكم القانون والالتزام بالعدل. وبمثل هذا التوازن اقترب من الموضوع النووي، فهو مع حق الدول في الاستخدام السلمي للطاقة النووية، وضد التسلح العسكري النووي بالمطلق وللجميع. بعض ما جاء به أوباما إلى القاهرة والعالمين العربي والإسلامي تمتد جذوره إلى الإدارات السابقة، لكنه أضفى عليه بعدا ذاتيا بسبب الكاريزما الشخصية التي يتحلى بها، لكونه أسود، وابن رجل مسلم، وعاش في مناطق مختلفة من العالم، خبر من خلالها قيمة التنوع وضرورة التعايش.

اللافت ملاحظة الخلط في الخطاب بين "الإسلام والمسلمين" من جهة، ومقارنتهم بأميركا الدولة من جهة ثانية، فهو ابتعد عن الحديث عن "المسلمين"، ولكنه تحدث عن "الإسلام"، وكان أفضل لو كانت

المقارنة بين متماثلين، الشعب الأميركي والشعوب المسلمة. هذا الخلط سوف يبقى معنا لفترة طويلة بسبب التاريخ السلبي الذي خبرناه في السنوات الأخيرة من جهة، وتشابك المفاهيم في وسائل الإعلام من جهة أخرى. اللافت أكثر في خطاب الرئيس الأميركي هو المحور السابع؛ التنمية الاقتصادية وتوسيع الفرص، فهذا المحور مستقبلي، في حين إن معظم المحاور السابقة لها نكهة تاريخية. في هذا المحور يتبين مشروع الشراكة الذي يعرضه الرئيس أوباما، وهي شراكة لا بد لها، حتى تنجح، من شركاء فعّالين، ولكي يقرب الموضوع، أشار أوباما في هذا الصدد إلى أن كوريا واليابان تقدّمتا دون أن تخسرا تراثهما، كما أن الحداثة وثورة الاتصالات قرّبتا العالم كما لم يكن قريبا من بعضه قط، هذا التقارب يحتاج إلى تعاون، فمن يصبْ بالإنفلونزا القاتلة في مكان يمكن أن ينقلها إلى مكان آخر بعيد، وعند سقوط نظام مالي في موقع فإن نتائجه السلبية تسري إلى أقصى الأرض. أمثلة أخرى تقول باختصار إن العالم أصبح صغيراً ومتداخلا، ولا مفرّ من التعاون والمشاركة؛ تلك هي الرسالة التي تحتاج إلى شريك.

(32)
الحروب البديلة

تصاب الدول والمجتمعات أحياناً بما يصاب به الأفراد، فمن حرق الكنائس إلى تدمير المساجد، وأخيراً إلى تدمير مرقدي الإمام علي بن محمد الهادي والإمام الحسن بن علي العسكري في سامراء العراق[1]، وردة الفعل (ربما العشوائية والمنتظرة في آن) بالتدمير والاعتداء على مساجد السنة في بعض مناطق العراق، فيما عرف بتعبير جديد هي "حرب المساجد" بعد حرب المخيمات وحرب الفنادق، وقبل ذلك "حرب الكاريكاتير" التي لم تنته ذيولها بعد. خلف ذلك التدمير الآثم هناك الرغبة الدفينة في إشعال حروب بديلة هي "حروب الرموز". حرب الرموز هي حرب مُجهّلة، تستفيد من كمية الجهل المتفشي بين ظهرانينا كي تؤتي أُكلها في المجتمع، وتشكل الشرر في ثنايا حطب جاف قابل للاشتعال نتيجة غياب الوعي والعقل معاً. ولعل التحليلات المصاحبة لما حدث أخيراً في العراق، يمكن أن تقودنا إلى بعض الفهم في حروب الرموز. فقد قال البعض أنها من فعل المتعصبين والمتشددين أصحاب الفكر التكفيري الدخلاء، وقال آخرون أنها من صنع وتخطيط بعض المتعصبين من أهل المذهب الشيعي نفسه لاستخدامها كتبرير لعزل أهل السنة أكثر وأكثر من الحياة السياسية، أما المدمنون على كره أميركا فسارعوا ولم يرف لهم جفن إلى اتهام الولايات المتحدة بهذا

(1) تم تفجير منارتي المرقد في 13 مايو 2007.

الفعـــل الشنيع من أجل خلق فتنة طائفية. البعض لم يستثنِ إيران أيضاً بـــسبب حاجتها إلى صرف النظر، ولو موقتاً، عن قضية الحصول على القـــدرة التقنية النووية التي باتت شغل العالم وهاجس الناس في الأشهر والأسابيع الماضية. لن يعرف أحد على وجه اليقين من فعل هذه الفعلة الـــشنعاء في سامراء ولأي غرض قام بها وما يريد أن يصل إليه؟ وأخذاً بالوضع الأمني العراقي القائم والمضطرب، لن تجد أية مؤسسة أو سلطة تحقيق أو إدارة خيطاً ولو رفيعاً ليدل إلى الفاعل أو الفاعلين الحقيقيين، فهـــم كُثـــر أو قد يكونون كُثراً، ولكل منهم أهدافه الخاصة. إلا أن الفاعـــل أو الفعلـــة أرادوا أن يستثمروا وضعاً متفجراً في العراق، وأن يـــصدّروا هـــذا الوضع إلى الجيران أيضاً، مستفيدين من تراكم الجهل والاســـتثمار السياسي معاً. الظاهرة لها تبعاتها التي يمكن ملاحظة بعض مظاهـــرها، فقـــد عمّت كثير من العواصم العربية تظاهرات احتجاج مـــستنكرة ما حدث، بما فيها سامراء المدينة المنكوبة وغيرها أيضاً من مدن العرب، إلا أن الملاحظ أن الأعلام التي رفعت في هذه الحشود، إذا تجـــاوزت الشعارات، لم تكن أعلاماً وطنية. الأعلام الوطنية اختفت، وظهـــرت الأعـــلام الحزبية بدلاً منها. وهي ملاحظة تقول لنا بتراجع الإحـــساس الـــوطني الموحد، إلى الإحساس الطائفي المُوجس خيفة من الآخر (المواطن) وعدم ثقة بالوطن وبمؤسساته، ليس في العراق وحده، بـــل في عـــدد مـــن عواصمنا. يكفي مثل هذا الشعور لنرى أن هناك احتمال لحروب بديلة في منطقتنا، بدلاً من حروب قائمة. أو إضافة لها، خصوصاً إذا أضفنا إلى ظاهرة الأعلام، ظاهرة علنية بتراشق الاتهامات بـــين القـــوى الفئوية المختلفة كل يتهم الآخر، أو يجيّر الحدث باتجاه خصمه السياسي، بعدها نكون قد حصلنا على وصفة جاهزة للحروب البديلة الممزقة للنسيج الوطني. لكن لماذا حروب بديلة؟ وبديلة من ماذا؟

هناك عدد من الأسباب، وأصل تلك الأسباب هو تفعيل القاعدة القائلة "أن القــضايا اليائسة تستدعي في بعض الأحيان علاجات يائسة"، واذا نظــرنا حولنا نرى أن عدداً من الدول والقوى يجد نفسه دولياً وإقليمياً في أوضاع يائسة. وهي دول محيطة بالعراق، ومن أجل أن ينشغل كلٌ بما لديه في الداخل، فإن انقسام الوطن الواحد إلى شظايا، فئوية وطائفية وربما قبلية وعرقية ومناطقية. ويرى بعض هذه القوى اليائسة أنه توريط حقيقــي للقوى الدولية خصوصاُ الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا. وبعــدما تــشبت الحرب الأهلية في العراق لا تجد هذه الدول مفراً من صرف النظر عن الملفات الأخرى. ومن جهة أخرى هناك قوى يائسة تــرى أن اشــتعال فتيل الصراع الأهلي العربــي لا تعود بعده نصرة "القــضية" الــتي كان الإعلاميون والسياسيون العرب يدعونها القضية الأولى (فلــسطين) ذات معنى، خصوصاً في ضوء انقسام الفلسطينيين أنفسهم انقساماً حاداً غير مفهوم وغير مبرر. هنا نجد أن القوى اليائسة تفعــل ما تعتقد أنه اسباب لإنقاذها من ورطة، ولكن الأهم هو تقبّل الــشعوب لهــذه الفخاخ والسير تجاهها. ويأتي من ضمن الأسباب أن تــدمير الأوطان يحدث عندما يشعر جميع الفرقاء بأن ليس لهم في هذا الــوطن مصلحة أو احتمال معيشة شريفة منتجة، أو أنهم يعيشون فيه مهمــشين تضيع حقوقهم كل يوم وتهان كراماتهم. ثم يلحق بذلك أن تدمير الأوطان يحتاج من بعده إلى إعادة بناء، مصدرها الأساس الدول والمجــتمعات المنــتجة والمستقرة، وثمنها استنــزاف جديد غير محدود للثــروات ومصادر الثروة المتاحة. أحد العباقرة أكتشف أهمية "الرموز" في فضائنا المعاصر، فأصبح ينصح بالاستخدام السلبــي لهذه الرموز من قبــيل الإثــارة، وكبديل من استخدام القنابل والمتفجرات، ولم يقصر بعــض القــوى السياسية فأراد أن يستفيد من عواطف الناس الجياشة

للـــتفاعل مع الرمز، ولتسجيل أهداف سياسية. حدث ذلك في الأحد الأســـود، الرابع من شباط (فبراير) في بيروت، عندما انطلقت تظاهرة احتجاجية على الرسوم الكاريكاتورية التي نشرت بصحيفة دنماركية في (ســـبتمبر 2005)، ثم تحـــولت إلى الاعتداء على الكنائس المسيحية في محاولـــة مكشوفة لاستغلال الرمز وفتح ثغرة لحرب أهلية أخرى، وقد يكـــون هذا الدافع نفسه خلف الاعتداء على مرقد الإمامين. إنه فعل سياســـي قبل أن يكون أي شيء آخر. تدمير الأضرحة والمساجد ليس جديداً في تاريخنا الطويل، فتاريخنا مع الأسف مليء بصفحات من هذا الـــنوع، وفي الذهن - وفقط مؤخراً - على سبيل المثال ما فعله حسين كامـــل وعلي حسن المجيد نيابة عن صدام حسين في المراقد الشريفة في كل من كربلاء والنجف، حين أفلت الحرس الجمهوري ليقمع بوحشية الانتفاضة وقتذاك، فاعتقل الآلاف من رجال الدين وقتل العديد منهم، وتم ربـــط الناس إلى الدبابات واستخدموا كدروع بشرية... لقد صوّر الـــبعث فيلماً لكل هذه المجازر! الجديد هو إبدال مصالح الوطن الذي يـــضم كل الفئات والطوائف والأعراق والأجتهادات، بالتخندق وراء مصالح محدودة لاستقطابات سياسية تُظهر للعامة أنها مصالح خاصة بهم كمجمـــوعة فـــئوية أو عـــرقية أو مذهبية. هنا تكمن الخطورة، وهو استغلال بشع لعواطف الناس. البديل بعد ذلك هو خلق رأي عام قوي ومـــتفاعل يقوده الخيّرون والشجعان على قاعدة تحذير الناس من أن لا يقعـــوا فريـــسة هـــذا التخدير الذي يستخدم "الرموز" لإشعال الفتن الوطنـــية، مهما كان خيارهم الروحي، فتحت وطأة التعصب الأعمى تخـــتلط الألـــوان وتـــضيع الأوطان، يشجع المستفيدون من مثل هذه الأعمال استفزاز الآخر فتنطلق الشرارة. بردة فعل كهذه، عاقلة وبعيدة النظـــر، يمكـــن أن يفوت على من يكون رغباتهم الشريرة ومواقفهم

اليائسة قد أملت عليهم ذلك العمل المستهجن. أما الاستجابة بالتشنج، مهما كان مبررها، فإنها الحرب البديلة التي توجّه إلى الأحشاء الداخلية للوطن فتمزقه، لأن من جاءه المرض العضال من داخله فلا شفاء له.

(33)
حتمية الحرب الإيرانية الأميركية

على رغم ارتفاع أصوات الصحافة الغربية التي تردد نفير التراجع والانسحاب من العراق، ومطالبة الصحافة البريطانية الجادة حكومة توني بلير بفعل ذلك قبل أن تتحمل خسائر كبيرة في الأرواح جنوب العراق، وهو أمر بدأ رئيس الوزراء البريطاني بتهيئة الجمهور ليتقبله استعداداً للرحيل من دون تحقيق "نصر" كان موعودا، في الوقت نفسه تتزامن معزوفة الانسحاب التي تتكرر في الأوساط السياسية الأميركية، فالغرب لا تحتمل معدته حربا طويلة الأمد وسط حرب أهلية مستعرة. المعاكس لذلك التوجه هو طبول الحرب التي تصدح من جهة أخرى، من أجل شن حملة عسكرية ضد إيران. وهذه الحملة تكاد في بعض الأوساط الغربية أن تكون واقعة وتحصيل حاصل. تعيين التوقيت وضبطه لبدئها هو الذي يحتاج إلى قرار. على الرغم من النكسات التي لحقت بالعسكرية الغربية (الأميركية - البريطانية) في العراق والوضع المأسوي الذي وصلت إليه الحملة المكلفة، كما الحملة الأخرى في أفغانستان، فإن البعض في الغرب بدأ يروّج لرسم صورة أخرى مفادها: إن أردتم خروجاً معقولاً ومشرفاً من العراق، ووضعاً مسالماً في أفغانستان، لا بد من الاشتباك مع إيران وضبط تصرفها فهي رأس الشرور. وتذهب هذه الفكرة للقول إن الغرب قدّم لإيران في السنوات الأخيرة أفضل ما يمكن أن يقدم إلى دولة استراتيجياً، خلّصها من عدو

في الشرق هو حكم "طالبان" الذي ناصبها العداء، وعدو في الغرب هو حكم البعث وصدام حسين الذي اشتبك معها في حرب ضروس لثماني سنوات، إلا أنها لم تقدم الامتنان المتوقع منها عن طريق كف يدها عن الامتداد إلى مناطق النفوذ الغربية. فهي تناصر جماعات في أفغانستان ضد الوجود الغربي، وتفعل الشيء نفسه في العراق، بل تقدم دعما لجماعات متهمة بالإرهاب. هكذا يدار النقاش في الأوساط الغربية صاحبة النفوذ السياسي التي تصل في النهاية إلى القول: إن أردنا أن نقلل الخسائر في العراق وأفغانستان علينا أولاً بتوسيع الحرب وحرمان إيران من قنص ما مهدنا له في الشرق الأوسط. هل تستطيع المنطقة الخليجية أن تتحمل أعباء صراع دولي رابع جديد خلال ثلاثة عقود فقط من التاريخ الحديث؟ ثم ما هي الكلفة البشرية والمادية لمثل هذه الحرب إن وقعت وأكثر من ذلك ما هي نتائجها المباشرة على المنطقة؟ المؤسف أن أهل المنطقة آخر من يستشار حول ضرورة أو عدم ضرورة مثل هذه الحرب القادمة، وما هي الأثمان المتوقع دفعها من أهل المنطقة أو النتائج التي يمكن تحقيقها؟ كل تلك الأسئلة لا تتوفر لها إجابات بعد. يبدو أن الغرب لسبب لا يعرفه إلا القلة مصمم على خوض "أم الحروب" وهي الحرب ضد إيران لعدد من الأسباب منها:

1. ان حصول إيران في وقت قريب نسبيا على سلاح نووي يجعلها مهيمنة على منطقة حيوية اقتصاديا للغرب، وهو أمر لا تقبل به المصالح الغربية. كما تُطلق في الوقت نفسه سباقا نوويا في المنطقة يهدد السلم الإقليمي وحتى العالمي.
2. ان التمدد الإيراني في المنطقة العربية، خصوصاً في لبنان وفلسطين، وإشاعة جو غير مريح في البلدان التي توجد فيها أقليات شيعية، قد يغري إيران بمد نفوذ أجندها، وهي مقاومة مصالح الغرب، إلى

آفـــاق جديدة، حتى لو كان ذلك عن طريق استخدام وسائل غير تقلـــيدية، وما الحاصل في العراق إلا عينة يمكن أن تتكرر عند مد النفوذ الإيراني المتعاظم. مثل هذه الأفكار تجد لها صدى واسعاً في دوائـــر التحليل الغربـــي، وقد تكون مبرراً لصدام إيراني غربـــي (أميركي في الأساس) من أجل الحد من الشهية الإيرانية في التوسع المعـــنوي والإيديولوجـــي ومن ثم الاقتصادي في المنطقة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه في أفغانستان والعراق. دون ذلك تذهب هذه النظرية للقول إن الهزيمة في العراق وفي أفغانستان لا بد قادمة، وهي هزيمة للمـــشروع الغربـــي، التي قد تؤدي إلى ملاحقة هذا المشروع في أمـــاكن أخرى، كما حاول الرئيس الإيراني أن يفعل بتوجهه إلى "الرافـــضين" في أميركا الجنوبية الجارة اللصيقة للولايات المتحدة. هكذا يحضّر الفضاء العام لتبرير الحرب القادمة.

المؤســـف أن الـــبعض في إيران لا يريد أن يقرأ جيدا ذلك التحضير والتصميم على مواجهة المشروع الإيراني الحقيقي أو المتخيل، كما لا يرى اللـــوم الواقع عليه في مناطق نفوذه الجديدة، ويسارع إلى التحدي وطلب المـــواجهة أو اســـتعجالها، وهـــو أمر يصب في خانة الصقور الغربيين، إذ يـــسعفهم بفرص وقناعات جديدة لحشد تأييد دولي أكبر ضد إيران، وهو مـــا يـــتم فعله على الأرض من خلال تصعيد لهجة القرارات الدولية ضد إيـــران في مجلـــس الأمن والوكالات الدولية المتخصصة. كما أن المشروع الإيراني لا يأبه بالمخاوف الحقيقية لجيرانه العرب، ولا يفعل الكثير من أجل تخفـــيف تلـــك المخـــاوف، ســـواء مع حلفائه في إيران أو أصدقائه من الجماعـــات التي تتبع نظريته في الحكم والولاية. كما لا يرى كثيراً الفروق في حقـــوق المواطـــنة بـــين مخـــتلف مكوناته الداخلية، ما يجعلها سببا في الاضطراب الداخلي سواء كانت في منطقة العرب أو البلوش.

وضع إيران الاقتصادي، على الرغم من ارتفاع أسعار النفط، غير مـــريح. وتبين التقارير الدولية أن الاقتصاد الإيراني يعاني من مشكلات هيكلية، زادت أعباءه بسبب المصروفات الضخمة على المشروع النووي وأيـــضاً علـــى مشروع إرضاء المناصرين خارج التراب الإيراني. وأي "حصار" اقتصادي متوسط أو طويل المدى ومحكم دوليا يمكن أن يأتي بسوء العاقبة على الشعب الإيراني اقتصاديا ومن ثم سياسيا.

في دوامة كهذه قد تنشط إيران أكثر مما هي ناشطة الآن في الجوار وربما بشكل عصبـــي في "محاربة" ما تراه من النفوذ الغربـــي والمصالح الغـــربية والأميركية على وجه الخصوص، التي تطوقها في الأماكن التي تـــستطيع أن تؤذي فيها هذه المصالح. الخليج ثم لبنان وبعض الأراضي العـــربية الأخرى هي التي ستكون ساحة ذلك الصراع، والشعوب فيها ســـتكون هـــي الوقود المتقدم للحرب. في أجواء مثل هذه لا يستطيع المراقب إلا أن يرى أجواء الصراع الساخن في التصريحات والتصريحات المضادة من المعسكرين، الغربـــي والإيراني، وهي تصريحات تشبه كثيرا التـــصريحات الـــتي كانـــت تخرج من بغداد قبل زمن من الحرب على العـــراق. في مثل هذا التشابك الخطر أين يقف الرأي العام العربـــي؟ حقـــيقة الأمر أنه في معظمه يقف مع سياسة إيران تجاه إسرائيل، فذلك جـــرح عربـــــي نازف استطاعت إيران حقاً أو باطلاً الاستفادة منه سياســـيا، ويقـــف في جانب آخر ضد سياسة إيران في كل من العراق ولبنان، حيث يشعر بثقل اليد الإيرانية هناك. لذلك فإن الجهود الغربية منـــصبة على إيجاد مخرج ما في فلسطين، وقتها ستفقد السياسة الإيرانية جـــزءاً مـــن التعاطف العربـــي، وتميل الكفة ضدها في الساحتين التي تتمـــتع بنفوذ فيهما. ومن الأرجح عقليا أن تتضافر جهود إيران لإيجاد حلـــول مع شركائها العرب، خاصة السعودية ومصر، لحلحلة الوضع

العراقـــي واللبـــناني، والظهور بمظهر الحفاظ على الوحدات الوطنية في كليهما من أجل موازنة معقولة للنفوذ الغربـــي الذي يتوجه إليها معلّقاً كـــل الشرور. في الحالة الثانية وهي التصعيد في كل من العراق ولبنان ستعجّل إيران من اقتراب موعد الصدام.

(34)

أجندة "حزب الله" وصبر السنيورة!

قبـــيل النـــصف الثاني من التسعينات أقام المرحوم الرئيس رفيق الحريري مأدبة عشاء على شرف وفد ثقافي كويتي كان يزور العاصمة اللبنانـــية بـــيروت، في فندق البريستول[1]. جمعتني الصدفة على طاولة واحدة، مع الرجل الرقيق والحيي فؤاد السنيورة، والحديث ذو شجون. مـــن ضـــمن ما قاله وقتها تعليقا على عودة بيروت إلى الحياة، أنه قبل ســـنوات قلائـــل كنا نناقش في مجلس الوزراء اللبناني، أنه لو قدّر الله وتعطلـــت طائرة جامبو في سماء بيروت بعطل قاهر، واضطرت للهبوط في المطار لما وجدنا لركابها غرفاً فندقية تكفي لمبيتهم! كان التعليق يدور حـــول تصميم حكومة لبنان على البناء، بعد أن خربت البلد عن بكرة أبيها في حرب الإخوة الأعداء. لا ماء نقياً يُشرب ولا كهرباء تضيء. خرجنا من دعوة العشاء في تلك الليلة البيروتية الماطرة، ونصف بيروت تقـــريباً غاطس في الظلام. لقد بُذل جهد إنساني ضخم لعودة لبنان إلى الحياة. في صيف عام 2004 تبارت الصحف اللبنانية في تعداد لوحات الـــسيارات القادمة من الخارج إلى لبنان، وكان مجملها، المؤجرة محليا والقادمـــة من الخارج، تفوق في العدد سيارات سكان بيروت. وقتها جاء إلى لبنان تقريباً مليون سائح، وكان موسماً اقتصادياً ناجحاً.

---

(1) كـــان ذلك في عام 1994 في الاسبوع الثقافي الكويتي في لبنان، أول اسبوع بعد الحرب الاهلية.

والـــيوم يهدد لبنان من جديد بالعودة إلى الظلام، والملام الأوحد هـــم سياســـيو لبنان، ليس جميعهم ولكن بعض المتعنتين منهم، الذين يرغبون في أخذ كل شيء وإلا سيخربونها على الرؤوس!

قـــراءتي لأحـــداث لبنان أن البلد ذاهب إلى حرب أهلية كبرى، يكـــون الـــرابح فـــيها هو الخاسر الأكبر. كان الشعار المرفوع لكل حركات "المقاومة" العربية، هو تحرير القدس، وتحوّل في لبنان أخيراً إلى شـــعار أبسط وأكثر وضوحا، هو تحرير السراي الحكومي من الرجل الحيي والإنساني الذي اسمه فؤاد السنيورة.

لم يـــستطع أي حزب عربـــي منذ سنوات الثمانينيات من القرن الماضـــي حـــتى السنوات الخمس الأولى من هذا القرن، أن يجمع حوله المناصـــرين، كما فعل "حزب الله" في لبنان. لم تكن سيرة الحزب كلها كإمـــرأة القيصر، كان قد وقع في أخطاء إبان حرب الاخوة، ولكنها مقارنـــة بمـــا حدث من غيره تبقى هينة. إلا أن الحزب جمع في مسيرته أعـــداء حقيقيين، وأشارت إلى هذه الحقيقة بعض الدول الكبرى، على أن الحـــزب "منظمة إرهابية". استطاع رجل في قامة رفيق الحريري أن يأتي بشبه المعجزة السياسية، وأن يخلّص "حزب الله" من تهمة الإرهاب لدى بعض الدول العالمية المهمة، ويفرق إجماع الدول الغربية عن ذلك، وفي الوقت نفسه يحفظ لـــ "حزب الله" سلاحه، على أساس أن يصار في وقت لاحق إلى الوصول إلى حل سياسي في البلد الصغير.

كانـــت قامة الرجل قادرة أن تحقق معادلة "لا ضرر ولا ضرار". وبجهـــد طويل، دولي ومحلي، تحرر لبنان عام 2000 من معظم الوجود الإسرائيلي على أرضه. معضلة "حزب الله" أنه يعرف ما لا يريد اليوم، ولكن من الصعب أن يعرف من هم خارج نطاق قيادته الضيقة ما يريد على وجه التحديد.

* التحالف مع البرتقالي ميشال عون هو تحالف "زواج متعة" فعون يرغب بكل قوة في الكرسي الأول في لبنان، وهو أمر يرجح أنه بسببه دخل في تحالفات تكتيكية، هو و"حزب الله" يعرفان أنها تحالفات "موقتة"

حقيقة الأمر أن تحالف الرابع عشر من آذار (وخاصة تيار المستقبل) هو اقرب في الأهداف الكلية البعيدة لـ "حزب الله" من عون وتياره الانعزالي. بقية الفئات الصغيرة المتحالفة مع "حزب الله" حاليا هي قوى صغيرة وثأرية، صنعت سياسياً في أوقات هيمنة القوة الأمنية السورية على لبنان، وكثير منها لا يملك أي تعبير على الأرض يمكن الأخذ بجديته. المعادلة التي توفرت في الانتخابات اللبنانية الأخيرة أي (التحالف الرباعي)، وهي "حزب الله" و"أمل" و"تيار المستقبل" و"الاشتراكي"، مع حلفاء أقوياء في الجانب المسيحي ("القوات" و"الكتائب") هذه المعادلة، كأي معادلة سياسية تتغير عندما يشعر طرف أو أطراف من المشاركين فيها أنه قادر على تغيير التركيبة السياسية لصالحه دون أضرار كبيرة. لقد كان التحالف ردة فعل على الطريقة الفجة للتخلص من رفيق الحريري، وأيضاً للضبابية التي سادت الجو السياسي اللبناني وما يمكن أن ينتج عن ذلك الاغتيال السياسي البشع محليا ودوليا في ما بعد. المعادلة الجديدة التي يدفع بها «حزب الله» مع جميع القوى المتضررة من الانسحاب السوري هي معادلة ليست لها قواعد معقولة أو واضحة. فخيار الإطاحة بحكومة السنيورة يعني في نهاية الأمر أن يكون "حزب الله" في المقدمة، أي في الحكم، وان توارى خلف حلفاء ضعفاء، فلن يقتنع أحد بالقشرة الرقيقة التي يمكن أن يحشدها الحزب من "جماعة المتضررين". وقتها سيكتشف الحزب ما اكتشفته كل القوى العربية الحاكمة في الدول المحيطة بإسرائيل، وهي

أنها لا يمكن أن تجمع بين الحكم في العاصمة، وبين المشاغبة على الحدود التي تفصلها عن إسرائيل. لقد اكتشفت ذلك مصر أولاً ثم الأردن، والدرس واضح في الجولان. فلا تستطيع دمشق مثلاً أن تحتفظ بالحكم مع تسخين الجبهة! أما هذه وإما تلك. ومن المستحيل الثاني أن تكون هناك حكومة لها جيش رسمي وفي نفس الوقت "ميليشيا" خاصة بها! في الحالة اللبنانية يمكن القول بالشواهد أن الحالة ستصبح أصعب بكثير. فالحزب ان حكم تحت غطاء المتضررين، وهو غطاء رقيق، سيكون مباشرة أمام المجتمع الدولي، وستكون له معارضة قوية في الشارع اللبناني (سنّة لبنان ومعظم الشارع المسيحي) ولا يستطيع شعب وقد وصل إلى تخوم الحرية أن يتراجع عنها. سيكون المجتمع الدولي أكثر حرية في التضييق على هكذا حكم، ويكون الحزب قد خسر الحسنيين، رفاه اللبنانيين والمقاومة على الحدود.. سيكون على حكومته أن تقبل بوضوح مفاعيل قرار مجلس الأمن 1701 وأي قرارات سابقة دولية ولاحقة. قلت أن ذلك هو الظاهر في أجندة "حزب الله" في المعركة الدائرة في لبنان اليوم، وهو يستطيع أن يخوضها باسم الطائفة لأن لديه المال والسلاح، فلا أحد من تلك الطائفة، غير نفر قليل، يمكن أن يخرج عما يريده الحزب بسبب ما يتوفر له من مال وسلاح. أما إذا أخذنا علما بما كتبه باتريك سيل في هذه الصحيفة نهار الجمعة الماضي (12 كانون الثاني 2006) اذ أشار إلى أن جوهر الأزمة اللبنانية "هو في كون الطائفة الشيعية قد حرمت من حقها المشروع في المشاركة في السلطة، وهي اليوم تطالب باسترداد حقوقها" إذا كان هذا هو ما تريده قيادة الحزب، فإن الملف جميعه يتحول إلى منحى آخر تماما، هو "انقلابي" بحق، وكل ما عداه ذرائع. المشكلة هي هل الافضل أن تحصل الطائفة "على الحقوق" في دولة صحية مقبولة من العالم أفضل، أم أن تحصل

علـــى تلـــك الحقـــوق في دولة مقسّمة وعليلة وفقيرة ومعزولة؟ أقوى أســلحة فــؤاد السنيورة هو ورفاقه اليوم التخلي عن الحكم، وتفضلوا احكمـــوا وسيروا البلد، ما دمتم قد رفضتم قواعد اللعبة الديموقراطية، الـــتي لا تعتـــرف بطوائف، بل تعترف بأكثرية تحكم وأقلية تعارض، ويتقـــرر ذلـــك من خلال الانتخابات كما يقرر منطق الأمور! مشوار ذلـــك الحكم طويل، فلا سورية ولا غيرها تستطيع أن تُرجع عقارب الـــساعة إلى الخلـــف، والإربـــاك العاجل سيصل إلى معسكر "تحالف المتـــضررين" وبـــسرعة شديدة لينفك "زواج المتعة" سريعا، وقد يلجأ البعض إلى إخضاع الحلفاء إلى بيت الطاعة من أجل تقاسم المغانم على حـــساب رفاهـــية اللبناني وتطوير البلد. والسؤال أي من الأجندة هي المراد تحقيقها المعلنة أم الخفية؟

(35)

فكر السراديب

نستطيع أن نلوم الآخر بسبب موجات الإرهاب المتكررة التي تضرب مدن العراق، كما نضع اللوم على آخرين مجهولين أو معلومين في العمليات الإرهابية التي تقفز بين فينة وأخرى إلى مانشات الصحف العربية في بعض عواصمنا من اليمن حتى المغرب، إلا أننا لا نناقش موقفين آن لهما أن يناقشا، الأول هو ما وراء فكر السراديب المتفشي تحت سطح كثير من مدننا العربية، والذي يحيط به فكر حافظ ومشجع، والثاني الموقف الضاغط من العاصمة الأهم وهي واشنطن تجاه مدن الشرق الأوسط ومجتمعاته.

فكر السراديب لن يذهب بعيداً عنا ويختفي بمجرد التمني أو بإطلاق مسميات سلبية على معتنقيه، مهما كانت هذه السلبية اللفظية بشعة ومقززة، فهو أمر يريح بعضنا في إطلاقها، لكنه غير مؤثر في البيئة الفكرية لهم، لأن بيئتهم المادية لم تتغير.

حقيقة الأمر أن "الحرب" العالمية على الإرهاب التي تقودها الولايات المتحدة قد أوقعت منطقتنا من المحيط إلى الخليج، في حيرة عميقة يبدو أن لا مخرج قريباً منها.

فواشنطن بسبب تخوّفها، وقد يكون إلى درجة مَرَضية، مما حدث في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر 2001، حوّلت مخاوفها إلى فوبيا من أية مصادر (عربية، إسلامية).

من مظاهر هذا التخوف، رغم كل النفي، هذا التشدد الغربي سواء الأوروبي أو الأميركي غير المنطقي، في السماح لأي عربي ان يطئ الأراضي الأميركية، خصوصاً اذا كان شاباً قبل الخمسين من عمره. ويفسر الموقف من قبلهم وهو القريب من العنصرية على أنه حفظ للأمن، حتى بات الحصول على سمة دخول إلى هذه البلدان دونه العقبات الكؤود، والكثير من الأسئلة التفصيلية، وقد استقر في يقين كثير من المتابعين العرب أن الأجهزة الغربية تعرف عن المواطن العربي ممن يطلب سمة دخول لزيارة أو علاج أو دراسة، أكثر مما يعرفه جاره الأقرب، بسبب هذه اللوائح الطويلة من الأسئلة. وكنا في الماضي نستهجن أسئلة السلطات القمعية العربية على الحدود، من ضرورة وضع اسم الأم إلى اسم الجار الأقرب في بطاقات الدخول وتحديد الانتماء الحزبي والعقائدي، حتى غدت اليوم مثل هذه الأسئلة مسلّمة من مسلمات الواقع في قوائم الأسئلة الغربية لطلبات سمات الدخول.

لقد زاد ذلك إلى ابتزاز غير قابل للسكوت عنه، فعلى اثر إعلان السلطات الألمانية أخيراً السماح لمواطني بعض دول الخليج الحصول على سمة الدخول الموحدة للدول الأوروبية في وقت قصير، واستثناء مواطني الكويت من ذلك، جرت مباحثات مع السلطات الألمانية لتفسير ذلك الاستثناء، وتبين أن الأسباب تتداخل معها العلاقات الاقتصادية، وتتجاوز إدعاء الخطر الأمني المهدد!

أحداث الحادي عشر من سبتمبر أدت إلى ظهور نظرية متعاكسة لدى الغربيين والأميركيين على حد سواء، وهي التضييق على الحريات للمواطن العربي من جهة، والمطالبة بإطلاق الحريات في دول الشرق الأوسط من جهة أخرى؟

هذه النظرية المتعاكسة هيأت جواً لفكر السراديب ينتعش ويكبر ويزداد جمهوره اتساعاً.

بسبب الحرب على الإرهاب انتشرت المعتقلات في الحديقة الخلفية للعواصم العربية، على حد تعبير المرحوم الملك الحسن الثاني، الذي قال "لكل منا حديقته الخلفية"، لكن بعض الحدائق الخلفية أصبح أكثر اتساعاً من سواه، وأصبح التضييق على الحريات قاعدة مقبولة ما دامت ممارسة لدى العواصم الغربية، كما أصبحت للتعذيب مرجعية معروفة هي "أبو غريب" وأمثاله من المعتقلات، الذي مر على اكتشافها أعوام، من دون أن تثير ما تستحقه من إثارة، والتي تفنن فيها أهل الحضارة، وقدموا أمثلة غير معلنة في السابق، لجواز أهانة البشر باسم البحث عن الحرية، بل أصبحت المعلومات متداولة لجهة تسليم بعض العُصاة لبلداهم الأساسية، على قاعدة أن لتلك البلدان طريقة ناجعة لاستخراج المعلومات من أفواه المتهمين، كملئها بالبترول القابل للاشتعال حتى تسارع بالنطق. بادعاء عدم توفر مثل هذه الممارسات في المجتمع المتحضر، على طريقة تطبيق مقترحات رافائيل بت أي في كتابه الأشهر، العقل العربي، وهو عقل لا يرضخ إلا تحت التهديد والقوة الصلفة، كما رأى.

وفي هذه المعتقلات يفرّخ الإرهاب ارهاباً جديداً، وأنواعاً أخرى، نعرف اليوم قمتها الظاهرة على السطح ولا نستطيع سبر غورها، وما قد تؤول إليه في المستقبل.

يستفاد من هذه الإستراتيجية المتناقضة للضغط على الفئة الأضعف في المجتمعات العربية، الفئة التي يختفي أبناؤها ولا يجدون من يتابع مسيرتهم من معتقل إلى آخر، وهناك تنتشر في ما بينهم كُتيبات وفتاوى تحمل عناوين مثل "الباحث في جواز قتل المباحث" أو "تحصين النفوس في جواز قص الرؤوس"!

أو تنتـــشر "ثقافـــة الأحـــلام"، وهي ثقافة تقدس رؤى المنامات والأحلام، ويستطيع دعاتها أن يقنعوا العامة من الناس، ممن ضاقت بهم الأرض على ما رحبت، بأن ما رأوه في المنام واجب التحقق، ومنه طبعاً التضحية بالنفس الفانية في سبيل واقع افتراضي أفضل في الآخرة. هذه الـــثقافة ذات البعد الواحد المعتمد على زهد الدنيا، التي لا تحقق الحد الأدنى من المعيشة العفة، تقود إلى جواز التضحية بالنفس، وقتل الآخر المتـــسبب في هذا الوضع المزري، يعاضد هذه الثقافة ما يسمى اليوم في الأدبـــيات العربية بوعاظ التلفزيون، الذين يطلّون على الناس ليل نهار لـــزجّ أفكـــار يعتقد أهل السلطة أنها مُعينة على انبثاق النور، وهي في حقيقتها دافعة إلى الظلام الدامس.

لقد زادت "فوبيا" الخوف والسياسة النابعة منها والتي تحض عليها واشنطن لتجنب أي "إرهاب قادم". زادت تلقائياً من انحباس في التطور السياسي في المنطقة لا انفراج معه، وأصبح من نافلة القول أن واشنطن تستخدم شعاراً أريد به حق (الحرية) لتثبيت باطل، فهو حق عندما تريد واشنطن الضغط على بلد ما، ويتجاهل هذا الحق جملة وتفصيلاً بل يبرر نقيضه، عندما تتحقق مصالح اقتصادية وسياسية لواشنطن هي اقرب لها من كل الشعارات. في أي مجتمع أنساني هناك صراع، وهذا الصراع له طـــرق ووسائل للحل، ليس من بينها، كما خبرت البشرية على المدى الطـــويل، الغلـــبة بالصرعة وبالقوة، فهذه الغلبة وان نجحت فإن زمانها قـــصير للغاية في حياة الشعوب. والخيار الأمثل هو أولاً الاعتراف بأن هـــناك صـــراعاً طبيعـــياً في المجتمع، ومن بعد التفكير الجدي لحل هذا الصراع بالوسائل السياسية الحديثة المتوافق عليها، وهي وسائل معروفة لا تحـــتاج إلى بيان. حقيقة الأمر أن هناك ضجراً من الرسائل المزدوجة والمتناقـــضة القادمة من واشنطن، والتي تجعل معظم العرب ليسوا على

خـــط الاستماع، خصوصاً عندما تتغلب سياسة الحصول على الطاقة علـــى سياسة الحفاظ على الطاقة الإنسانية، وعلى كرامة الناس، تلك تقابلها ثقافة أخرى تنتشر هي ثقافة السراديب، حيث الخروج من هذه السراديب يتطلب أن يتسق الشعار الأميركي مع الممارسة على الأرض، فليس أكثر مثالية من معرفة الواقع، وهو حتى الآن في ابتعاد يتزايد عن الفهم في واشنطن.

(36)

قيمة النصر والهزيمة في الشرق الأوسط

تحتفل بعض المؤسسات المصرية بذكرى حرب السويس (1956) وقد مر أكثر من نصف قرن على نشوبها.، كانت "الممانعة" التي أبداها الـــنظام الناصري والمساعدة الدولية التي قدمت له هي "انتصارا" على الأعداء، انتصارا من نوع ما، حيث تحقق في النهاية ما كان يصبو إليه من جلاء للقوات المحتلة، وتأميم كامل لقناة السويس. ورفض كثيرون أن ينظروا إلى الأمر على أنه "تسوية سياسية" أكثر مما هو انتصار نهائي تحقـــق بقـــوة ذاتية. عدم وضوح الرؤية وقتها وضبابية المفاهيم ولّدت حرب عام 1967 التي انتهت باحتلال عسكري ضخم من قبل إسرائيل لـــلأرض العربية، سواء كانت سيناء حتى ضفة قناة السويس، أو الضفة الغربية وغزة. والأخيرتان لا زالتا محتلتين.

قـــيمة الدرس الأعمق أن من يعتقد أنه "هزم الآخر" ويمنّي نفسه بـــذلك "الانتـــصار"، ينظر فقط تحت قدميه ويتناسى الجولة القادمة. فيسكره الانتصار المتخيل وتقعده "نشوة النصر" عن رؤية الجانب الآخر مـــن الصورة. الانتصار المتخيل عام 56 ولّد حربا ثم انتصارا لإسرائيل عـــام 67، وهـــو الـــذي بدوره ولّد حرب عام 73. فقط في الحرب الأخيرة، أي عام 73، عرف الطرفان العربـــي والإسرائيلي أن الادعاء

بالنصر المبين هو خرافة يصدقها السذج من شعبهم، ويروج لها السياسيون المولعون بالبقاء على كراسي الحكم أطول فترة ممكنة. وعندما وصل الطرفان إلى قناعة بأن الانتصار في الحرب نسبي، وضعت الحرب الإسرائيلية العربية مع الدول الكبيرة أوزارها بعد أن تبين أن حالة "لا انتصار مطلق" "لا هزيمة مطلقة" هي السائدة، وعقدت بعد ذلك اتفاقيتا كمب ديفيد ووادي عربة، وظل الموقف مع سورية في حالة تجمد. الانتصار العسكري كما يعرف الجميع هو احتلال أرض العدو والقدرة على البقاء فيها لفترة طويلة، وتطويع من يعيش عليها من السكان وحمله على القبول بذلك الاحتلال نهائيا. مثل هذا الانتصار الذي تسميه الأدبيات الكلاسيكية "كسر إرادة العدو" في المقاومة لم يعد موجودا في العالم، ولا يمكن، عند دارسة حروب العرب مع إسرائيل، أن يطبق على صراع الشرق الأوسط. قد يُسوّغ الجانب الإسرائيلي نتائج حرب ما لجمهوره المتعطش بأنها ستبقي له "اليد العليا" في المنطقة، وقد يُسوّغ نتائج صراع ما على أنها انتصار، وقد يفعل ذلك هذا الجانب العربي أو ذاك، كما فعل حزب الله أخيراً في لبنان. إلا أن مفهوم الانتصار الكلاسيكي بعيد عن الانطباق على أرض الواقع. عند العودة لنتائج حرب صيف 2006، بين حزب الله وإسرائيل، فإن مفهوم "انتصار" يصبح نسبيا جداً، ويُسوّق الجانب الإسرائيلي نتائج حرب الصيف على أنها انتصار، حيث يقرر بيع فكرة إبعاد قوة حزب الله الضاربة عن الحدود المشتركة على أنها انتصار من نوع ما، كما يفعل ذلك حزب الله إذ القدرة على "ممانعة الماكينة العسكرية الإسرائيلية" لفترة زمنية طويلة نسبيا هو انتصار من نوع ما. إلا أن الحقيقة هي أن الطرفين لم يحقق أحدهما "انتصاراً" كما أن الطرفين لم يُمنيا بـ "هزيمة". ذلك هو التوصيف العادل لحرب

الصيف، والفرق هو في التوظيف السياسي لنتائج الحرب. المشكلة قاصمة الظهر هنا، حيث وظف الإسرائيليون النتائج توظيفاً سياسياً معقولاً، ويوظف حزب الله النتائج سياسياً توظيفاً سلبياً. ففي الوقت الذي بدا أن المجتمع الإسرائيلي يناقش أسباب ونتائج حرب الصيف، ظهرت بوادر معركة سياسية داخلية قاسية هناك، وارتد حزب الله على أهله وتشوش بالكثير من الضبابية السياسية، حتى بدا أنه فقد أو كاد قيمة ذلك "الانتصار" النسبي الذي سماه إلهياً قبل وقت يسير.

المعركة العسكرية تختلف عن المعركة السياسية، سواء كانت في الشرق الأوسط أو أي مكان آخر من العالم. المثال المشهور هو عندما تخلى الشعب البريطاني من خلال انتخابات حرة عن قائد معركته "العسكرية المنتصر" في الحرب العالمية الثانية: ونستون تشرشل. وقتها قيل إن انتصار الحرب يختلف عن انتصار السياسة في السلم، وهناك أمثلة أخرى لدى شعوب العالم تؤكد ذلك التوجه. ويبدو أن حزب الله يؤكد التجربة من جديد، ويترك لتكتيكاته الحربية وحدها فرصة العمل في الساحة السياسية. في الحرب يجوز استخدام كل المتوفر من الأسلحة المادية والمعنوية، ومنها "اغتيال الحقيقة" للوصول إلى النتائج المرجوة، وفي السياسة "اغتيال الحقيقة" يؤدي إلى انفضاض أهل العقل.

الحقيقة السياسية على الأرض اللبنانية تقول إن المعركة التي دارت لأحقاً لم تكن معركة الجنرال عون، ولا سليمان فرنجية ولا الأحزاب الصغيرة المتعثرة، التي وجدت في مائدة "المعارضة" التي مدها حزب الله في ساحة رياض الصلح ووفر كل المشهّيات فيها، كرسياً صغيراً تجلس عليه. المعركة هي معركة حزب الله في ما يريد أو لا يريد من لبنان. بعد مد تلك المائدة في ساحة رياض الصلح بدا سريعاً أن "الانتصار الإلهي" يوظف توظيفاً سياسياً متعثراً: قيل إن الحكومة اللبنانية قد

"تآمـــرت" من أجل أن يُضرب حزب الله في حرب الصيف، وقيل إن هناك "خونة" في الحكومة وهي حكومة "الأميركان وليس لبنان"، وقيل كـــلام ثقيل كثير!! لو تواضع حزب الله وقال إن الانتصار الذي تحقق هو انتصار "لممانعة" لم تحدث من قبل مع العرب في وجه آلة عسكرية فظـــة، ولو قيل أنه انتصار لكل لبنان، مع الاعتراف بأن كل لبناني قد ســاهم بشكل أو آخر في تعضيد موقف الحزب، ولو قيل أن ليس كل اللبنانـــيين على وفاق للذهاب إلى الحرب في كل حين وعلينا أن نتفهم هذا الأمر، ولو قيل إننا نحتاج إلى توافق وطني جديد، حتى لو وصل إلى المطالبة، بسبب تغيّر هيكلية التحالف الداخلي، بالذهاب إلى انتخابات مبكرة لتشكيل تحالفات جديدة...، لو قال الحزب أياً من ذلك أو كل ذلـــك لغـــدا ما يطالب به منطقياً من جهة، ولاحتفظ في نفس الوقت برصـــيده السياسي وزخم انتصاره، واستطاع أن يوظف على المستوى العالمي موقفه السياسي في كسب شرعية عالمية من خلال كل لبنان. إلا أن ذلك لم يحصل، فقد استهوى الحزب فكرة الانتصار الكامل. وكما يـــؤكد الـــتاريخ دائماً فإن هذه الفكرة تحمل في طياتها بذرة التراجع والانحسار، ولأن انتصارها غير نهائي أو غير دقيق تُحمّل النفس أكثر مما تستطيع أن تحتمل، فتضيع الحسابات وتتصادم الإرادات ويدفع المواطن الـــذي صبر وتحمّل الضيم في الحرب أثمانا أضخم في حالة ضنّها سلماً. مـــا يحـــدث في لبـــنان اليوم، بصرف النظر عن النيات الطيبة، يقدم للإســـرائيلي الكثير من البراهين على أنه حقق أكثر مما توقع في حرب الـــصيف. فهاهـــو لبنان الذي انتصر سياسياً بوقوفه صفا واحد أثناء القـــصف والمـــواجهة، يعود ليأكل بعضه فيما شعبه يتبعثر بين مظاهرة ومظاهرة مضادة، ويقف بعضه في مواجه البعض الآخر، وهو أمر يزيد مـــن بـــيع السياسيين الإسرائيليين لبضاعتهم في إسرائيل بأنهم حققوا

"انتـــصارا" أكـــبر مما توقعوه، كما يسهل لهم اختراقا لا يشك فيه في الجـــبهة التي انقسمت على نفسها شر قسمة، ويتحول "الممانع المقاوم" الـــذي حقق شيئاً يذكر في التاريخ العربـــي على أهله نكوصا، ليحقق أهـــدافاً غير واضحة للمتابع الفطن، إلا إذا كانت ذات أجندة خارجية مـــن نـــوع ما يراد تحقيقه في لبنان الصغير والضعيف النتائج السياسية الايجابـــية الـــتي كان يمكن تحقيقها بعد حرب الصيف ذهبت مع ريح حـــصار الحكومة في الشتاء، وقربت سحب الشتاء السوداء الخوف من حـــرب أهلـــية حقيقية أو شق لا يرتَق بين فئات المجتمع اللبناني. ولو حـــدث ذلك، وهو ربما في طريق الحدوث، فإنه سيضيع كل احتمال لأي مكـــسب سياسي لـــ "انتصارات الصيف" وتصبح حرب حزب الله، كمـــا كانـــت حروب الشرق الأوسط، قيمة النصر والهزيمة فيها متساوية.

(37)
خطة أبو مازن الفلسطينية

قـــد تشعر بالضجر عندما تقرا كتاب دنيس روس الأخير، الضخم والمعنون "السلام المفقود - خفايا الصراع حول سلام الشرق الأوسط"[(1)] إلا أنه كتاب واجب القراءة لكل من يتعاطى مع القضية الفلسطينية ويريد أن يعـــرف حقـــيقة تعثر السلام. لا لأن الكتاب كامل لا يأتيه الخطأ من أمامــه أو من خلفه، بل لأن الكتاب يرصد من وجهة نظر قريبة إلى الحياد مسيرة هذه القضية العربية التي حركت ركود الأمة العربية ولا تزال تفعل، وهو يتعاطاها من أهم زواياها وهي المفاوضات باتجاه التسوية.

أيـــن مـــا وجّهـــت نظرك اليوم سترى بصيصاً من تأثير القضية الفلسطينية موجوداً ويمكن أن تقرأه بوضوح، فما حدث من انقلابات عـــربية في دول الثقل العربـــي، والثورات المختلفة والتغيرات في البنية السياسية العربية التي لحقتها، بل في احتلال الكويت[(2)]، وفي ما يحدث

---

(1) روس غني عن التعريف، فقد عمل مبعوثا لبلاده للشرق الأوسط من 1988 إلـــى عام 2000، أي لاثنتي عشرة سنة كاملة، عمل خلالها مع جورج بوش الأب لأربعـــة أعوام، ثم لثمانية أعوام مع الرئيس السابق بيل كلينتون، وهو الآن مستـــشار الرئيس اوباما للشرق الاوسط.. ويقينا فقد أتاحت له سنوات بهـــذا التواصل أن يكون شاهد عيان ومواكبا، بل وصانعا لأحداث كثيرة في سلام الشرق الأوسط في مساراته الثلاثة، نشر الكتاب في بيروت 2008

(2) احـــتلت الكـــويت من العراق بين 2 أغسطس 1990 إلى 20 فبراير 1991. ونـــشر الكاتـــب مقالاته اليومية طوال تلك الفترة في كتاب "كلمات في زمن

اليوم في العراق، حتى الإرهاب والحرب على الإرهاب، كلها تقريباً لها علاقة ما بالقضية الفلسطينية من قريب أو بعيد، فهي القاطرة التي أثرت ولا تــزال تؤثــر في مسار منطقة بكاملها يقرب تعداد شعوبها مجموع سكان الولايات المتحدة.

هـــناك أخطـــاء وقعـــت أثناء المسيرة الطويلة للسلام، أول هذه الأخطـــاء أن هـــناك ما يشبه "الحقائق" التي ارتبطت بذهن العربـــي واعتبرها مسلمات لا نقاش حولها. كتاب روس يأخذك إلى التفكير في هذه المسلمات، التي فكرت فيها السلطة العربية الرسمية ووافقت عليها، لكـــنها لم تـــستطع أن تعلـــن تلك الموافقة، أو تتحمل دفع ثمنها. من الأخطـــاء الأخرى الفشل في الاستفادة من الفرص الدولية والتفاوضية الـــتي ظهـــرت طوال أكثر من نصف قرن من الزمان، وهناك عدد من الـــشواهد التي يقدمها دنيس روس، كثير منها أخطاء عربية بهذا المعنى. كان يمكن لتلك الفرص إن توفر جهوداً وتختزل طاقات لو عرف كيف يمكـــن الاســـتفادة من تلك الفرص، ولو تم ذلك لربما كانت الجماعة العربية والقضية الفلسطينية أفضل حالاً اليوم مما هي عليه.

إلا إن كـــل ذلك "تاريخ" يمكن أن يناقش، يُختلف عليه أو يقر. الجديـــد في الأمـــر هو قيام قيادة فلسطينية جديدة، وقد يصبح محمود عباس هو الرجل الأول فيها[1]. ولقد كان أبو مازن (محمود عباس) في

النكـــبة" الاهـــرام، 1992. وهـــي افتتاحية يومية من الاحتلال حتى ما بعد التحريـــر كانت تنشر في صحيفة صوت الكويت، التي كان يتراس تحريرها مؤلف الكتاب.

(1) اصـــبح عباس (ابو مازن الرجل الاول) بعد وفاة الرئيس ياسر عرفات في 11 نوفمبـــر 2004 بـــوقت قـــصير، وهـــو الـــيوم 2010 يدخل في مسيرة مفاوضـــات مباشـــرة تتقاذفها توقعات اقرب إلى الفشل منها إلى النجاح كما يرى كثيرون. الندوة المذكورة هنا تمت قبل وفاة عرفات باشهر.

الكويت في الأسبوع الثاني من ايار (مايو) 2004، جاء وقتها بدعوة من مجلـــس الأمـــة الكويتي للمساهمة في ندوة حوار حول الخليج والجوار، وكانت له مساهمة مكتوبة.

قدّم أبو مازن في ذلك المؤتمر ورقة علنية، وكانت التطورات حول التغيير في القيادة الفلسطينية أمر من أمور الغيب في تلك الفترة، وكان أبـــو مازن رجل شبه معزول. في الورقة قدم أبو مازن تصوّره الكامل بشأن الموضوع الفلسطيني، وسمّى رؤيته حينذاك "المعادلة المركبة". قال إن الإجابـــات السهلة أو المختصرة لا تصلح اليوم للحديث عن القضية الفلسطينية، لأن "الوقت" لدى أبو مازن له ثمن، كما قال، وهو وقت يحسب علينا وليس لنا. وقد استطرد أبو مازن في بسط تصوره بالقول أن الـــرغبات الصارخة والساخنة عندما تستبدل بالوقائع تُضيع الوقائع وتبقى الحسرة!

لخـــص أبو مازن خطته يومها بثلاثة مستويات، وأنا انقل هنا من الورقة المكتوبة:

أولاً: وقـــف العملـــيات العسكرية (الفلسطينية) لإشاعة الهدوء والاستقرار.

ثانـــياً: توحيد أجهزة الأمن (الفلسطيني) في إطار واحد، وتحت قيادة واحدة وسلطة واحدة.

ثالـــثاً: بناء سلطة القانون من خلال الفصل بين السلطات الثلاث التشريعية والقضائية والتنفيذية، وإجراء انتخابات، وإشاعة الديموقراطية باعتبارها الأساس للمحافظة على المشروع الوطني الفلسطيني.

تلـــك النقاط الثلاث التي ذكرها أبو مازن علناً في ندوة الكويت، قبل أشهر قليلة من انتقال الرئيس عرفات إلى الدار الآخرة، تعني في ما تعنيه غيابها في ذلك الوقت من الأجندة الفلسطينية.

والآن هل يمكن أن يحقق أبو مازن ما يؤمن به، والذي وضعه كمطلب لا بد منه للشروع في مفاوضات لها معنى؟

هناك ثلاث عقبات أمام هذا التصور.

الأولى هو أن الحديث عن (الثوابت، وتراث الرئيس الراحل) في الخطاب الفلسطيني ما بعد العرفاتي، وان كان يطرح للاستهلاك الداخلي إلا أنه مضر، فتلك شعارات لا تتناسب مع الواقع، فتراث الرئيس الراحل إن كرّر في الممارسة السياسية الفلسطينية أصبح قيداً على حركة القيادة الجدية لا عوناً لها، ويكفي أن يقال أن الرئيس المرحوم لم يكن مع توحيد قوى الأمن، و لم يكن مع سحب "العسكرة" من الانتفاضة، من بين أمور أخرى لم يكن موافق عليها، فكلما قل الحديث عن "التراث"، و"الثوابت" في الخطاب الفلسطيني الجديد، كلما أصبح الانطلاق إلى آفاق جديدة في مسيرة الفلسطينيين اقرب إلى التحقق.

العقبة الثانية، هي أن لا يُقيَّد أبو مازن "بشروط" من خارج قناعاته، فهو اليوم يلبي "طلبات البعض" ربما من أجل المسايرة، كما حدث مع السيد مروان البرغوثي، الذي قرر أخيراً أنه مع أبو مازن إذا قام بكذا وكذا! وهو أمر يجعل أبو مازن من جديد ينظر خلف ظهره، كلما أراد إن يخطو خطوة سياسية، عدا شروط المنظمات الأخرى التي تعتقد أنها تمثل الشعب الفلسطيني. العقبة الثالثة فسوف تطرح سؤال بعد نتائج الانتخابات في الأسبوع الأول من كانون الثاني (يناير 2005)، وهو ما علاقة "الحرس القديم" بالسلطة الجديدة؟ فمن المعروف أن السنوات الأخيرة في الصراع الفلسطيني على السلطة، أي في الوقت الذي أصبح أبو مازن رئيساً للوزراء وما بعد إعفائه من منصبه، أصبح هناك في النخبة السياسية الفلسطينية الحاكمة أنصار للرئيس عرفات

وأنــصار لأبــو مــازن، الكثرة مع السلطة الواقفة، والقلة مع السلطة الجالــسة في البيت، بل أن بعض أنصار رئيس الوزراء المقال بعد أقصوا عن أعمالهم، واعتدي على بعضهم بالسلاح، فماذا إن استمرت الوجوه القديمــة تغازل السلطة الجديدة وتتحكم فيها، وهل تتبنى تلك النخبة الخطاب (العباسي) الجديد، أم تضع العصي في دولابه بإطلاق شعارات زاعقــة أمام الأفكار الجديدة حباً في الشعبوية ومزايدة في السباق على السلطة؟

هــذه العقــبات الثلاث ستواجه محمود عباس، إن قرر إن يسير بخطــته الــتي أعلنها في الكويت سيراً حثيثاً، بقراءة التغيّرات الجذرية الحاصــلة في المنطقة المحيطة، والاستجابة إليها فلسطينياً. بقى موضوعان لهما علاقة بالجوار الفلسطينيين، يقول لنا دنيس روس أن المرحوم ياسر عرفات اسر إليه انه، أي عرفات، كان يريد إن يلتحق بالرئيس المرحوم أنور السادات في كامب ديفيد الأول، إلا أن سورية والاتحاد السوفياتي قــد مــنعاه مــن ذلك بصرف النظر عن قناعتنا بحقيقة الرواية، يبقى الــسؤال، وهــو هل يستطيع أبو مازن بأفكاره الجديدة إن يفلت من التعبــئة المضادة لسياساته في الجوار؟ لقد بدا التشكيك في سياسات أبو مازن من الآن، وما الاجتماعات واللقاءات إلا محاولة لجذبه بهذا الاتجاه أو ذلك حتى لا يبقى وفياً لرؤيته التي أعلنها في الكويت، قبل ستة أشهر.

أما الموضوع الثاني فهو تمويل عملية تغيير القناعات، فما دام عدد كــبير مــن الفلسطينيين يرزح تحت طائل التهميش والعيش العشوائي والــبطالة والحاجة فسيكون من السهل تجنيدهم باتجاه الأفكار الأكثر راديكالــية والأكثر رفضاً، يرفدهم بالطبع إعلام عربــي واسع التأثير يتوخى الإثارة وترديد الشعارات فيعرض أي تحرك سياسي نحو التسوية للخطــر، هناك أسئلة ستطرح من مثل، ما مصير الفلسطينيين في دول

الجـــوار، وقـــد حـــرموا مـــن العيش الإنساني تحت شعار "قومي" لا تطعمـــوهم أو تشغلوهم أو تجنسوهم، حتى لا ينسوا فلسطين! أيوجد شـــعار أكثر فاشية من مثل هذه الشعارات! خطة أبو مازن تحتاج قبل كـــل شيء إلى شجاعة في القول والثبات على الموقف، لقد وضح أن أنصاف الحلول لا تؤدي إلا إلى قضم فلسطين لقمة لقمة، ومن يريد أن يعرف التفاصيل عليه من جديد قراءة كتاب دنيس روس.

(38)
السلام يحتاج إلى موت شارون

المـــوت الذي أقصده هنا هو الموت المعنوي، وليس الموت الطبيعي، فالأعمـــار كلها بيدي الله وحده[1]. ما أرمي إليه هو موت سياسة وطريقة تفكير وممارسة لا يزال أطراف اليمين المتعصب الإسرائيلي يؤمنون بها، ولم تعـــد تنجز شيئاً على الأرض ولا مستقبل لها. وليس غياب ياسر عرفات بحـــد ذاته والذي من المحتمل أن تموت معه سياسة وسلوك، هو الذي يمكن أن ينجز السلام، كما تدعي هذه المدرسة اليمينية الإسرائيلية.

وإذا كـــان عـــرفات رحمه الله قد مات كبيراً ومهماً، فإن الكبار والمهمّـــين يتركون أخطاء كبيرة، لا ينكر عاقل أو منصف أن عرفات بجهـــاده وإصراره، وبما تمتع به من قدرات شخصية، أتعبت كثيرين في مـــشواره اللاهث، قد أوصل القضية الفلسطينية إلى ما وصلت إليه من عالمية، وتحوّل الفلسطيني في شخصه من مجرد لاجئ لا مستقبل له وغير معتـــرف بـــه، إلى أن يـــدفن هذا اللاجئ قريباً من القدس، وفي هذه الظـــروف والأحـــوال يعتـــبر هـــذا إنجازاً بحد ذاته، وصرف الشعب الفلسطيني في هذا المشوار الطويل نهراً مقدساً من الدم والدمع.

إلا أن مـــا تجمد فيه السياسي عرفات (في الأعوام العشرة الأخيرة علـــى الأقـــل) هو ما يعد من الأخطاء المميتة. فقد واجه انفضاضاً من

---

(1) بعـــد سنوات طويلة من الاصابة لازال شارون طريح التطبيب (2010) في أحد مستشفيات إسرائيل.

حـــوله من الفلسطينيين العقلاء، وإن لم يكن انفضاض بعضهم جغرافياً فقد كان انفضاضاً عقلياً وسياسياً، وإن لم يكن معلناً فقد كان خافتاً. لا جـــدال في ان عـــرفات نجـــح في كيفية التعامل مع السيكولوجية الفلـــسطينية، بل نجح في ذاك التعامل إلى حد الإبهار، إلا أن التعامل مع الـــسيكولوجية الفلسطينية، لا ينتج تلقائياً تحقيق بعض من حل واقعي مطلوب للقضية، بل يبقى ذلك التعامل منتجاً لأحلام معلقة في الهواء.

شـــارون وعرفات وقعا في الخطأ نفسه، ومن الممكن أن يقع فيه خلفاؤهمـــا، إن لم تحدث عملية تبصّر عميقة للمحيط والأحداث، لقد وقعـــا في وهم أن "القوة المطلقة" يمكن أن تكسر إرادة الآخر. شارون وقع في خطأ استخدام القوة الفظة، فانتهى به الأمر إلى أن أقام سوراً لا لمنع الفلسطينيين من العبور إلى إسرائيل، وانما ايضاً لتطويق الإسرائيليين في "الغيتو" الذي يمقتونه تاريخياً. وعرفات وقع في خطأ استخدام القوة المعترضـــة عن طريق "عسكرة الانتفاضة" أو صرف النظر عن تطويرها لعمـــل سياسي يفضي إلى واقع جديد، خصوصاً بعد أن تطور الوضع الدولي بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد، وانتهى به المقام بـــسبب القـــراءة الخاطـــئة إلى أن أصبح معزولاً في بضع عشرات من الأمتار، كالمسجون في سجن ضيق أو أشد.

القيادتان اللتان وجدتا في هذا المحيط من السياج المادي والمعنوي حولهما، لم تستطيعا أن تقدما لشعبيهما شيئاً أفضل من الصراخ والمزيد من الدماء. السّوران الفلسطيني والإسرائيلي لن يتحطما باستخدام القوة العـــسكرية، فلا الفلسطينيون قادرون على كسر إرادة إسرائيل بالقوة النـــسبية، ولـــن يكسر الإسرائيليون إرادة الفلسطينيين بالقوة القهرية، وعلـــى اخـــتلاف أشكال القوة، لن يتحقق مخرج، إن لم يتخلل ذلك تحكيم العقل.

الإقناع بدلاً من التهديد

الفلسطينيون في العهد العرفاتي تجاوزوا فكرة أخرى مركزية، وهي "الديموقراطية"، وقد تجاوزها مع الأسف قيادات ثورية عربية غسلت أيديها من الديموقراطية من خلال التلاعب اللفظي أو التبرير الايديولوجي لرفض الديموقراطية، ولو عرفت تلك الأحزاب والدول كيف تتعامل مع الديموقراطية، لأصبحت حالنا جميعاً اليوم أفضل، وربما بعشرات المرات مما هي عليه.

إلا أن تجاوز الديموقراطية في الفضاء الفلسطيني، كان بمثابة الدمل في الجسم الذي ينضح قيحاً.

لا أقصد بالديموقراطية هنا صناديق الانتخاب، ولا الديموقراطية الشكلية من ترشيح وانتخاب، إنما أقصد الديموقراطية التي قد تُخَسّر (بتشديد السين) بعض الأشخاص في المدى القصير، لكنها تُربّح الشعب كله في المدى المتوسط والطويل، إنها ديموقراطية التداول لا الفرض، والتغيير لا الثبات.

ليس خافياً أن هناك ظلالاً كثيفة من "التهديد والوعيد" التي تصل إلى حد "الابتزاز" بين الفرق والأجنحة الفلسطينية، التي تستخدم إما السلاح المباشر، أو شعارات التخوين أو حتى التكفير، من أجل فرض رؤيتها الخاصة على مسيرة العمل السياسي الفلسطيني، وهي ظاهرة تنتعش في المجتمعات الديكتاتورية أو شبه الديموقراطية، لكنها تختفي في المجتمعات الديموقراطية الحقيقية، التي ينتهي خلافها بإقفال صناديق الانتخاب، والسير خلف ما تقرره القيادة المنتخبة بالغالبية، ولا تحتكم مطلقاً للسلاح لحل الخلاف السياسي. لقد وقع من الضحايا الفلسطينيين برصاص رفاقهم ما يقارب من استشهد بالرصاص الإسرائيلي، وهي ظاهرة من مظاهر التخلف.

ربما يقول البعض أن الديموقراطية الفلسطينية مطلب مثالي في مثل أحوالهم، إلا أن هذا البعض مخطئ في قراءة العصر والفضاء المحيط. فهذه إسرائيل يجري فيها التداول السياسي، ويظهر فيها الرأي والرأي الآخر، وتطبّق في مجتمعها القوانين المرتضاة، لكنها ليست على خلاف في الثوابت، أو ما تعتقد أنه ثوابت نسبية. فشارون غير ناتنياهو، غير باراك، غير شيمون بيريز، غير اسحق رابين. وهي أيضاً مجتمع ليس آمناً بالمعنى المطلق للكلمة، لكن الاحتكام في ما يختلفون فيه يتم بالسياسة وليس بالقوة، فالديكتاتورية ليست مرادفة للأمن، وليست بديلاً من الفوضى، كما يريد البعض أن يتوهم، إنها بالضبط محرك للفوضى، وعامل من عوامل عدم الأمن في المدى المتوسط.

ليس خافياً على المتابع أن هناك قوى فلسطينية في الداخل والخارج، تزايد على أي موقف سياسي من منطلق غير مسؤول، وهي تمثل قلة نسبية في أعداد الشعب الفلسطيني، وتدعي أنها تمثله، قوتها تلك نابعة من الصوت العالي وليس من قناعة منبثقة عن الناس العاديين في الظروف العادية البعيدة عن التهديد، وليس خافياً أيضاً أن منظمة التحرير الفلسطينية تحمل بين صفوفها (دكاكين) صغيرة، أكثر من منظمات جماهيرية، وأن الراحل أبو عمار رحمه الله كان، وربما كان معذوراً، يجامل تلك الفصائل، ويتعامل معها بأبوة تصلح ضمن العائلة أو القرية، ولكنها تتنافى مع شكل الدولة الحديث، فأصبحت قوتها من جراء الهامش المعطى لها أكبر بكثير من حجمها الحقيقي بين المواطنين.

هناك ثلاث قضايا يحتاج الفلسطينيون أن يفكروا فيها بعمق اليوم، الأولى هي توحيد فصائل (الأمن) والثانية تنظيم المال، والثالثة نزع عسكرة الانتفاضة، المعضلات الثلاث تلك سوف تواجه أي قائد فلسطيني قادم، ولعلنا قد سمعنا كيف استهدف محمود عباس (أبو مازن) في غزة

قبيل اختياره رئيساً للسلطة كمؤشر للتهديد والوعيد وبقوة السلاح، حتى يظل هو أو غيره منصاعين ينظرون خلف أكتافهم في كل خطوة يخطونها!

السلطة الفلسطينية اليوم شبه دولة، وهي سلطة تحتاج إلى توحيد قوى الأمن، ذلك أمر بديهي، حتى يكون لها عنوان معروف، وفوضى السلاح قد تكون مبررة في الشتات، ولكنها مضرّة على الأرض الوطنية، لأنها تقود إلى التهديد واستخدام القوة كما اتفق في ما بين الفصائل حتى تتحول إلى حرب أهلية، وقد يكون من الأجدى الآن أن تتحول الفصائل تلك إلى أحزاب، تكون مرجعية قوتها أو ضعفها، صناديق الانتخاب، وليس أزيز الرصاص أو فوهات كواتم الصوت، ومنطقها هو قوة الحجة، لا حجة القوة.

إن انتقال السلطة السلس في القيادة الفسطينية، وإن ثمّن تثميناً كبيراً من البعض، أرى أنه محاصّة قد تقبل جزئياً بسبب الحال الموقتة إلى حين الانتخابات الموعودة، لكن مظهر المحاصّة لا يبشر بخير، ففاروق قدومي على سبيل المثال، ومن مأمنه البعيد، يظهر على الناس بالمقولات نفسها التي حفظها منذ ثلاثة عقود، وهو لم يمس بيده تراب فلسطين بعد، و"الأبوات" أجدى لهم أن يسلموا الراية إلى جيل جديد عاصر وعانى الاحتلال، وتعلّم كيف ومتى يحاوره، فقد أعطوا ما يستطيعون مشكورين في السابق، ولو فعلوا ذلك وعن طريق الانتخابات المقبلة الحرة والنزيهة، لقدموا درساً مميّزاً للعالم، ووجدوا أن الالتفاف العالمي حول قضيتهم غير مسبوق.

بالطبع هو أمر يحتاج إلى تغيير جذري في الطرف المقابل الإسرائيلي بموت سياسة شارون، ولكن دراسة المبادرات الخلاقة من الطرف الفلسطيني، في هذه المرحلة التاريخية والمنعطف الكبير، يمكن أن تؤثر بقوة إلى الأفضل في مسيرة نضال الطويل والمرير لأهلنا في فلسطين، من أجل عيش كريم ووطن مؤمل.

(39)
خيار الفرس أم تفاح أوروبا

المسألة الفارسية تفرض نفسها على العالم، وليس الشرق الأوسط فقط، فما يحدث في إيران اليوم يذكّر الجميع بالمراحل المضطربة التي مر بها تاريخ إيران الحديث، والتاريخ لا يتكرر ولكن يستطيع أن ينبئنا بالمستقبل على وجه التقريب. في شوارع طهران اليوم تلاحق الشرطة النسائية من تسول لها نفسها من نساء إيران إظهار ولو قصة صغيرة من شعرها خارج غطاء الرأس الرسمي، وتنقل لنا الاخبار الصحافية صور عمال إيرانيين يفككون الصحون الهوائية للإرسال التلفزيوني الدولي، لحرمان المشاهدين من متابعة الأحداث العالمية، ويقبضون على حسين موسوي المفاوض الإيراني السابق في الشأن النووي، بتهمة تسريب معلومات حيوية للغرب، من جملة حملة من الاعتقالات[1] وفي قطاعات أخرى يتم اعتقال الناشطين السياسيين ويتم التضييق على الاتحادات العمالية، كل ذلك دليل على أن الوضع الداخلي الإيراني متأزم، نتيجة السياسات المتبعة في الجوار وتجاه العالم. إيران دولة لا يرغب أحد من جيرانها بخاصة في الخليج أن تضطرب داخلياً، حيث أن ذلك يشكل تهديدا إقليمياً بالغ الخطورة، إلا أن اضطراب إيران عادة ما يكون منبعه

---

(1) ثمة انشقاق واسع تم في المجتمع الإيراني بعد الانتخابات الراسية الاخيرة (يونيو 2009) ولا زال هذا الانشقاق مؤثراً في الساحة الإيرانية ويتفاقم بين متشددين ومعتدلين، وربما توسع هذا الانشقاق في المستقبل مع اضطراب داخلي كبير.

داخليـــاً ولـــيس خارجـــيا. في القـــرن الماضي مرت إيران بعدد من الاضـــطرابات الداخلـــية بعضها كتب في التاريخ على أنه ثورة. ثورة المشروطية في بداية القرن الماضي 1906 كان سببها لجوء حاكم طهران لمعاقبة اثنين من تجار السكر بالفلق(1) لأنهما لم يقبلا بتخفيض الأسعار، وهـــي عقوبة مستهجنة، خاصة إذا كان ثمن السكر في السوق الدولي مـــرتفعاً! تلك الحادثة التي تبدو بسيطة من المنظور العام هي التي قادت في نهاية الأمر إلى ما عرف بثورة عام 1906 الدستورية. في عام 1978 قـــاد مقال كتبه وزير الإعلام آنذاك ضد الإمام الخميني، قاد في النهاية إلى ثـــورة عرفت بالثورة الإسلامية التي يحكم باسمها اليوم في إيران. قد يـــبدو فلق التاجرين أو مقال في صحيفة سبباً غير معقول لنشوء ثورة عارمة تغيّر من شكل الحكم، وهذا منطق صحيح في الظروف العادية، إلا أن التاريخ علّمنا أن النار من مستصغر الشرر، وهي نار تكون عادة تحت الرماد وتحتاج فقط إلى شرارة الإيقاد، وقد تأتي هذه الشرارة من حيث لا يتوقع احد. اليوم إيران الداخلية تضطرم بعدد من الاجتهادات المتـــضاربة، وما لجوء السلطة إلى القضايا التفصيلية والصغيرة كحجاب النـــساء أو الـــصحون الهوائية إلا مظهر لأزمة أعمق، فليست ملابس النساء ولا هوائيات البث التلفزيوني الدولي، ولا حتى مطاردة المعارضين تكفـــي لاخراج إيران من الحلقة الضيقة التي هي فيها. فمن الظاهر أن هـــناك صراعا سياسياً في الداخل يظهر إلى الخارج في شكل ارتباكات سياســـية تؤثر على الجوار والعالم. لم يستطع الشاه رضا بهلوي ومن ثم ابـــنه محمد رضا أن يبقيا الشعوب الإيرانية طيّعة، حتى بعد مذبحة عام 1935 الـــتي قتلت بأوامر من رضا شاه وقتها مئات من المتظاهرين ضد

(1) تعليق الأرجل في الهواء وضربها بالعصي.

حكمــه قادهم رجال الدين، تأخر الأمر ولكنه انفجر بعد حين. ولا يخفى على الإيرانيين ما آلت إليه ثورة عام 1906 التي كان من المفترض أن تقــيم حكمــاً مبنياً على الشورى وبشكلها الحديث، إلا أن تلك الــثورة دخلــت في فوضى بعد سنوات من نشوها لم تتعد العقدين، ومهدت تلك الفوضى لقدوم حكم ديكتاتوري دام نصف قرن تقريباً. والــدرس المستفاد، أن القمع والعنف يولدان قمعا مضادا أيضاً. صلب الحــدث العــام في إيــران كما في غيرها من الدول أن ضمور النمو الاقتــصادي يفاقم من التوترات الداخلية، ولما سقطت أسعار النفط إلى درجــات متواضعة في عقد السبعينيات لجأ شاه إيران وقتها إلى الجوار ومنتجــي النفط في العالم كي ينقذ الاقتصاد الإيراني. حدث ذلك مرة أخــرى في اواســط التسعينات في عهد الرئيس السابق خاتمي، فالنمو الاقتــصادي الذي يحتاج إلى تعاون دولي، يزيل الكثير من التوترات في المجــتمع. وإيــران تعــتمد في مــسيرتها التاريخية على عالمين (البازار) والمــسجد. وفي حــال كان البازار راضيا ومنسجما في نمو اقتصادي معقول يبقى الوضع السياسي مسالما، وفي حال العكس فإن البازار عادة ما يكون صلب التوتر الذي يقود إلى التغيير. الحصار الاقتصادي القائم ضد إيران يجعل الوقت في غير صالح السياسة القائمة، وكلما مر الوقت ظهــر الارتــباك أكثر على مجمل السياسات الإيرانية وأصبحت أكثر عصبية، كما تتفاقم حركة المعارضة الداخلية، وعادة تبدأ بالبازار وقبله الطــلاب. وقد شاهد العالم منذ أسابيع مجموعة من الطلاب الإيرانيين ينتقدون رئيس الجمهورية بحضوره. الطلاب الإيرانيون يعتبرون تاريخيا أن التظاهــرات ضــد الحكــومة هي طقس لازم، وجزء لا يتجزأ من عبورهم بين المراهقة والنضج. خيارات السياسة الإيرانية محدودة، واهم صعوباتها هو الاقتصاد الذي إن استمر كما هو مسبباً كل هذا الضنك

والارتفاع في الأسعار وهبوط مستوى المعيشة سيقود من دون شك كبير إلى اضطراب من نوع ما، وتاريخ إيران الحديث يشير إلى ذلك. فاكهة الإيرانيين هي الخيار، وهو تعبير ملفت إذ أن الخيار باللغة العربية له علاقة بالاختيار، ويبدو أن الاختيار القادم والمتاح لإيران هو قبول التفاحة الأوروبية، التي هي على شكل اقتراحات حل وسط أوروبي تقبل به إيران ولا تعارضه الولايات المتحدة، وهو أمر إن حدث قد ينقذ المنطقة من شرور ضخمة. أما استمرار السياسة الإيرانية كما هي اليوم، والتي يبدو أنها خارجة عن سياق التأني والحكمة الإيرانية المعروفة، فإنه لا شك سوف يثير القطاعات التقليدية في إيران، البازار والطلاب وأخير قطاع من رجال الدين، بدأوا بالفعل بإسماع تذمرهم من تلك السياسات.

(40)
الدولة معولمة والمجتمع محلي

هـــل هي مصادفة أن يتطابق عنوانا كتابين لكاتبين يفصلهما بحر من الفكر والممارسة، وكأنهما يتحدثان عن شيء واحد. ما أتحدث عنه كتاب "الحصاد المر" العنوان الذي اختاره أيمن الظواهري في التسعينات من القرن العشرين، وهو العنوان نفسه الذي اختاره البعثي منيف الرزاز لتجربته، قبل ثلاثة عقود من الزمان تقريباً قبل صدور الكتاب الاول.

واللافـــت إن الكـــثير من الكتب التي صدرت وتحمل تجربة من داخل معترك الحكم العربـــي في النصف الثاني من القرن العشرين على الأقـــل أو من عمل على حوافه وحواشيه، من الجزائر حتى الخليج، وأن اختلفت عناوين كتبهم أو مذكراتهم، فهي تحمل المعنى الرمزي الواحد، وهو "الحصاد المر" أي الفشل الذريع.

مـــاذا يعني الحصاد المر؟ يعني عند كتاب هذه المرحلة الطويلة من الممارســـين السياسيين العرب، أكانوا في قلب السلطة أو حول أطرافها أو انظمـــوا لهـــا ثم انقلبت عليهم، أنهم اعتقدوا بحمل "رسالة" واحدة وقطعية، وأنهم يمتلكون حلول مصيرية جاهزة، على الجميع أن يخضع لها طوعاً أو كرهاً، وإن لم يكن كذلك، فإن هذه المجتمعات التي يناضلون من أجل "إنقاذها" هي جاهلية بطبعها وطبيعتها، لا تعرف قيمة "هؤلاء الـــرجال" أو الفكـــر الـــذي يحملـــونه أو قادرة على تفسير وهضم الممارســـات الـــتي قامـــوا بها، فعادوا بحصاد مر. لعل بعض الظواهر

المشتركة بين الظواهري (الإسلامي) وبين الرزاز (القومي)، وهما هنا عينة للدراسة، تتشابه على الأقل من ثلاثة أوجه إلى حد بعيد. التشابه الأول هو إن مثل هذه الدعوات تحمل في طياتها احتكاراً للحقيقة المطلقة للمسار الاجتماعي والسياسي الذي يجب ان يسير فيه الشعب، فجزء من تفويض الأول (الظواهري) هو الله سبحانه وتعالى حسب ما يفسره من تعاليم الرب، وجزء من تفويض الثاني (الرزاز) المصلحة القومية، كما يفسرها ويراها ذلك الفريق، كلاهما احتكار مرضي للمعرفة، وثقافة الفكر الواحد، واتهام الآخر المخالف بالخروج عن الملة أو القوم، بسبب خلاف في الاجتهاد في شؤون الدنيا من دون أن تحكمها آليات واضحة ومؤسسية، هو أول درجات الحصاد المر التي يتجشمها مثل أصحاب تلك الأفكار عندما تفشل في الممارسة، لأن الاقتناع القاطع بأن الخلاف هو رباني أو وطني، في شؤون الحياة والناس المتغيرة بالضرورة، يعطي مثل هذه المدارس ومنتسبيها الحق كل الحق في نفي الآخر واضطهاده. التشابه الثاني هو في الاختيار الأوحد لطريق الخلاص، وهو اختيار يفرض على معتنقيه الإيمان المطلق والنهائي به، فليس هناك نقد أو مراجعة لا للفكرة بذاتها ولا للتكتيكات التي تتبع لتنفيذها، فلا نقد من الخارج ولا انتقاد من الداخل، يجعل من هذا الفكر وما يتبعه من ممارسة في مصاف القدسية المنزهة. أما التشابه الثالث هو بعدها عنَ الجانب الإنساني، في الوقت الذي يتعلم الإنسان من تجارب الإنسان الآخر، بصرف النظر عن لونه وعقيدته وانتمائه، وهي حقيقة أزلية ساطعة لا تحتاج إلى كثير إثبات، فلو قلنا أننا لن ننتفع بما حققه مكتشف الكهرباء لأنه مختلف عنا، لبقينا في الظلام، أو لو امتنعنا عن تناول دواء البرد لأنه مصنوع في بلاد تختلف معها لتحوّل البرد إلى مرض قاتل، تلك أمثلة على تجاهل البعد الإنساني في عالم

تتسارع خطاه الإنسانية بسقوط الحواجز، وتجاهل للتطور واختلاف الظروف، هذا التجاهل مشترك في دعوات "الفرقة الناجية" أو "القوم المختار" تحت أي شعار وب أي لبوس، وهي تجافي الاستلهام الحديث للتغيرات الحاصلة من نسبية الحقائق الاجتماعية - السياسية، واختلافها.

حتى لا يذهب أحداً بعيداً في التصور، أسارع بالقول أن تجاهل الخصوصية التاريخية لأي مجتمع هو توجّه غير علمي، إن "الدين" و"القومية" هي مكوّن من مكونات الأمة، فاستلهام أصول الدين والاجتهاد فيه وبل التجديد، وتبنّي فكر القومية المعتدل والاضافة عليه، هي جزء من كل أكبر، وهو الوصول بالمجتمع إلى ما يسمى اليوم بالتنمية الشاملة، على قاعدة العدالة والحريات العامة، وتمكين الناس من إدارة شؤون حياتهم، بالتنظيم المؤسسي.

فإذا كان التشدد هو قيمة يقبلها البعض عن طريق التهديد أو الوعيد، فإنها قيمة تستهلك بسرعة، وتاريخ الشعوب أمامنا مبسوط وطويل، فلم تستطع الفاشية أن تعيش طويلاً، ولم تستطع النازية أن تثبت، ولم تستطع الشمولية أن تقاوم، أو تقدّم برنامجاً حياتياً للناس[1] إذا كان الدين يستلهم بمبادئه العامة، فإن القول بأن الموسيقى "حرام" وإن مشاهدة التلفزيون حرام، وأنه لن يدخل الجنة املط (لا شارب له ولا لحية) فلماذا لا نستمر في الفكرة ذاتها ونقول بأن استخدام البندقية أو السيارة أو الطائرة تحتاج إلى فتوى! كذلك في الفكر القومي، إن كان الآخر اقل درجة إنسانية، منا "نحن" الذي لنا درجة إنسانية متفوقة ذوي "رسالة خالدة"، فإن سيادة العالم يجب أن تكون لنا، وهو طريق يأخذنا إلى الفاشية والنازية دون منازع. حتى لا نظل في التنظير أعود

---

(1) يقول الجواهري في هذا المقام.. ان اعمار الطغات قصار..

إلى كــتاب منتصر الزيات[1]، وهو كتاب شجاع، لعدد من الأسباب، أنه قال ما شاهد وروى بعفوية من دون تملق، لما وجد في مصر من تيار تكفيري، هذا لا يعني أني أوافق على كل أطروحاته، فهناك أمور تحتاج إلى نقاش. إلا إن دراسة الحالة المصرية لها معنى في فضائنا العربـــي.

بعــض ما كتب منتصر الزيات استوقفني، أكثر من الكتاب الذي صـــدر قــبل سنوات[2] يعرض تجربة أخ من مصر دخل تلك التجربة، واصدر كتاباً بعنوان "الدنيا أحلى من الجنة"! وان تشابه الوصف.

يقول منتصر وصفاً لاستعداد "الجماعة الإسلامية" لمواجهة الآخر: "في مواجهة الشيوعيين لا بد من التفقه في مسألة إثبات وجود الله، وفي مـــواجهة فكرة القومية العربية، كان علينا أن نوضح شمولية الإسلام"، انتهـــى كلام الزيات. وهو كلام محيّر، لأن أي عاقل يعرف أن قضية إثـــبات وجود الله لا يختلف عليها كثيرون من أهلنا في مصر أو خارج مـــصر، أكانوا أقباطاً أو مسلمين أو غيرهم من اهل الكتاب، كما أن الانعـــزالية ليـــست مركزية في الفكر القومي المستنير، وأجرؤ هنا على التعمـــيم، فإن وجد خلاف فهو لأقلية متشددة. أما الفكرة المركزية في هـــذا السياق فهي تجاهل البحث في شؤون العباد والمعاش، وهي فكرة مركزية في الفكر الإسلامي أو الإنساني، لا تحتاج إلى كثير بحث. قضايا مثل التشغيل والعمل والتعليم الجيد والحصول على حياة إنسانية كريمة والتطبـــيب واحتـــرام حقوق الإنسان، وهي قضايا دنيا، وقضايا تنمية وقـــضايا أعمـــار الأرض، قـــضايا المجتمع المدني والمؤسسات، قضايا الحريات، وكلها غائبة أو مغيّبة.

---

(1) منتصر الزيات: ايمن الظواهري كما عرفته، دار مصر المحروسة، 2002.

(2) خالـــد البـــري: الدنيا أحلى من الجنة، الطبعة الثانية، دار النهار – بيروت 2002 (سيرة أصولي مصري).

الشق الثاني مما رصده الزيات هذا الخلاف الطويل بين الجماعات وبين بعضهم، وبينهم وبين جماعة الإخوان المسلمين، وهو خلاف يُلبس لبوس العقائد، وهو في أفضل أحواله، جهوي مناطقي، أو شخصي أو تفسيري في أحسن أحواله. و لم يلتفت البعض إلى الإجابة عن السؤال: إذا كان التوجه واحداً فلماذا الشقاق؟

أما الشق الثالث فهو مصادر التثقيف، وهي كما يشير إليها الزيات لا تخرج عن الشوكاني (فقه الجهاد في سبيل الإسلام) أو سيد قطب (معالم في الطريق) إلى (الفريضة الغائبة) لمحمد عبد السلام فرج[1]، هذه الكتب في أكثرها إقناعاً اجتهادات رجال لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وكتبوا ما كتبوا في ظروف معروفة وتحت فهمهم لهذه الظروف، كما فعل غيرهم. أما عند الحديث عن جمع المال من أجل إقامة مسجد، فيحدثنا الزيات "ان كل الناس كانت تتبرع طوعاً أو كُرهاً" لا يفسر التعبير الأخيرة، إلا أنها لا تحتاج إلى تفسير! مخالفاً قاعدة أخلاقية إسلامية يتعلمها الطلاب، أن الوسيلة جزء من الغاية، أما ما يلفت في قول الزيات أنه أخيراً أدرك الفرق بين "الخطابة والعلم" وبين "الوعظ والإفتاء" وهي مفردات لها أهميتها في تتبع الطرق العلمية، لكن المؤسف أنها تختلط اليوم على كثيرين من مفتي التلفزة. لو كان لكتاب الزيات (الجماعات الإسلامية) اسم آخر لما تردد أحد عن إطلاق عنوان "الحصاد المر" عليه. المحصلة أن تجربة الجماعات الإسلامية في مصر، كما هي تجربة أخرى في السودان كما هي تجربة البعث في العراق، جميعها تكمل دورة "حصاد مر" هلك فيه الملايين من العرب المسلمين وغيرهم، تيتّم أطفال، وترملت نساء، وتراجع اقتصاد، وتخلّف مجتمع. إنها طاقة استنزفت في مكانها الخطأ، طغى عليها الجهل

---

(1) الكتاب الذي يقال أنه السبب في قتل الرئيس محمد أنور السادات.

الـــسياسي والمعرفي. لقد فشلت التجربة (القومية) في إبعاد بلادها عن الآخــــر، لأنهـــا أبعدت الآخر الوطني عن نفسها، وفشلت التجربة التي اتخذت الدين وعاءً لها لأنها أخرجت الآخرين من الدين، فلم يُبنَ وطن حـــر ومواطـــنون سعداء. هنا يأتي فصل القول، لا أحد لديه عقل من أهلنا في هذا المنطقة، يسره ما هو قائم من أوضاع سياسية أو اقتصادية، فالظاهر أن لنا دولاً معولمة شكلاً، ومواطنين متروكين للمحلية المغرقة. الطريق إلى الأفضل معبّد بالعلم، والحرص على الحريات، والتواضع في امـــتلاك الحقـــيقة الاجتماعية والسياسية، والحقيقة النسبية يصل إليها العقلاء من خلال التوافق الذي تقرره صناديق الانتخاب، وهو أمر تنبّه إلـــيه الإخوة في السودان اليوم، مع بقايا من القديم، وتنبهت إليه بعض الجماعـــات في مـــصر، بقي أن يتنبه آخرون اشتد بهم الغي وضل بهم الطريق.

(41)

أحب نانسي واكره كوندي

في هجائـــية معـــتادة وبهذا التلخيص المخل، "أحب نانسي أكره كـــوندي"[1]، فسر عدد من متخذي القرار في بلادنا العربية وكثير من المعلقـــين توصـــيف السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، بعد زيارة السيدة نانسي بيلوسي (رئيسة مجلس النواب الأمريكي)[2] إلى المنطقة، وهـــي مفاضـــلة بـــين امرأتين أميركيتين، حدث أن لهما تأثيرا ما في السياسية الأميركية اليوم، وهي مفاضلة عاطفية إلى ابعد الحدود.

تقـــف أمـــام هذا التحليل عقبتان، الأولى أن لا نانسي بيلوسي تـــستطيع أن تؤثـــر تأثيراً نهائياً في القرار السياسي الأميركي، ولا حتى

---

(1) نانـــسي بيلوسي (26 مارس 1940 –)، رئيسة مجلس النواب في الكونغرس الأمريكـــي وهـــي أول امـــرأه تتولى هذا المنصب، هي أمريكية من اصول ايطالـــية.. تعتبـــر الشخصية الثالثة في الولايات المتحدة بعد الرئيس ونائب الرئيس.

ولـــدت فـــي بالتـــيمور لعائلـــة كبيرة إيطالية – أمريكية تنتمي إلى الكنيسة الكاثوليكـــية. انتخبت رئيسة لمجلس النواب بأغلبية 223 صوتا وهي غالبية أصوات أعضاء مجلس النواب المؤلف من 435 عضو. هي واحدة من بين 126 عـــضو ديموقراطـــي في مجلس النواب صوتوا ضد استخدام القوة في العـــراق فـــي عـــام 2002، بالرغم من أنها عادت وصوتت لصالح تمويل الحـــرب بعـــد أن بدأت العمليات ودخلت القوات الأمريكية إلى العراق. اما كوند ليسا رايس فهي مستشارة الامن القومي في عهد بوش الابن في الدورة الاولي له، ثم وزيرة خارجيته في الدورة الثانية.

(2) زارت إسرائيل وسوريا في عام 2007.

كوندوليسا رايس، رغم كونها وزير الخارجية الأميركية. ومن يريد أن يتأكد من هذا الموضوع فليقرأ مذكرات وزيرة خارجية سابقة أخرى هي مادلين اولبريت، التي فسرت بكثير من التفاصيل طريقة ومسار اتخاذ القرار الأميركي في الشؤون الهامة، خاصة من منظور الخارجية الأميركية، أو فليعد إلى تجربة الوزير السابق كولن باول[1] أما العقبة الثانية فهي ان الاحتباس السياسي في الشرق الأوسط من حيث التعقيد والصعوبة ما لا تنفع فيه زيارة لرئيسة مجلس النواب الأميركي، مهما كانت النيات صافية أو المعارضة للخطط الأميركية القائمة منتشرة بين المشرعين الأميركان.

تذكر بعضنا مع جولة نانسي بيلوسي، مع الاعتراف بالفروقات الجوهرية، سيدة أميركية أخرى كانت بالمصادفة سفيرة واشنطن في بغداد في نهاية التسعينات. وقتها فسرت الأوساط العراقية لغة السفيرة كلاسبي الديبلوماسية على أنها ضوء اخضر للنظام العراقي لاحتلال الكويت، وما زالت هذه النظرية، مع الأسف، تعيش حية في ذهنية عشاق نظرية المؤامرة العرب إلى اليوم. ويبدو أن مثل هذه النظرية سوف تنتعش بعد زيارة نانسي بلوسي ولكن باتجاه آخر، وهو قعود أميركا عن التزاماتها الدولية، بل يذهب البعض إلى تفسير الزيارة على أنها ضعف أميركي واضح ورجاء للمساعدة. نانسي بيلوسي في جولتها، عدا أنها تبدو ساذجة في التصورات التي أعلنتها، قامت بزيارة استطلاعية على أفضل وجه، وإلا فكيف تعتقد السيدة بأن حملها رسالة من رئيس الوزراء الإسرائيلي لدمشق، من أجل الدخول في مباحثات سلام، هو في الحقيقة اقامة رأس جسر للتوجه إلى السلام، في قضية

---

(1) تحكم الولايات المتحدة سلسلة من المؤسسات المختلفة، وبالتالي ليس هناك قراراً "فردياً" كما يتصور العقل العربي البسيط مقارنة بما يراه حوله؟

معقدة وذات تاريخ طويل من الصراع؟ وكيف تعتقد من جهة أخرى أن سـحب القـوات الأميركـية من كل من العراق وربما أفغانستان سيعجل في وضع هذه المنطقة الملتهبة في مرحلة سلام وأمان؟ ألا يذكرنا كل ذلك بالفشل الذي منيت به الإدارة الديمقراطية أيام الرئيس جيمي كارتـر عـندما زار طهران وشرب نخب "واحة الاستقرار في الشرق الأوسـط"، ولم يمر على زيارته غير بضعة أشهر حتى انهار ذلك النظام عـن بكـرة أبـيه، وتحولت الواحة إلى صحراء؟ جولة السيدة نانسي بيلوسي على أفضل تقدير هي للتعرف على المنطقة بشكل أفضل، بدلاً من النظر إليها من خلال الاختلاف الحزبـي بعيداً هناك في واشنطن. والجولة تحسب للديمقراطية الأميركية لا عليها، إلا أن الذهاب بعيداً في المراهنة على تغيّر جذري لمجمل السياسة الأميركية، هو مراهنة في اقلها تفكير في الينبغيات أكثر مما لها علاقة بواقع الحال.

في الشأن الأكثر سخونة وهو الموضوع الإيراني لا يبدو في الأفق أي تغيّر عن مسار المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران مهما حسنت الـنوايا. ومـا الـتوافق البريطاني الإيراني الأخير حول إطلاق الجنود الـبريطانيين إلا مرحلة التقاط الأنفاس لا أكثر، بدليل التصريحات التي نشرت على لسان الجنود أنفسهم بعد تحريرهم. ومن يقرأ فيها أكثر من ذلـك، أي وفاقا بريطانيا إيرانياً، فإنما يدخل العاطفة في مسار المصالح الطويلة الأمد، وذلك فعل سياسي غير منطقي.

في الموضـوع الإسـرائيلي الفلسطيني، رغم إعادة طرح المبادرة العـربية في القمة العربية عام (2002)، إلا أن المكابرة الإسرائيلية التي تلتها لا تتيح مجالاً معقولاً للتحرك نحو السلام. فالمسار هنا أيضاً طويل ومعقد، لا تستطيع زيارة أو أكثر فتح شق ولو صغير في جدار التعنت التاريخي لأطراف المسألة الفلسطينية. الملف اللبناني أكثر تعقيداً ومسيرة

الحكومة والمحكمة كما تشير إليها أدبيات لبنان السياسي اليوم بالغة الصعوبة وتنذر بخطر قد يأخذ لبنان ومعه بعض المنطقة إلى حرب أهلية طويلة. فليس في الأفق أي توافق يؤدي إلى تفاؤل. لقد كانت سورية واضحة أكثر من مرة علناً وبين كواليس القمة العربية الأخيرة، من أنها لن تسلّم أي من مواطنيها لمحكمة دولية، وهو قول منطقي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن اتهام أي مواطن سوري أو أكثر ممن كان مسؤولا في وقت ما في لبنان، هو في الحقيقة اتهام للنظام، وأية إدانة لاحقة ستقود في وقت آخر إلى إدانة النظام نفسه.

في العراق خطوة انسحاب سريع أو حتى تقليل الالتزام الأميركي هناك سيؤدي فورا إلى حرب أهلية ضروس، إذ لن تبقى هذه الحرب في حدود العراق، بل ستتعداه إلى مناطق مجاورة. فأي حديث عن "انسحاب" تقول به أو تعد به نانسي، هو قول يصب في خلاف مصلحة السلم العالمي، لا مصالح الولايات المتحدة فحسب. معضلة السياسية الأميركية في الشرق الأوسط أنها غير قابلة للتعامل مع توقعات المدى البعيد، وهناك شواهد كثيرة على ذلك في تاريخنا المعاصر. ولعلي استشهد بثلاثة. الأول، الموقف من إيران في بداية الخمسينيات من القرن الماضي. وقتها تدخلت الولايات المتحدة لمساعدة بريطانيا بإحداث انقلاب ضد رئيس الوزراء الشرعي محمد مصدق، وقامت بإعادة الشاه بعد هروبه من البلاد كي يبقى ملكا على إيران مطلق الصلاحية. كل هذا أدى في نهاية المطاف إلى ما نعرفه من ثورة إيرانية بقيادة رجال الدين. الموقف الثاني في أفغانستان حيث جندت الولايات المتحدة مجاميع قبلية تحت غطاء الدين لمحاربة القوات السوفياتية، كما شجعت وتحت ذلك الغطاء قوى من بلاد عربية مختلفة للانخراط في تلك الحرب. وهذه القوى هي التي بعد ذلك بسنوات قليلة عادت

فانقضت على المصالح الأميركية ودخل العالم ما يعرف اليوم بالحرب على الإرهاب، وهي حرب طويلة ومكلفة، ولا تزال في بدايتها. أما الموقف الثالث فهو القائم على تجاهل مطلق لمصالح شعب يعاني من الاحتلال، وهو الشعب الفلسطيني. هذا التجاهل سبّب لقيادات فلسطينية متعددة الدخول القسري في حربين، حرب الاحتلال، وحرب الاعتراف الأميركي بشرعيتها، وقد استنفذت الحرب الثانية طاقات كبرى، ولا زالت تفعل.

أمام هذا التاريخ المعقّد لتأثير سياسات تتخذ في الولايات المتحدة تجاه قضايا سياسية ساخنة في الشرق الأوسط، ربما بسبب الجهل أو بسبب التأثير الداخلي في اللعبة السياسية الأميركية، النتيجة واحدة وهي الكثير من العناء والكثير من الدم وإهدار الفرص في هذه المنطقة المنكوبة. كل هذا لا يحتاج من جديد إلى اجتهادات غير محسوبة إلا على الناخب الأميركي، كي تدخل المنطقة من جديد في أتون متاهة سياسية تسببها هذه القوة العظمى التي لا ترى ما تدوسه تحت أقدامها في وسط صراع الفيلة الداخلي في واشنطن. الأيام القادمة حاسمة.

(42)

مواجهة التطرف ثقافية...
لا سياسية ولا أمنية

اعتداء بالسلاح على جنود اميركيين في جزيرة فيلكا (الكويت) اثناء قيامهم بواجباتهم التدريبية وقتل احدهم، ثم احتجاز مجموعة مشكوك في انتمائها للفاعلين قيد التحقيق، وبعدها احتجاز شاب صغير كان ينوي تفجير مبنى سكني كبير يقطن فيه اجانب من بينهم عسكريون اميركيون[1]، وتنقل وكالات الانباء ان وراء اعتداء جزيرة بالي المروع في اندونيسيا والذي راح ضحيته المئات من الابرياء كويتي أيضاً، وقبل ذلك كان الناطق الرسمي باسم تنظيم "القاعدة" الذي روع العالم حتى الآن هو كويتي[2]، ثم يظهر التحريض العلني على مهاجمة الاميركيين على موقع رسمي للإنترنت؟ السؤال الآن هل كل هذا يحدث في جزر معزولة بعيدة عن الترابط بالاحداث التي ليس لها علاقة ببعضها، أم أنها تشكّل ظاهرة سياسية، علينا ان نسبر غورها ونعرف أسبابها؟ هي في يقيني على علاقة بتثقيف طويل المدى أخذ من الوقت حقه ومن الموارد ما يحتاجه، ويتوجب تاليا ان يواجهه تثقيف مخالف، قبل ان يحتاج إلى لجان تحقيق أو سجون أو معتقلات.

---

(1) كل ذلك حدث في الكويت قبيل الحرب الأمريكية على على العراق عام 2003.

(2) سليمان ابوغيث في مرحلة من المراحل كان يدعى بالناطق الرسمي للقاعدة، ثم اختفى الاسم بعد ذلك.

من الثابت ان هذه الأعمال الارهابية ضد رغبة الغالبية في الكويت، فإن كان الموضوع موضوع ديموقراطية فإن الغالبية في المجتمع الديموقراطي هـي الـتي تقرر ما يصلح أو يرغب فيه المجتمع، وقد قررت من خلال مؤسساتها ان الجنود الاميركيين موجودون برغبتها وموافقتها لتحقيق مصلحة عامة. وان كانت المصالح العليا هي المرجعية فإن المصالح العليا للكويت، التي خرجت من براثن غزو كامل وكاسح لأول مرة في تاريخها، لو استمر لأصبح الجميع بلا وطن، وكان السبب في التحرير والوسيلة إليه القدرة العالمية ممثلة في الولايات المتحدة، مع أصدقاء عرب انتبهوا في الوقت المناسب ان الطوفان يمكن أن يصيبهم. هذه المصالح حتمت وجود قوات اميركية تساعد في حماية الكويت من أي محاولة غدر جديدة. فأي المرجعيات يريد لنا هؤلاء ان نتبنى؟ استطيع ان افهم ان يكون للبعض اعتراضات سياسية، وان يكون لديهم منغّصات ادارية ومعيشية، أو ان يكون لديهم اعتراضات ثقافية، ولكن الشرط المسبق لطرحها للنقاش ان يتحدثوا عنها من خلال اجندة سياسية، واضحة ومفهومة، اما هذه الأجندة التي يعملون من خلالها فأقل ما يقال عنها أنها أجندة مرتبطة بحبل سري مع القرون الوسطى، ضبابية في طرحها وعمومية في تناولها لمصالح الناس. ان كان الأمر هو اعتراض سياسي فعلى الاطراف ان تقدم برنامجها السياسي، وان تحتكم للجمهور العام، اما ما اعترض عليه بشدة فهو ان تختطف العقيدة الإسلامية وتحتكر لتنصّب هذه الفئة القليلة من الناس نفسها مفسّرة وحيدة لها، وهو ما يعترض عليه كل عاقل. فالإسلام ليس لفئة مسلمة دون أخرى، كما أنه لا يدعو إلى الترويع والقتل العشوائي، كما لا يدعو لتعريض الأوطان بمجمل قاطنيها للتهلكة. المسكوت عنه في الجدل الدائر الآن هو عدم التصدي لمثل هذه الأعمال بقطع صلاتها نهائياً بالعقيدة السمحة، وبرفض

مطلق ان يحتكر البعض تمثيل الإسلام. ونتيجة لتثقيف سلبي مضطرب بدأت، ويا للاسف، بعض الأصوات في الصحافة وفي التلفزيون على امتداد الساحة العربية تنتقي بعض التصريحات الصادرة من موتورين أو من جماعات مقاطعة للعلم الحديث في تطور المجتمعات، والسياق العالمي في التطور العلمي والتقني، لتقول للعامة إن هناك "حرباً ضد الإسلام". وهذا قول يريد به هؤلاء حشد العامة خلف طروحات المتطرفين، فما نشاهده هو في حقيقته حرب مصالح، لا حرب أديان، فمن مصلحة الشعب العراقي مثلاً ان يتحرر من جلاديه، ويشارك في هذه الرغبة مسلمون عراقيون من كل الطوائف، فالحرب على العراق مثلاً ليست حرباً ضد "المسلمين" ولا "الإسلام" بقدر ما هي حرب ضد التسلط والديكتاتورية والاحتكار السياسي الظلامي، ويباركها كل ذي بصيرة من أجل الانعتاق من الظلامية، وسيطرة فئة صغيرة على السلطة والثروة ومصير الشعوب في زمن يلفظ هذا النوع من الاحتكار الذي تتحكم فيه فئة تفتقد الرؤية والحكمة. لقد تُرك حيز ضيق للمهمات الثقافية التي يتوجب ان تتصدى لهذا الفكر الذي يضيق على الناس، وسقط من الحساب ان تعديل التوازن بين الفكر الشمولي والانفتاح والتسامح وفهم الآخر، هو مدخل ثقافي، وخلت الساحة ممن يدعو إلى استنباط اشكال جديدة من النضال السياسي للخروج من المأزق الذي نواجهه في الكويت، كما تواجهه مجتمعات عربية كثيرة لأن لجوء البعض للعنف العشوائي، هو ظاهرة يجب أن تدرس من مدخلها الثقافي اولاً، ثم السياسي، وآخر مداخلها هو الأمني. أحد اسباب هذه الحيرة حيال العنف المنظم هو ان القادة السياسيين تحدثوا بلغتين وبخطابين متناقضين فحولوا الحيرة إلى ارتباك، وامتنعت مؤسسات التعليم لدينا عن القيام بمهماتها، فقد فُرّغ التعليم من محتواه تفريغاً كاملاً، واصبح الايمان

بالخـــرافة واعـــادة انـــتاج العلاقات الاجتماعية المتخلفة اساس التعليم، وسُـــكت عن تنمية التفكير العقلاني، وساهم الإعلام ووسائله المختلفة بإطعام العامة الكثير من الآمال، ممزوجة بالكثير من المسلمات حتى اصبح ابناؤنا ضحية لمن يخطف عقولهم اولاً.

فمـــا نحـــن بـــصدده الآن هو ظاهرة، وليس افعالاً معزولة، ونحتاج للتـــصدي إلـــيها إلى مجهود ثقافي في الدرجة الأولى، يبدأ بتحرير الشرائح الاجتماعـــية الكبيرة من قيم العصور الوسطى التي ما زال بعضنا يجترها في عالم يتغير بسرعة، ومجتمعات تضربها رياح التغيير بقسوة. ان إغفال الجدلية بين الديموقراطية المبتغاة في مجتمعاتنا والثقافة يعوّق اقامة التوازن المنشود بين القوى المختلفة داخل المجتمع، ويتيح لسيطرة فكر قروسطي ضبابـــي الرؤية ليس له علاقة بما يدور في العالم. ويوسّع هذا الفكر الذي ينصب علينا من كل جانب، شقة الخلاف والاختلاف في المجتمع، ويحقق بيئة صالحة تنمو فـــيها الأفكـــار المتطرفة، التي تقود بالضرورة إلى العنف. استنهاض الهمم للتحـــرك الـــسياسي هـــي المهمة الأولى للتجمعات السياسية العصرية في الكـــويت، والقوى الديموقراطية مدعوة للتوجه للجمهور ومخاطبته بوضوح لا يحتمل التزلف والمحاباة، مفاداه ان التخلص من القهر والاستلاب لا يعني الوقوع في الخرافة والتجهيل. إن الاحتضان الذي يظهره الجمهور العربـــي العـــام للتطرف هو احتضان للتنفيس عن القهر والاستلاب والمصادرة التي يـــواجهها، وهـــو في صلبه سياسي واقتصادي وتنظيمي، يستغله الآخرون أبـــشع اســـتغلال، فيضفون عليه، نتيجة التجهيل، صبغة عقيدية ويطلقون خلايـــاه للعبث بأمن المجتمعات من أجل تهميش المطالب الديموقراطية التي تنادي بها قطاعات واسعة من العرب تطالب ايضاً بالشفافية والمساواة. اما في حالة الكويت، فالإخلال بالمسلمات الدستورية وهو أمر ان استمر دون ان تطلق أجراس الإنذار سيعود بالفوضى والخراب.

(43)
للموت حرمة وللحياة شروط

صـــور عدي وقصي صدام حسين وهما مسجيان مشوهان نتيجة المعركة التي أودت بحياتهما في الموصل، تصدرت جميع نشرات الأخبار في العـــالم (يوم 23 يوليو 2003)، وتدفقت التحليلات في الفضائيات العـــربية وغيرهـــا مـــن وسائل الاتصال والنشر تشرح أسرار حياتهما الصاخبة والعنيفة والقصيرة والمتهتكة. وتعيد التذكير بما فعله الأخوان، إبان حكم أبيهما في العراق، من عبث بأرواح الناس وأموالهم. إذ بلغا في تعسفهما وفجورهما حد الخرافة.

لقد ارتحت و لم أفرح لمشاهدة تلك الصور، إذ للموت حرمة لدى الإنـــسان الـــسوي، إلا أن الارتـــياح جاء بسبب يقيني بأن ما قام به الأخـــوان من تنكيل بالشعب العراقي بكل فئاته الاجتماعية وشرائحه، والـــذي كـــان غـــريبا عن العقل بسبب فظاعته، وكفره بكل القيم الإنسانية، لم يعد ممكنا الآن. ولكني لم افرح لأن السؤال الأهـم هو ليس مـــا فعله الأخوان وغيرهما أثناء فترة تسلطهما على العراقيين، بسبب ما هـــيأه لهما النظام العراقي بكل كوادره وأفكاره التي بثها، بأن يقوما بما قاما به. إنما السؤال الأهـم هو كيف يمكن لنا باعتبارنا عرباً أن نمنع مثل هـــذه الأعمـــال الوحشية حتى لا تتكرر من جديد من (قصي وعدي آخرين) ربما يتشكلان اليوم في بيئة عربية أخرى، أو حتى في العراق... ذلك هو الهاجس الذي يقض مضجعي.

إن أردنا أن نعرف كيف لا يتكرر ذلك، علينا أن نعرف كيف أمكن حدوث ذلك في بلد مثل العراق، وهي بلاد ليست ريفية بالمعنى الاقتصادي، فيصبح المواطنون فيها أقنانا، ولا هي بلاد تنتشر فيها النخاسة فيصبح المواطنون فيها عبيدا يرضون بما يقرره السيد. بل هي بلد له تاريخ طويل من الحضارة، كما له تاريخ من الممارسة السياسية الطويلة نسبيا منذ الثلث الأول من القرن العشرين حتى منتصفه على الأقل. وتضم العراق متعلمين وكتابا ومفكرين وسياسيين فطنوا الحياة ومارسوها بكل أشكالها الحديثة. بل هي بلاد في تاريخها الحديث خصبت بيئتها عقول ذات سوية عالية من الإبداع، فقد أبدعت العراق المدرسة الحديثة في الشعر العربي وقدمت شعراء وكتّاباً مثل جميل صدقي الزهاوي والرصافي والجواهري والبياتي وعبدالعزيز الدوري وعلي الوردي وجواد علي وغيرهم من سلسلة الأعلام والمثقفين والشعراء والمفكرين الذين أغنوا المكتبة العربية الحديثة بنتاج عقولهم النيرة.

كيف حدث ما حدث، وكيف له ألا يتكرر؟

ما حدث من طغيان في العراق سببه عدد من العناصر نرصد منها ثلاثة أساسية، تداخلت مع بعضها كل بمعياره، ودرجة تأثيره، لتنتج في النهاية هذا الشكل من الطغيان القبيح الذي سنقرأ عنه ونسمع قصص أفعاله التي تقارب الخيال، لفترة طويلة من الزمن، وتصبح معه فترة حكم الجبابرة في التاريخ، شكلا بدائيا مقارنة بما قام به من أفعال.

العنصر الأول الذي يجب أن ينصرف النظر إليه هو التكوين الفكري: فالبعثية نابعة من توليفة من الفكر الفاشي والنازي الذي تغذى عليه نفر من العرب، رضع من منابع الفكر الأوروبي اليميني،

أطلـــق في الفــضاء العربـــي بُعيد الحرب العالمية الثانية بشكل مهجن، يحمـــل الإعـــلاء والاصطفاء العرقي، وينظر إلى "الأمة" على أنها فوق الأمـــم، وان تاريخهـــا الطويل يمكن أن يتكرر من خلال عصبة مؤمنة تُسلم قيادة الأمة إلى مجموعة صغيرة من الناس هم البعثيون. انهم ادرى بمــصالحها، ولا يهـــم شكل ونوع التضحيات من البشر التي تقدم من أجل "الوصول" إلى تحقيق ذلك "الحلم".

مـــثل هـــذه الفكرة الضبابية العامة هي التي استولت على عقول الـــشباب في الخمسينيات والستينات من القرن الماضي في بلدان عربية كثيرة، في الفترة التي بدأت معها بلدانهم تتحول من الشكل القديم "شبه الإقطاعـــي" إلى شـــكل "مدني" لم يتحدد شكله بعد، ومن "استعمار غربـــي" إلى "استغلال نسبـــي" اجتذب عدداً من الأفئدة الشابة على مقاعد الدراسة تهوى هذا الطرح، وأخذت الفكرة على عاتقها الادعاء بهـــدم البناء القديم، على أساس أنه تشكل تحت الاستعمار، لبناء جديد مخالف.

ولمـــا اســـتولى حزب البعث العراقي على السلطة وظهرت الممارسة اليومية أكثر رداءة من السابق، وجد كثير من "المناضلين" انفسهم تدريجيا، إما مهمشين أو ضحايا أو مبعدين، وتطور الأمر إلى أن تحول "الحزب" إلى "شـــخص" والدولـــة إلى "إقطاعية" لعائلة القائد والمقربين منه. فر من فر، ووُســـد الثـــرى من وُسد من "الرفاق" وهاجر الباقون في الآفاق بعد أن ســـاهموا بـــشكل كبير أو محدود في الوضع الذي وصلت إليه بلاد ما بين النهـــرين، من عبادة الفرد الأوحد، الذي لا راد لرأيه، ولم يكن ذلك إلا تجسيدا للفكرة العنصرية التي ضربت على وتر الغرائز والعصبيات.

لقد فرخت الفكرة مع الممارسة نتيجتها الطبيعية، فهي التي نظرت بدونـــية إلى الآخـــر "الخارجي" ثم تحولت النظرة الدونية إلى الداخلي،

لـذلك لم يكن مستغربا أن يتناول الخطاب البعثي العراقي في مفرداته على مر السنين، مفاهيم مثل المجوس والعلوج والأجلاف، بجانب الخونة والجواسيس. كلها مفردات تعظم من النفس وتزجر الآخر بوضعه في خانة أقل عرقية أو وطنية أو سياسية، ولم يتعلم أحد الدرس القاسي الذي عانى منه أعداء النازية والفاشية أو أعداء حكم الطغيان في التاريخ، وهو أن "السكوت عن الصراخ في الوقت الذي يذبح فيه الآخر، صمت مطبق عندما يأتي وقت ذبحك!". وهكذا تضخمت أجهزة القمع وصفقت لبعضها بعضاً ثم تناحرت على الغنائم.

العنصر الثاني هو النفط: ربما لو كان العنصر الأول وحيدا من دون النفط لم تستطع "العائلة/العشيرة" أن تبحر في خضم السياسة العراقية المضطربة، ولكن الفكر طُعم بالنفط وأمواله في بلاد لم تخلق متعمدة أجهزة رقابية على الموازنات الباهظة، لأن خلق الرقابة على المال يسبقه تنظيم للدولة الحديثة، ولم يكن الفكر البعثي على استعداد لخلق تلك الدولة، لأنها لا تنسجم مع فكرة الاستحواذ الكامل على السلطة والمال معا، فتحول "الثوري" لهذا السبب إلى"والٍ" من ولاة العصر الوسيط، يعطي ويمنع، بيده المال والسيف معا. فغرفت السلطة العراقية ذلك المال الوفير من أجل إسكات المعارضين، وحشد الأنصار.

كتب عدي مقالا في صحيفة "بابل" - (كتبه أو كُتب له لا فرق) - قبل أشهر قليلة من قتله، موقع باسمه المستعار المعروف "أبو حاتم" - والتسمية هنا لها رمزية أيضاً تعود بنا إلى "حاتم الطائي" مفاخرا كيف استخدم المال لإنقاذ الأردن فقال: "بعد نهاية الحرب العراقية" - الإيرانية حين كان هنالك مسعى إلى إثارة الاضطرابات فيه (الأردن) وكيف أن الرئيس صدام حسين ارتدى ملابسه العسكرية، وأخذ أعضاء قيادته العامة للقوات المسلحة بكل قيافتهم الميدانية،

وكيف انهم هبطوا جميعاً بالطائرة وبـــ (جرة قلم) حوّل الرئيس صدام حـــسين إليهم 250 مليون دولار لدعم موازنتهم في حينها، وبعيدا عن مظاهر القوة والمال، فما إن فهم الأشقاء والأهل في الأردن مبدأ صدام حـــسين واتجاهه إلى دعم حال النظام الذي كان موجودا هناك تلافيا للفتـــنة - فهذا معناه أن في ذلك خدمة للأمة ولمصلحتها - استكانت كل مظاهر الثورة والتمرد تلك التي كانت تدعمها جهات عربية نتيجة خلافات شخصية مع الملك حسين - رحمه الله - خلال مدة لا تتجاوز الساعتين أو الثلاث ساعات... وهي المحصورة بين الساعة التي وصلت فيها الطائرة العراقية والساعة التي غادرت فيها.

إذا تجاوزنـــا ركاكة النص، فإنه مثقل بالمعاني بشأن أهمية المال في جمهـــورية الـــبعث العراقية. وتعزز هذا التوجه مجموعة من السياسات العـــراقية المـــستمرة الـــتي تـــؤمن بأن "المال" يمكن أن يشتري الناس والأوطـــان. وقد استخدم المال النفطي أولاً لشراء الضمائر ولإسكات ضـــمائر أخـــرى في الداخل والخارج، ثم أخيراً لشراء دول، عن طريق المـــنح والمـــنع في الـــتجارة الخاصة مع العراق من النفط إلى البضائع الاســـتهلاكية. ومن يفتش عن استخدام المال يرى أن عقلية عشائرية بالغة التخلف كانت خلف تلك الممارسة، إلى درجة أن كتابات واسعة ظهرت في العراق، وخصوصا في صحيفة "بابل"، تشير إلى إمكان شراء الأميركـــان "بالمـــال أو النفط"، اعطوهم جزءا من المقاولات النفطية يغيّروا من سياساتهم.!

موضوع المال غير المراقب في مثل ظروف العراق يغري بالاستزادة منه، والاستزادة منه تفتح أبوابا من الطمع لا سبيل إلى إغلاقها، وتخلف مـــن الخـــصال الأسوأ. وهكذا صار الصراع محتدما بين امبراطوريات "عـــدي" و"قصي"، وقبلهم حسين كامل ووطبان وبرزان وغيرهم من

الاقــربين. كما صارت معسكرات الاعتقال وسجن المخابرات ملجأ لكــل مــنافس أو مقاوم لهذه الامبراطوريات من التجار والمتسببين. ثم أصــبح الجهاز الوظيفي في معظمه مرتشياً ناهباً بما فيه قطاع واسع من الجهاز العسكري والمدني، وبما أن الفكرة هي أن "المال كل شيء، فلا يجب أن يبقى منه شيء للآخرين"، انطلق سباق جهنمي في بلاد ما بين النهرين من أجل ذلك.

أما العنصر الثالث فهو الإعلام، وفيه قول كثير لعل أهمه ما صرح به رئيس التحرير السابق لصحيفة "الشرق الأوسط" عثمان العمير، وتم تداول ما قاله على نطاق واسع - ومازال - عما يدفعه الرئيس من مال إلى الصحافيين. وقد سمعت ممن عمل فترة في الأجواء الإعلامية القريبة من الرئيس السابق، وهو أيضاً شخصية معروفة ومعارضة، أن هناك ما يــسمى "ثمن مصافحة الرئيس" وله معيار من المال محدد. لقد استخدم الإعلام المضلل من أجل تسويق سلعة فاسدة، وعلى أوسع نطاق. وهو إعلام انتشرت أدواته ومساحة التغطية لديه في السنوات التي حكم فيها الــبعث العراقي إلى حد كبير حتى بات يقرر ما يفكر فيه العامة. وربما نتــيجة لهذا التضليل مازالت عقول عربية تعتقد بـــ "معجزات" حققها النظام العراقي، وهي في الحقيقة لا تعدو أن تكون مقابر جماعية تقشعر لها الأبدان، من جراء أفعال القتلة الساديين.

إذا، "الفكر والمال والإعلام" شياطين ثلاثة، يمكن لمن يحصل عليها في عالمــنا العربـــي أن يكرر ما تم في العراق، والدرس ألا نجعلها تحت طائلــة شخص أو فئة، فإن من شروط الحياة أن تكون للمجتمع سلطة رقابية حقيقية عليها. فهل وصلت الرسالة بعد أن دفنت الجثث؟.

(44)

من فضلكم لا تفرحوا بغزة..
فالقادم أسوأ

تعـــب أصدقاء الفلسطينيين من عرب وغيرهم، من أصداء النصح للامتـــناع عمـــا يقـــوم به بعضهم من عبث في قضية العصر، القضية الفلـــسطينية، لقد جرى نهر من الحبر، كما يجري نهر من الدم في هذا الـــصدد، والعقل غائب، والحكمة مؤجلة، فلا أسوأ من يد تقبض على بندقية من دون فكر يرشدها. آخر أخبار غزة، بعد أن شهدت سحب المـــستوطنين[1]، أن قُتل موسى عرفات عنوة في بيته، كما شهدت غزة انفجـــاراً اخـــتلف في تقديـــر أسبابه، والقادم من صراع فلسطيني – فلـــسطيني يخـــيف العاقل، ويقلق الحكيم، والفلسطينيون جميعاً يغرقون أكثر وأكثر في مستنقع ردات الفعل، وينحسر مع الأسف عن قضيتهم غطـــاء التعاطف والتفهم الدولي، في خضم الحرب على الارهاب حتى هذا الاحتفال الفلسطيني وبعض العربـــي بسبب الانسحاب الإسرائيلي غـــير مبرر، فبعد ثمانية وثلاثين عاما من الاحتلال يبدو هذا الانسحاب

---

(1) ففي 22 أغسطس/اب 2005 تمت عملية الاخلاء لـــ 21 مستوطنة أقيمت في غـــزة بعـــد حرب يونيو/حزيران1967، اسمتها حكومة اريل شارون وقتها بخطة "فك الارتباط" وقدمتها على أنها تمهيد لعملية اخلاء أكبر لمستوطنات الـــضفة الغـــربية بغية التوصل إلى تسوية سلمية وفق الشروط التي حددتها إسرائيل.

الذى جرى فى "أغسطس 2005" لصالح إسرائيل أكثر بكثير منه لصالح الفلسطينيين، فلم تعد بعض الأراضي الفلسطينية المحتلة ذات قيمة اقتصادية أو استراتيجية لإسرائيل، ربما ستجعل من حركة الفلسطينيين في داخل غزة نفسها حركة ممكنة نسبيا، ولكنها ستعجل من الاستنفار بين القوى الفلسطينية المتصارعة للحصول على بعض المكتسبات الصغيرة للقوى في الشريط الضيق، ولكن الانسحاب الإسرائيلي سوف يحوّل غزة إلى سجن كبير، يتصارع فيه المختلفون، غزة ستكون معزولة عن العالم الخارجي، كما كانت دائماً وأكثر. في الستينات زرت غزة مع وفد طلابي، كانت وقتها تحت الادارة المصرية، وكانت حال اخوتنا هناك في مرحلة آدمية متدنية، إلى درجة أن بعضنا لم يستطع أن يمنع دمعة حارقة سالت على الخدود ونحن نزور احدى مدارس القطاع، جميعاً نعرف أن لا حول لهؤلاء ولا قوة، فقد أُجلوا بقوة السلاح والتهديد من أرضهم في الداخل إلى أرض معزولة وأصبحوا لاجئين في بلادهم. حقيقة الأمر أن غزة هي نتاج مباشر لحطام الفلسطينيين بعد عام 1948، معظم سكانها من أصول أولئك الناس الذين طردوا من ديارهم في الداخل، ومن المفارقات أن معظم سكان المستعمرات الإسرائيلية في غزة الذين تركوها اخيرا، سوف يستوطنون من جديد ذلك الساحل الممتد إلى جنوب مدينة يافا، التي جاء منها معظم سكان غزة أصلاً، ولا توجد اليوم قرية فلسطينية قائمة في ذلك الساحل الطويل، كلها دمرت، كما دمرت آلاف القرى، وظهرت مكانها أسماء جديدة، ونمط جديد من الحياة. سوف تعوض الحكومة الإسرائيلية كل مستوطن (شرعي) في مستوطنات غزة السابقة بثلاثمائة وخمسين ألف دولار (ثمن منزل مستقل متوسط الحجم في ضواحي واشنطن) وخمسمئة دولار تعويضا عن ايجار شهري لمكانه المختار، لمدة

ســنتين! في الوقت الذي لم يفكر أحد في أي تعويض للفلسطينيين، في أي وقــت ومــن أي مكــان هُجروا إليه، وخصوصا أولئك المليون فلــسطيني الــذين أصــابتهم نكــبة 1948. حتى المناطق التي تركها الإسرائيليون في غزة سوف يتسلمها الفلسطينيون قاعا صفصفا، لا بناء فيها ولا شجر، المستوطن الإسرائيلي في غزة كان يحصل على كمية من المــياه تعــادل خمــس مرات ما يحصل عليه الفلسطيني في غزة، وعلى مــساحة أرض تبلغ سبعمائة مرة على ما يتوافر للفلسطيني في قطاعه، ذلــك أبشع ما يمكن أن يحدث لشعب. الاتفاق السلمي الذي يسمى "اتفــاق أوسلو" حرم الفلسطينيين من جملة من الحقوق، منها اتصالهم ببعــضهم، فقــد تم تقــسيم غــزة إلى أربع مقاطعات تتخللها طرق إســرائيلية، مرصعة بمراكز مراقبة وتفتيش، تفتح في أوقات غير منتظمة يقررها الإسرائيليون كيف ومتى شاءوا.

صــحافي بــريطاني يــصف عذاب الانتقال للمواطن الفلسطيني كالتالي: "ان أراد طفل فلسطيني الذهاب إلى المدرسة من مدينة غزة إلى رفح القريبة، فعليه أن يبدأ المشي إلى المدرسة عند الساعة الثالثة صباحا، حــتى يصل إلى مدرسته في موعد الدرس الأول، ومن ثم عليه أن يبدأ العــودة إلى بيــته الساعة الرابعة بعد الظهر، عله يصل بيته في منتصف اللــيل". وهــل نحــن بحاجة لهذا الوصف وشاشات التلفزيون العربية والأجنبــية تنقل لنا بصور حية هذا العذاب اليومي، سيارات الاسعاف كــثيرا ما تُوقَف عند نقاط التفتيش لساعات، منذ عام الفين فقط نحو ثمــانين فلسطينيا فقدوا حياتهم بسبب هذا التوقف القسري، وكانوا في حاجة للعلاج، وحسب تقارير الأمم المتحدة لاحصاءات السكان، فإن ستة وخمسين مولودا فلسطينيا ولدوا في نقاط التفتيش الإسرائيلية، بين أواخــر عــام 2000 وصيف 2003، نصفهم تقريباً ولدوا موتى، كما

توفيت تسعة عشرة امرأة على شفا الوضع في هذه النقاط، بسبب نقص وتأخر الاسعاف، وذلك لشكوك إسرائيلية غير مبررة.

ليس من المؤمل أن يحدث الانسحاب الإسرائيلي من غزة أو شمال الضفة الغربية أي تحسن في وضع الفلسطينيين، فتقارير البنك الدولي التي نـــشرت في أكثر من دراسة تقول ان الوضع الاقتصادي يزداد تدهورا، فـــبين عام 2000 إلى عام 2005 تناقص الدخل الفلسطيني للفرد بنحو الـــثلث، وان نحـــو نصف الفلسطينيين يعيشون تحت خط الفقر (فقط دولاران في اليوم) وفي غزة الوضع أسوأ من ذلك، فتوقع قرب حدوث كارثـــة اقتـــصادية، لم يعد بالمقدور تفاديها، هو ما تؤكد عليه تقارير المؤسسات الدولية. قبل اتفاقات اوسلو كان يمكن للفلسطيني أن يتنقل بـــين الضفة الغربية وغزة، ويعمل بعضهم في إسرائيل، كانت إسرائيل تـــشغل هـــذه اليد العاملة الرخيصة، وتستفيد من سوق الأرض المحتلة لتصريف منتجاتها، اليوم فقط عدد قليل من الفلسطينيين يسمح لهم أن يعملـــوا في الداخل الإسرائيلي، حتى أصبح العاطلون عن العمل تصل أعـــدادهم في بعض النسب إلى ثلاثين في المئة من القوة العاملة، ما يعني اســـتقطاب أكـــبر للقوى السياسية في صفوف هؤلاء العاطلين وزيادة الاحـــباط في نفوسهم. معركة الفلسطينيين في هذه المرحلة هي معركة سياسية، تتلخص في فتح المعابر لانتشال الاقتصاد من الهوة المنتظرة، وفي الوصول إلى تفاهم لحقن الدم الفلسطيني بين القوى المتصارعة، والقول ان الانـــسحاب مـــن غزة هو "بداية النهاية للاحتلال" أو "هو انتصار للبندقـــية" هو قول في حده الأدنى مضلل وفي سقفه سياسي، فالانسحاب مـــن غـــزة يُمكّن إسرائيل من تنفيذ "خطة آلون الموضوعة عام 1967 والقائلـــة" باغتـــصاب أرض خـــصبة ومناطق مياه من الضفة الغربية، وارجـــاع الباقـــي إما للأردن وقتها، أو"لحكم فلسطيني محلي"، تلك

الفلسفة لها من يبررها اليوم عن طريق ارغام الفلسطينيين اما للاقتتال بين بعضهم أو النزوح "الطوعي". هذه الفلسفة تحتاج إلى أن يعمل الفلسطينيون عقلهم كي يضحدوها، لا أن يفتحوا نيران بنادقهم على بعضهم للبحث عن منتصر وخاسر، ان حدث هذا، فإن القضية سوف تستمر في النفق المظلم الطويل.

(45)

في وداع رجل تاريخي

من أحداث هذا الزمان، يأتيك حادثة انتقال الشيخ المرحوم زايد بن سلطان آل نهيان فى (2 نوفمبر 2004) إلى جوار ربه، راضيا مرضيا فتهتز له الأفئدة. إلا أن ما خلفه من عمل صالح هو الذي جعل من قادة دول وزعماء على امتداد الكون العربـي والإسلامي، ينعونه كما تنعاه شعوبهم، بصدق وحميمية، فقد اتفق الجميع على أن وفاته خسارة، لا يختلف حولها اثنان، ممن عرفوا جهاده وفضله وبعد نظره السياسي، ولكنها سنة الحياة، والمؤمن يقول، "إنا لله وانا إليه راجعون".

الشيخ زايد بن سلطان رجل تاريخي بكل ما تعني الكلمة من معنى حقيقي أو رمزي على المستوى المحلي، والعربـي والدولي. في المستوى المحلـي، هو رجل بناء، لقد بنى دولة حديثة لم تكن قائمة. فلأكثر من ثلاثين سنة بقليل، عندما تولى المرحوم الشيخ زايد دفة قيادة جزء عزيز من بلاد العرب، لم تكن الإمارات العربية المتحدة، كما هي الآن، ذلك أمر متوقع فسنة الحياة والتطور تفرض التغيير، ولكن التغيير الذي تم في الإمـارات بقيادة الشيخ زايد هو تغيير لم يكن يتوقعه أحد في مستواه ونوعه، أو حتى لم يتصور مداه أحد، لولا وعي وتصميم القائد، ويمكن إيجـازه من خلال ثلاث مدخلات، سرعته، وطريقه تنفيذه، وأهدافه. وإذا كـان ثمة أحد، ينحصر فيه، وضع التصور لإرادة التغيير، ومتابعة التنفيذ دون كلـل، وتفقّد الأهداف وتعديل المسار عندما يحتاج إلى

تعديل، فذلك هو الشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رحمه الله. في ذلك الوقت، أي قبل نيف وثلاثين عاما، كانت الظروف مختلفة والمشهد السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي في المنطقة ككل، وفي الإمارات على وجه التحديد مشهد معقّد، بل بالغ التعقيد، فثمة تغيّرات كانت تحصل على كل الأصعدة، خاصة السياسية في الدول المجاورة وكان بعض هذا التغيير عنيفا وحادا. لقد كان يُعتقد أن هناك ثمة تماثل بين (إمارات الخليج العربي) (وبين إمارات وسلطنات الجنوب العربي) من حيث التركيب السياسي، والعلاقة مع بريطانيا، كما أن ثمة دولا لها مطامع غير محدودة في الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة على المنطقة، وبسبب هذا التماثل، وتلك الأطماع، كان يعتقد أن تنسحب على ذلك الوليد السياسي (دولة الإمارات العربية المتحدة) التي ظهرت إلى النور في بداية السبعينيات من القرن الماضي، ذلك الظل الثقيل والشتات المتنافر الذي أصاب غيرها.

ذلك لم يحدث، كانت الإمارات في كيانها الجديد، تفتقد تقريباً إلى كل شيء من العناية الصحية، إلى المدارس الحديثة، إلى الجيش المنظم والحديث، إلى وسائل الاتصال والطرق، إلا أنها لم تكن تفتقد عزيمة الرجال لبناء دولة حديثة في هذا الجو الملبّد بالغيوم السياسية الكثيفة تسلّم الشيخ زايد بن سلطان سدة المسؤولية في أبو ظبي، ثم كرئيس لدولة الإمارات العربية المتحدة[1]، التي كان كثيرون يراهنون على تفرق الدروب بين حكامها ونخبها، لتسهيل مهمة التشرذم أو الصراع، وتمكين الأطماع من نشب أظفارها. منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، ظلت دولة الإمارات في سلام ونمو لم يعرفه تاريخ المنطقة في أماكن

(1) تتكون دولة الامارات اليوم من سبع امارات هي ابوظبي، دبي، الشارقة، أم القوين، عجمان، راس الخيمة والفجيرة.

أخـــرى، وكان هذا السلام، ومن ثم الأمن قد مكّن للبناء الاقتصادي والاجتماعي، بقيادة رجل لم يتسنّ له الكثير من ممارسة السياسة بمعناها الــسلبــي والقدحـــي، من المناورة، إلي التسويف، إلى القول في العلن خلافا لما يمارس في السر، ولكن تسنت له الفراسة والوعي بأهمية تلازم الــتقدم في الإمـــارات بخطى صحيحة وجدية نحو التغيير، وان يتلازم العمـــل العربــــي مع الصراحة والوضوح وبهذا يُثمّن دور الأفراد في الــتاريخ، فبعــضهم يدخلــه من بوابة كبيرة، هي الإصلاح والتنمية والــتقدم، فيحقق ما يؤمن به ويتعلق به شعبه، وبعضهم يدخله ليخرج منه دون أن يترك إلا الدمار لشعبه. لا يعرف النقلة النوعية التي تمت في دولـــة الإمـــارات الا من عرفها قبل أربعة أو ثلاثة عقود فيقارن بين الأمس البطيء والراكد والمنقسم، واليوم الزاهر والمتحفز والموحد، وبعد كل هذا التغيير الكبير الذي حدث، تستطيع أن تطوف بكل الإمارات في بـــضع ســـاعات قليلة على طرق مهيأة ومريحة، تضاهي مثيلاتها في العـــالم المـــتقدم، بعد أن كانت بالأمس القريب تحتاج إلى أيام في سفر شـــاق. لم يكـــن الإنجـــاز الذي تفخر به الشعوب هو إنجاز في البنية الأساسية، فذلك مقدور عليه أن توفرت السيولة النقدية، ولكن الإنجاز الحقيقـــي هـــو في تدريب البشر، وهو الذي قدر للإمارات في الثلاثين عاما الماضية أن تقوم بتحقيقه، وتستثمر فيه الاستثمار الحقيقي. العنصر البشري هو العمود الفقري لأي تطور مجتمعي إلى الأفضل، ولقد طاف أبـــناء الإمـــارات بالعديد من المدن والدول، من أجل أن يحصلوا على العلـــم، قبل أن تهيئ سبله في بلادهم، وتفتح الجامعات ومراكز التعليم العـــام والخاص، التي يؤمها اليوم مئات الطلاب من الداخل والخارج، يـــرفدوا مجتمعهم كل عام وبتزايد عددي ونوعي، بعنصر بشري قادر ومـــتعلم وفعال، وكان زايد بن سلطان خلف هذه النهضة الإنسانية.

فالدولـــة الـــتي تحـــتاج إلى جـــيش يحميها وشرطة حديثة تعنى بأمنها الداخلي، وموظفون لإدارة أعمالها، فاعتمدت على هذا السيل المتدفق مـــن أبـــنائها الذين يتخرجون سنويا من منابع العلم الكثيرة والحديثة. فأصـــبحت الدولة اليوم مصدر الكثير من المبادرات الريادية الملحوظة، لـــيس نـــسبة إلى جيرانها فقط، ولكن إلى كثير من دول العالم خارج نطاقها الجغرافي، هذه المبادرات تمتد من الاعتماد على التقنية والحكومة الالكتـــرونية، إلى تجارب الزراعة الحرشية والحديثة، ومن تهيأ له زيارة جزيـــرة بـــني ياس، من أجل المثال لا التعميم، والتعرف على الجهود المـــبذولة فيها، كتجارب يمكن أن تعمم في دولة الإمارات وخارجها، يمكـــن له أن يتأكد من مستوى هذا الجهد، ودرجته العالية من الإتقان والمثابـــرة وعلـــى الصعيد العربـــي أخذت الإمارات في عهد زايد بن ســـلطان على عاتقها أن تقوم بجهد عربـــي بالغ الدقة، فقد أعلن على أرضها قيام مجلس التعاون إقليميا، إلا إنها أيضاً احتضنت جهداً معروفاً ومحمـــوداً في المجال السياسي وفي المجال التنموي العربـــي، فقد قدمت الإمـــارات بـــرعاية من الشيخ زايد المساعدات الاقتصادية، سواء من خـــلال المؤســـسات الـــرسمية، أو شبه الرسمية، أو من خلال الأفراد والمؤسسات الخاصة لأجل المساهمة في التنمية العربية على أوسع نطاق، مـــنها ما هو ظاهر ومعروف، ومنها ما هو باطن يعرفه الخاصة، ولكنه يـــصب في العمل التنموي العربـــي دون منة. كما قدمت دعما لكل القضايا العربية، على رأسها وقضيتهم الكبرى فلسطين، فقد كان لها في قلب الراحل الكبير مكانا مميزا وصادق النية والعزم، رغم ما مر بها من صعوبات، فقد رعاها تبني المؤمن والواثق بالعدل.

وعلى الصعيد الدولي شقت دولة الإمارات طريقا يتسم بالصداقة والمـــسؤولية في علاقـــتها الدولـــية، فبنى الراحل الكبير علاقات دولية

متوازنة، نأى بمجتمعه فيها عن الصراعات، وتعاون مع الجميع بما يحقق الـــنمو لبلده، أصبحت الإمارات أيضاً ملاذا لكل عربـــي مله مضجعه في بلده، بسبب سياسي. في الوقت الذي يتطلع أبناء الإمارات، ومعهم إخوالهم العرب، إلى أن تخطو الإمارات على خطوات مؤسسها وبانيها، لـــيحدوهم الأمل في جيل جديد يتسلم المسؤولية الكبيرة، محافظا على تراث ثري للراحل الكبير، طيب الله ثراه، وهو أمر سوف يرقبه الجميع في عـــصر مليء بالمتغيرات المتسارعة. رحم الله الفقيد الشيخ زايد بن سلطان، فقد فاضت أعماله الجليلة لأهله ووطنه الكبير، وعزاؤنا لأهلنا في الإمارات.

(46)
التفكير السليم والتفكير الأعوج

واحـــد مـــن أهم الكتب التي نشرها المجلس الوطني للثقافة في الكويت في سنوات سابقة، كتاب اقترحه المفكر الدكتور فؤاد زكريا رحمه الله[1]، يتحدث الكتاب عن التفكير السليم والتفكير الأعوج في حياة الشعوب، أهم ما جاء في الكتاب أن التفكير الأعوج قد يتبدى للـــبعض في وقـــت ما أنه سليم ومنطقي، يضرب الكتاب أمثلة على الـــتفكير الـــسياسي الأعـــوج الذي بدا سليما للكافة في وقته، كان الـــتفكير الفاشي والنازي، الذي تبنته الكثير من الشعوب مباشرة أو مـــداورة وذلك في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، ومـــن أهـــم أشكال التفكير الأعوج، التفكير المؤقت الحماسي ذي الرؤية القصيرة، والذي يبدو أن كثيرا من العرب قد ابتلوا به - حتى اليوم -.

يـــبدو أن الـــتفكير السليم والأعوج مازال ظاهرا بيننا في الثقافة العـــربية، فقط للتذكير، هل يذكر بعضنا الحملة الضخمة التي حدثت بعـــد نـــشر رســـوم كاريكاتـــورية في إحدى صحف بلاد الشمال الأوروبـــــي، حـــول رســـولنا الكريم، وقتها قامت الدنيا وخرجت

---

(1) وكـــان مستـــشارا للسلسلة، هذا الكتاب نشره مؤلفه الاصلي في عام 1932 بالانجليـــزية، وترجم من خلال سلسلة المعرفة الكويتية عام 1976 والمترجم المرحوم سعيد الكرمي. وأصبح له صدى لدى قراء العربية.

المظاهرات وتلاسن الجميع على صفحات الصحف وفي الإعلام المرئي، وفجأة انخفضت حرارة الحملة وتلاشت، وكأنها لم تكن.

حملة أخرى ضخمة اندلعت قبل ذلك حول حرق المسجد الأقصى، وقامت مظاهرات وتبارت دول كثيرة لإعادة بنائه، بل وشُكّلت لذلك لجنة على مستوى القمة العربية، هي لجنة المسجد الأقصى، ثم انتهى الأمر دون نتيجة.. وهل يتذكر أحد نصرة الانتفاضة الفلسطينية، التي شُكلت لها لجان وجمعت لها تبرعات ثم ماتت الفكرة فجأة كما قامت. هل يسمع أحد عن تلك اللجنة اليوم!!

ويستطيع المراقب أن يذكر الكثير من الأحداث التي مرت خلال ربع القرن الأخير علينا نحن العرب. إنه الفرق بين التفكير طويل المدى ذي الأهداف الواضحة والتفكير العاطفي الفوري!!

من آخرها طبعا أحداث لبنان، وقد فوجئ كثيرون بتصريحات السيد حسن نصر الله الأخيرة التي قال فيها ما معناه، أنه لو قدر أن تكون ردة فعل إسرائيل كما حدثت بالفعل لما قام بما قام به[1].

لن ادخل في تفسير النيات أو اصطياد الكلمات، فالموضوع أكبر وأكثر أهمية من التفسير أو الاصطياد أو حتى من طرح سؤال من كان على حق أو من كان على باطل؟، أو خدعته المظاهر. إلا أن البدء بالقول أنه قول شجاع يصدر من رجل لا يتعاطى السياسة بمعناها السلبي، بل بمعناها الايجابي. ولكن الحروب الحديثة لا تفرق بين الجبهة وبين العمق، تلك بديهية يعرفها من خاض حروب التحرير من الجزائر إلى فيتنام.

(1) تمت التصريحات بعد أسابيع من وقف القتال بعد أغسطس 2006.

إلا أن القضية ليست هنا، القضية في طُرق التفكير أو حتى أكون دقـيقا أكثـر، فقد كتب أحد الكتاب في جريدة القدس اللندنية مقالا مطولا (يدغدغ المشاعر بالطبع، ولا يقدم تفكيرا سليما) كتب ما نصه (إن حـرب إسـرائيل علـى لبنان.. لحرمان سوريا وإيران من ذراع عـسكرية قوية..) استعنت بفكر الكاتب لأنه من المتحمسين الكبار، للتدلـيل علـى أن بعـض التفكير الأعوج بين ظهرانينا ما زال قائما ومـروجا لـه. فالقول إن حزب الله هو ذراع عسكرية قوية لسوريا وإيران يصب في غير صالح الثلاثة، لا حزب الله، ولا سوريا ولا إيران.

إلا أن الإشكالية لا تتوقف هنا، فإن المقاومة التي أبداها حزب الله لا أحد ينكر أنها مقاومة بطولية، إلا أن الحرب، أية حرب لها ذراعان، الحرب والسياسة. كون حزب الله حزباً وليس دولة فهو لا يستطيع أن يستفيد سياسياً من كل هذه الممانعة.

فالحـرب ضئيلة الفرص وهدفها دائماً سياسي، كون حزب الله حـزبا في دولـة ضعيفة هي لبنان، فهو حزب ليس له ذراع سياسية مقـبول دولياً، ولا تستطيع الدولة اللبنانية أيضاً أن تستفيد من هكذا حرب، للأسباب المعروفة المحيطة بالدولة اللبنانية.

أيـضا لا سوريا ولا إيران استطاعت أن تستفيد سياسياً من هذه الحـرب، حـتى الـساعة على الأقل. لأسباب خاصة بتركيبة التفكير السياسي الحالي، في كل من دمشق وطهران. فلا جبهة الجولان تحركت سياسيا، ولا الملف النووي الإيراني وجد له متنفسا دوليا، لقد بدا الملف في آخر شهر أغسطس 2006 كما كان في الحادي عشر من يوليو، قبل اختطاف الجنديين الإسرائيليين! مكانك راوح.

الحـرب الـضخمة الـتي استخدمت فيها إسرائيل كل قدرتها العـسكرية وخـربت لبنان وأرجعته إلى ربع قرن مضى على الأقل،

وأزهقت أرواح أكثر من ألف لبناني بعضهم نساء وأطفال، بدأت وكأنها (حرب عبثية) في التحليل العقلاني النهائي في موازين الخسارة والربح.

هذا لا يعني أن إسرائيل لا تقوم بأفدح الأعمال غير الإنسانية ضد الفلسطينيين، وهذا لا يعني أن الظلم الفادح الذي يقع عليهم كل مطلع شمس ومغربها غير مستهجن، وهذا لا يعني تجاهل آلاف المعتقلين الفلسطينيين، كل هذا قائم حتى الأسلحة التي استخدمت في الحرب الأخيرة على لبنان هي أسلحة بعضها محرم دوليا للاستخدام ضد المدنيين، هذا شيء والاستفادة السياسية شيء آخر.

إذن هناك كفتان، كفة العدوان وكفة المقاومة للعدوان، مذابتان في فضاء عالمي يحارب الإرهاب ويدعو إلى الديمقراطية.

كفة المقاومة للعدوان هي إنشاء دولة فلسطينية قابلة للعيش في أراضي الضفة والقطاع، وانسحاب إسرائيلي من الجولان السورية (بعد أن تم تطبيع العلاقات المصرية، الأردنية، الإسرائيلية).

إذا كانت هاتان الكفتان هما المعادلة المعروضة أمام التفكير السليم في إطار فضائهما الذي وصفناه، فإنها تحتاج إلى تفكير سليم مقابل لها يتوخى الاستفادة السياسية القصوى من القوة النسبية لتغليب المقاومة بمعناها الشامل على العدوان بمعناه الشامل.

أين الدور اللبناني؟ التفكير السليم يرى أن الدور اللبناني هو في القيام بتقديم البديل، وهو الإصرار على قيام لبنان تعددي، يفشل النظرية الإسرائيلية، في التفرد (اليهودي) البحت وقصر الدولة العبرية على ديانة واحدة!! فهناك في لبنان طوائف عرقية ومذهبية ودينية مختلفة، كما أن قيام لبنان ديمقراطي، يعني الابتعاد عن الدعوى الإرهابية، فجميع الملفات المختلف عليها وطنياً، تحل من خلال مؤسسات منتخبة.

هــذا هو الدور اللبناني المراد بجناحيه. الأمر إذن أن يفكر حزب الله بتقديم نتائج الحرب إلى مشروع الدولة اللبنانية للقيام بذلك الدور، تحــت مظلــة الغطــاء العربــي الفاعل، من أجل أن تجري الاستفادة القــصوى من هذه الممانعة في المجال الدولي على أرض الثلاثة والثلاثين يــوما من المقاومة والتضحيات الجسام.، بدلاً من إرهاق لبنان بحرب تحــت شــعار حرب (الإرهاب) المذموم دوليا، وبعثرة الممانعة اللبنانية ســدى!! غــير هذا الطريق سيدخلنا جميعاً في طريق التفكير الأعوج، العاطفــي، الــذي يقــود في النهاية إلى تقديم أوراق كثيرة لإسرائيل، ويحــرمنا جميعاً من التفكير السليم، وتصبح تضحيات الثلاثة والثلاثين يوما مثل صيحة الكاريكاتير، أو تعضيد الانتفاضة، أو غيرها ممن مر بنا جميعها صيحة في واد خرب.. هي فقط هبة مُضريه، لا تترك إلا الغبار في الجو، والمرارة في الحلوق وهي بالتأكيد تفكير أعوج؟

(47)

إلى خالد مشعل[1]

قبل أسبوعين وفي هذا المكان نشر كاتب هذه السطور مقالا يتصف بالأسى على واقع لا يحتاج كثيراً إلى تأكيد، وكان عنوان المقال "الاستقلال العربي المفقود"، طُفت فيه بأوضاع العرب في أكثر من مكان وعاصمة، التي بدا لي أن كثيرا منها يتصف بصفة متقاربة، وهي فقدان القرار العربي في القضايا المصيرية لهذه العاصمة أو تلك. من بين الإشارات التي اتخذتها للتدليل جاء ذكر "رجل حماس في دمشق"، وكان المقصود بالتأكيد السيد خالد مشعل بعد أقل من أربع وعشرين ساعة وصلتني مكالمة هاتفية من دمشق ومن الأخ خالد مشعل، وزبدة الحديث الذي اتصف بالكثير من التحضر، ما قاله خالد مشعل من أن "حماس" وقيادتها "مستقلة كل الاستقلال ولا تخضع إلا للمصالح العليا التي تراها لصالح الشعب الفلسطيني". استأذنت السيد خالد في مشاركة القراء بهذا التصريح وهو كلام يفرح كثيرين من أمثالي الذين لا يهمهم كثيراً ما إذا كان الفلسطيني يضع ربطة العنق أو أنه يظهر من دونها، وما اذا كان يعتمر كوفية سوداء أو حمراء، ما هو أهم هو أن تحقن دماء الفلسطينيين بعد أن عانوا الأمّرين من أصدقائهم وأعدائهم على

---

(1) هذا المقال له علاقة مباشرة بمقال "الاستغلال العربي المفقود" الذي ذكر سابقاً في هذا الكتاب. ونشر المقال الحالي في 18 يوليو 2007 في جريدة الحياة اللندنية.

السواء على مدى ثلاثة أرباع قرن أو تزيد، مما لم يعان منه شعب تعرض للاضطهاد إلى هذا الحد وإلى ذلك الوضع الإنساني المهين. من هذا المنطلق فإني على استعداد على رؤوس الأشهاد أن اصدق السيد خالد من دون تحفظ. ورأيي على كل حال كما رأي غيري ليس مهماً كثيراً ولا يقدم إلى الجائع الفلسطيني ولا الأرملة ولا الأم الثكلى أية سلوى. الأكثر أهمية من كل ذلك هو لمّ شتات الفلسطينيين، سواء كانوا حليقي اللحية أو مطلقيها من أجل أن تحقن دماؤهم من جهة ويستمروا في حشد الدعم الدولي لقضيتهم من جهة أخرى. ليس مطلوباً ولا يمكن أن يكون الفلسطينيون ملائكة ولكن الأهم من ذلك أن يحافظوا على جذوة باقية لدى العرب بأهمية نصرة قضيتهم، ولن ينتصر لهم أحد إذا لم ينتصروا لأنفسهم، سواء كان هذا الأحد قريباً أو حليفاً، وذلك عن طريق تحكيم العقل لا العاطفة. قضية الفلسطيني أكثر من معقدة وأكثر من صراع على سلطة، وحتى أعمق من حرب أهلية، فقد احترب اللبنانيون لفترة طويلة أكثر من مرة، إلا أن لبنان بقي على حاله، كما احترب السودانيون وبقي السودان في نهاية المطاف، واحترب أبناء شمال ايرلندا حتى العظم، وبقيت شمال ايرلندا كما هي، بل إن العراقيين يحتربون اليوم في ما بينهم، ولكن العراق سوف يبقى. فلسطين مختلفة عن كل ذلك، فكلما احترب الفلسطينيون بين بعضهم بعضاً خسر الجميع أرضاً، وخسر الجميع تعاطفاً، وخسر الجميع تأييداً، ثم يجري قضم الأرض التي لا يستطيع أهلها أن يكونوا سلطة في ما بينهم. هذا ما بحت به أصوات كثير من الكتاب العرب وأصدقائهم، وكاتب هذه السطور منهم، فالخسارة أعظم بكثير حتى من الأرواح المزهقة. فلسطين لن تخلصها "حماس" من وهدتها ولن تخلصها المنظمة، فلسطين تحتاج إلى عاملين، الأول وحدة الفلسطينيين والثاني حكمتهم.

وعندما يتحدث البعض عن وحدة الفلسطينيين يجب أن لا يذهب التفكير إلى وضع ساذج وعفا عليه الزمن، بأن يكون الجميع واحداً، لا بالتأكيد، فهذا أمر غير ممكن ولا حتى إنساني، المعنى المراد أن يكون هناك ناظم للتعددية الفلسطينية، وهو ما تفتقت عنه فكرة منظمة التحرير الفلسطينية التي تتفاعل في داخلها كل الفصائل. وليس ممكناً أيضاً أن يبقى شعب من دون أشخاص (فاسدين) بالمعنى العام للكلمة، وهم قد يكونون في أي طرف، لا عصمة هنا لأحد أو فصيل. إلا أن هناك آليات يجب وضعها واحترامها على كل الأصعدة لبيان الفاسد. لقد تفشت في النطاق الفلسطيني في السنوات الأخيرة مجموعة من المظاهر أوصلت أطرافاً فلسطينية إلى أن تُكوّن عصابات مسلحة، تقتل بالشبهة، وتوزع العقوبات على من تريد من دون وازع من ضمير أو سند أخلاقي ولا مرجعية قانونية متعارف عليها.

إذا لم يكن أحد يعرف فقد عرف من تقارير عالمية أن الفاقة ضربت عشرات الآلاف من الأسر الفلسطينية في غزة. لقد حطم الاحتلال والفقر حياة الآلاف المؤلفة من الفلسطينيين في كل مكان، سواء في غزة أو في الضفة أو في المخيمات خارج فلسطين. ومن منا لا ينفطر قلبه على لوعة شيخ أو عجوز فلسطينية في نهر البارد ربما يهجر أو تهجر من مسكنها البالغ الرثاثة للمرة العاشرة. وكم منا يعلم أن الفطور الذي تناوله السيد إسماعيل هنية مع صحافي هيئة الاذاعة البريطانية الذي كان محتجزاً، بعد اطلاقه، والذي شاهده كثيرون على شاشات التلفزيون، لا يتوفر لآلاف الأطفال في مدن فلسطين. والجميع يعلم أن معظم الطعام وكل الطاقة تأتي من إسرائيل إلى مناطق فلسطينية مختلفة. الشطارة كما يبدو هي في تبادل الاتهامات والشتائم ثم المقاطعة والتصفية، ثم الانحدار نحو جهنم، وهي هنا فقدان الأمل لآلاف مؤلفة

مـــن شـــعب غاضـــب وفاقد للصراط، وهو أسوأ ما يمكن أن يحصل لـــشعب. إذا قدر لهذه الكلمات أن تصل للسيد خالد مشعل أو السيد محمود عباس، أو من يشير عليهم، فإن المخرج الحقيقي لمثل هذا المأزق غـــير المـــسبوق هـــو الاتفاق على وحدة ضمن التعدد، وأيضاً اللوذ بالحكمة، وأخال أن هذه أساسية، فإن فقدت فلا خير في الوحدة. ماذا اعني بالحكمة؟ لعل بعض العناوين تكفي. فالقضية الفلسطينية هي قضية سياســـية وليست قضية دينية، كما أن القضية هي قضية عقل قبل أن تكون عاطفة. وبهذا المعنى الشامل فالعمل السياسي استطرداً هو إسقاط حجج الأعداء أمام العالم، ووضع الحجج المضادة. ليس بالعاطفة ولكن بالفعـــل لقد فازت "حماس" في شباط (فبراير) 2006 بأغلبية مريحة، إلا أنهـــا أفـــسدت مـــع الأسف هذا النصر، حيث جيّرته أولاً لنفسها لا للـــشعب الفلسطيني، وسلبت منه ثانياً المكوّن السياسي، الذي يتمحور حول توقع تكتيكات الأعداء وإفشالها قبل أن تتبلور. لقد تشتت اتخاذ القـــرار كمـــا يـــبدو بين الداخل والخارج، وتكالب المتحدثون على التلفـــزيون بتصريحات لا مرجعية لها، حتى فقدت المبادرة الديموقراطية زخمها.. لا يستطيع عاقل اليوم أن يسير وراء الحديث أن إسرائيل "تقدم تنازلات لحركة فتح أو المنظمة" نكاية بـــ "حماس"، كما لم يكن هناك عاقل يرى أن "حماس" قد انشئت في الزمن الغابر من قبل إسرائيل، فهي رهيـــنة لها. الأعداء - في أي صراع - يستفيدون من النواقص والنواقض، والـــبكاء على الماضي جهالة ما بعدها جهالة. لذا يا أخي الكريم خالد مـــشعل كتـــبت ما كتبت في السابق، وكتب غيري ملايين الكلمات وكلها تصب في المجرى نفسه. قضيتكم أهم بكثير من استرضاء المصالح المؤقـــتة للبعض، كما أنها أكبر بكثير من بندقية. إن أهم ما تملكونه هو العقل فاستخدموه، وقبله اقرأوا تاريخ شتاتكم ففيه العبرة!

(48)
العقل الصهيوني

امتــزجت الأســاطير بالخرافات والمعتقدات الخاطئة عندما تمثل العــرب شخصية العدو الإسرائيلي على أنها شكل أسطوري قادر على كــسب المعارك العسكرية والسياسية على حد سواء، وكسب الأرض فوق ذلك وبعده، أو على أنها شكل هش عاجز ذو شخصية مشوهة، كلا الفكرتين متسرعة وغير علمية.

ولم يخــرج تــصور الشخصية الصهيونية لدى معظم العرب عن الاتجــاهين السابقين. وعند قراءة الأدب العربــي السياسي أو الاجتماعي أو التاريخــي الحــديث الذي تناول ظاهرة الصهيونية نجده في الأغلب يتــناول قــوة إسرائيل بالتهويل أو التهوين. قليلة هي تلك الدراسات الجــادة والعلمية لفهم الصورة الحقيقية للعدو الصهيوني. وحتى لا تبدو مــساهمتنا هــنا محاولة للسير في تيار ذاك التهويل أو هذا التهوين لابد بــادئ ذي بدء من القول أن هناك شيئاً من التفسير واجباً علينا عندما نقرن "العقل" كما اتفق عليه في المفاهيم العلمية الحديثة - وهو عادة ما يكون شخصياً وفردياً - بجماعة عرقية أو سياسية أو ايديولوجية. فعقل الفــرد وتفكــير أي إنسان بمفرده يختلف تماماً عن تفكيره وسلوكه في جماعــة، فكيف يستقيم قولنا "العقل الصهيوني"؟ لابد أن نقول هنا أننا نــريد الحــديث عن العناصر العقلية المشتركة أو عن سمات مشتركة للشخصية الصهيونية، رغم ما يعتري ذلك من تحفظ علمي.

وكما هو معروف فإن الشخصية النمطية ليست حقيقية لها قانون علمـــي قائم بذاته، وانما هي اداة تحليل، تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقـــع بهدف إبراز العام والمشترك، حتى يتسنى ادراك السمات العامة بوضـــوح، ثم معـــرفة اثرها على الواقع. ومن هنا نتعرف على العناصر العامة والجوهرية والمشتركة لشخصية جماعة ما.

ولم تعد دراسة شخصية الجماعة محاولة متعسفة للجمع بين اضداد كمـــا تـــبدو لأول وهلـــة، وانمـــا اصبحت شكلا من أشكال الوعي الاجتماعي الذي يمثل نسقا متطورا للمعرفة. لذلك أصبحت دراسات الطابـــع القومـــي أو الشخصية القومية دراسات مفيدة في فهم الذات وفهم الآخرين، ولقد انجز كثير من الدراسات، ابان وبعد الحرب العالمية الثانـــية (1939 - 1944)، والـــتي اهتمت بدراسة الدور الذي يلعبه الـــسلوك ذا المنـــشأ القومي في الحرب وفي السلم، واستخدمت هذه الدراســـات لتكشف ردود الفعل المحتملة عند الشعوب على مؤثرات خارجـــية للأعـــداء والأصدقاء، كما أنها استخدمت بايجابية فعالة في الدعاية والدعاية المضادة.

والآن نعود إلى متابعة سؤالنا الأول وهو: هل هناك عقل صهيوني له خصائص مستمرة ومتميزة، عامة ومشتركة، تمكننا دراسته من التنبؤ بنشاطه في المستقبل..؟

مـــن التـــسرع القول بأن هناك عقلا جماعيا يتسم بالاتساق داخلياً وخارجيا للجماعة الصهيونية، كذلك من التسرع نفي وجود هذا "العقل" جملـــة وتفصيلا، فهناك من يريد تأكيد الفكرة لتضخيمها ووضعها في حجم أكبر منها، وهناك من يريد تجاهلها البتة، وكلا الاتجاهين يؤدي إلى نفس النتيجة، فإما إلى العجز والاستسلام أو إلى الجهل والتجاهل، في الوقت الذي يتسع فيه نفوذ الدولة الصهيونية على الأرض العربية.

الاشكاليات المعرفية الأربعة:

يلوح لي ان هناك اشكاليات معرفية اربعة – ان توخينا الايجاز – تقف حائلا بين فهم بعضنا للعدو فهما علميا، وهي ليست بعيدة عن سمة مزج الخرافات بالأساطير بتخيل واقع ما، وهي أيضاً نتاج طبيعي لميل الإنسان، بدرجة أو بأخرى، لتصنيف سلوك الآخرين وتبسيطه ووضعه في قوالب وأطر جاهزة يسهل فهمها، دون اعمال النظرة العلمية الثاقبة لتفسير عناصره. والاشكاليات المعرفية هي على التوالي:

الاشكالية الأولى:- هل الصهيونية قديمة أم حديثة؟ بمعنى هل الفكرة الصهيونية التي انتجت إسرائيل اليوم ووضعتها بين ظهرانينا هي فكرة قديمة قدم الدين اليهودي وقدم وجود اليهود على الأرض أم هي فكرة حديثة لها ملابساتها الموضوعية والتاريخية والاجتماعية.؟ يزعم الفكر الصهيوني أن الفكرة قديمة قدم اليهودية ذاتها، وأن محورها هو عودة شعب الله المختار إلى أرض الميعاد منذ ان خرج منه!، وتروج هذه الفكرة بهذه البساطة وتمرر على ملايين البشر اليوم، ويقبلونها أيضاً ببساطة، في الوقت الذي تشترط فيه التعاليم الدينية اليهودية من أجل تحوّل اليهود من أمة دينية إلى أمة قومية قدوم "الماشيح" الذي يعود بالمنفيين كما جاء في العهد القديم إلى أرض الميعاد. وبناء عليه أصبح من الواجب على اليهود – حسب هذا التفسير – انتظار عودة "الماشيح" في صبر وأناة، فمشيئة الله وحدها هي التي ستبعث به، وبالتالي يصبح من الكفر أن تحاول جماعة ما تحقيق الارادة الالهية بنفسها، ومن هنا تصبح عودة اليهود إلى فلسطين كما تحققت في نصف القرن الماضي، متناقضة جذرياً مع التصور الديني اليهودي، وبالتالي فإن الصهيونية تتناقض مع اليهودية الدينية. ومن المفارقات التاريخية أن فكرة عودة اليهود إلى "أرض الميعاد" تبناها المصلحون

المسيحيون مع ظهور حركة الاصلاح الديني في القرنين السادس والسابع عشر، لتحقيق النبوءة الانجيلية هذه المرة - حتى يتسنى الاسراع في هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية وبالتالي ترى هذه الفكرة أن هذه العودة مؤقتة لإصلاح اليهود وهدايتهم!، وما زالت هذه الأفكار عالقة لدى البعض وأفضل من عبّر عنها رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق جيمي كارتر، الذي كثيراً ما تحدث عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين بعبارات دينية سياسية. على الرغم من أن هناك دلائل تشير إلى استغلال الفكرة الدينية بوجهيها اليهودي والمسيحي كجسرلتحقيق الأهداف الصهيونية في فلسطين، رغم ما يعتريها من تضاد شديد كما بينت.

حقيقة الأمر ان محور ارتكاز الصهيونية كدعوة ايديولوجية - كما نعرفها اليوم - كان يقوم على الفكر القومي الذي انتشر في أوروبا ابان القرن التاسع عشر، مواكباً للمرحلة الثانية من الاستعمار المرتبط بالرأسمالية الصناعية المصرفية، ويذكر لنا المرحوم عبد الوهاب المسيري في كتابه القيم عن الايديولوجية الصهيونية ان هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة أجاب الملك أمانويل الثالث ملك ايطاليا، عندما سأله الأخير عما اذا كان لا يزال يتوقع عودة "الماشيح"، أجاب انهم (في الأوساط الدينية) لا يزالون يؤمنون بهذه الفكرة، اما في دوائرنا الأكا ديمية المستنيرة فليس لمثل هذه الفكرة وجود.

اليهودية والصهيونية

والشواهد على ارتباط الحركة الصهيونية - التي أسست فيما بعد إسرائيل وأمدتها بالاستيطان - والفكر القومي الغربي كثيرة، كما أن المؤسسات التي قامت في الدولة الإسرائيلية في فلسطين بعد ذلك تؤكد

دون جــدال هذا التوجه. ومن هنا يمكننا القول بثقة علمية أن الفكرة الصهيونية والايديولوجية التي تحكم إسرائيل هي فكرة حديثة نابعة من صـــميم تـــاريخ التطور الاقتصادي والاجتماعي الغربـــي. فالصهيونية حديثة حداثة الفكر القومي الأوروبـــي، لبست مسوح الدين اليهودي لتلائم بعض أطروحاته وليس العكس!.

وتقودنا النقطة الأولى إلى الإشكالية الثانية وهى تدور حول علاقة اليهود بالصهيونية.

فما علاقة اليهودية بالصهيونية..؟

نجـــد في كتاباتـــنا العربية أيضاً أن هناك اتجاهين لا ثالث لهما، الأول اعتـــبار كـــل الـــيهود صـــهاينة، والثاني اعتبار اليهود شيئاً والـــصهيونية شيئاً آخر، فأين الحقيقة..؟ يوجد اليوم في العالم حوالي أربعة عشر مليون يهودي، يعيش منهم في فلسطين المحتلة اربعة ملايين فقـــط[1]، والباقـــي في انحاء العالم. ويرى بعض الصهاينة على أرض فلسطين أن التجمع الإسرائيلي في فلسطين والتجمع اليهودي خارجها هما شيء واحد، وأن مجرد محاولة التفرقة بين الصهيونية وبين الشعب الإســـرائيلي (محاولـــة اجـــرامية للتضليل) أما صاحب فكرة القومية الـــصهيونية أو قومـــية الشتات فهو المؤرخ الروسي سيمون دوفنوف (الـــثلث الأخـــير من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين) الذي أوجد حلاً توفيقياً لتبرير هذه "القومية" عن طريق قوله بالنماذج الـــثلاثة للقومية، الأول النموذج القبلي واللصيق بالطبيعة والأرض، والثاني النموذج الاقليمي السياسي، وهو أقل ارتباطا بالأرض وأكثر

---

(1) بعـــد الهجـــرة الاخيـــرة يتوقع البعض ان يكون في إسرائيل اليوم 6 ملايين يهودي. أما مجموع السكان فهو (توقّع) تسعة ملايين ونصف.

ارتباطاً بالدولة الحديثة، أما النموذج الثالث فهو النموذج الروحي أي المستند على الوعي بالذات التاريخية، وهذه هي القومية الصهيونية وهذا النموذج لا ينطبق الاعليها..!

وهذا هو المنطلق النظري الذي استند عليه قانون العودة الإسرائيلي والقائل بأن أي يهودي في العالم يعود إلى فلسطين المحتلة يصبح مواطناً متى وطأت قدماه أرض فلسطين، ويستفيد الساسة الإسرائيليون لأسباب سياسية من هذا الطرح من أجل ممارسة الضغوط المختلفة على اليهود خارج إسرائيل، وتعتبر الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة - العمالية أو المحافظة - أن من واجب سفاراتها في العالم رعاية اليهود أينما كانوا وهو اعتبار خارق للقانون الدولي ومتعدي عليه، في الوقت الذي يجب أن يقدم هؤلاء في المقابل ضريبة مفروضة لاعانة إسرائيل بأشكال مختلفة، كما يعتبر هذا التوجه أن مجرد اقامة هؤلاء اليهود خارج إسرائيل في بلاد "الرخاء" - حسب التعبير الشائع في المؤتمرات الصهيونية - يجعل من هؤلاء محط احتقار دائم، الأمر الذي يجعلهم أكثر تعصباً لقضايا الدولة الإسرائيلية لتعويض النقص الذي يشعرون به، وردم الهوة بين صهيونيتهم وتواجدهم خارج أرض فلسطين.

هذا التعاضد المصلحي بين فكرة دفع كل اليهود في العالم للعيش في فلسطين، وبين الاستفادة منهم في مواقعهم اينما كانوا يجعل من فك الارتباط بين اليهودي والصهيوني عملية شبه مستحيلة، فاليهودي خارج إسرائيل يشعر ان جزءاً من قوته وامتيازاته يعود الفضل فيه إلى إسرائيل التي يحتمي بها ولو نظرياً عند اختلاف الظروف، وكذلك الصهيوني داخل إسرائيل يشعر بأن له علاقة بفئات واسعة من اليهود تستطيع أن تشد أزره من خلال فكرة القومية الروحية، فهناك

مجموعات الضغط الصهيونية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وتتمثل في الأخيرة تجمعات تؤثر على إصدار القرارات في أعلى المستويات في تلك البلاد، كما نجد لها أشكالاً أخرى في دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، وفي الأخيرة نجد أن لليهود مقاطعة هي "بيرويدجان" وتشكل جمهورية خاصة ذات حكم ذاتي لليهود، رغم حقيقة أن اليهود لا يشكلون أغلبية فيها.

الصهيونية المسيحية

ومن الملاحظ أن العديد من الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يقدمها كتاب غربيون عن إسرائيل يكتبها يهود، تتداخل لديهم العاطفة لتجسيم "التجربة الإسرائيلية" كانجاز إنساني عظيم، ومعظم هؤلاء ان لم يكن كلهم يحاولون إخفاء ولائهم بغلاف علمي، وهي ميكانيكية دفاعية بشرية لتعويض النقص وتقديم شيء للتجربة الصهيونية "من بعيد" حتى لوكان هذا الشيء غير واقعي أو علمي. واذا كان من نافلة القول أن الأيديولوجية الصهيونية تعتبر كل يهودي صهيونياً لأسباب شتى حتى يثبت العكس، فمن المهم أيضاً القول أن ليس بالضرورة اعتبار كل صهيوني يهوديا، فقد مررنا على ذكر "الصهيونية المسيحية" في إطارها الديني، الا أن هناك فئات كثيرة يشدها التعصب الصهيوني في المجتمعات الغربية وتشترك فيما يمكن أن يسمى "صهيونية الأغيار"- غير اليهود- وهم أولئك الذين تدفعهم أسباب شتى لتعضيد فكرة الدولة الصهيونية في فلسطين إما كحل للمشكلة اليهودية في أوروبا، أو كموقع قدم استعماري يمكن الاستفادة منه في الحاضر والمستقبل، أو هي جزء من التبرير النفسي لتعويض ما وقع على بعض اليهود من غبن في تاريخ أوروبا الحديث والوسيط.،

فقد كان الحرمان من الدخول إلى بعض البلاد أو الطرد منها أو الاجبار علـــى القـــيام بأنواع معينة من العمل، أو العيش في أماكن محددة من سمـــات التفرقة ضد اليهود في أوروبا العصور الوسطى، أما بعد عصور التنويـــر والديمقراطيات الحديثة فقد أدمج اليهود في هذه المجتمعات بعد مخاضـــات عسيرة ومقاومة سواء منهم أو من هذه المجتمعات[1]، لذلك فإن تشجيعهم على البقاء في أرض بعيدة هو تصدير المشكلة للآخرين. ويبقـــى من المتعصبين للصهيونية فوق تلك الفئات كارهون ومتعصبون ضد العرب والإسلام يجدون في انحيازهم للصهيونية شيئاً من التعبير عن ذلك التعصب تحت مظلة سياسية!

كما أن هذا الموقف له شكل آخر يمكن أن يسمى "بالثنائية" التي تظهـــر في الغـــرب اليوم، بين مثقفيه وساسته تجاه القضية العربية، في الوقت الذي يقومون فيه بمساعدة إسرائيل وهم في مناصبهم الرسمية وفي التصريحات السياسية والكتابات المنشورة نجدهم على العكس من ذلك عند خروجهم من العمل الرسمي أو في منتدياتهم الخاصة. من هنا يمكن الافتـــراض بـــشيء كـــبير من الدقة أن الصهيونية واليهودية فكرتان متداخلتان.

هل الصهيونية عنصرية؟

تقـــودنا الإشكالية المعرفية الثانية إلى الثالثة، وهي محاولة الاجابة علـــى ســـؤال حيوي، هو هل الصهيونية عنصرية؟ قد تكون القضية بالنـــسبة لنا نحن العرب هي تحصيل حاصل، فعنصرية الصهيونية بادية للعيان لكل من يريد أن يرى، فهي ظاهرة في القرى والمدن الفلسطينية، في جـــنوب لبـــنان وفي الجولان، في الضفة الغربية وفي غزة، ومع كل

---

(1) كما حاولت النازية مطاردة اليهود والتخلص منهم بشتى الطرق.

فلسطيني طرد من بيته وقتل أهله ومع كل أسير عربـــي خلف الغضبان في إسرائيل. ولكن القضية من وجهة النظر الأخرى تحتاج إلى نقاش.! جـــون لافيين في كتابه المشهور الذي صدر في أواخر السبعينيات وسماه "العقـــل الــصهيوني" - يتساءل باستغراب شديد كيف يمكن اعتبار الــصهيونية أيديولوجية عنصرية، والصهاينة هم إما أمريكان يهود، أو روس يهـــود أو انجليـــز أو هولنديون وحتى مغاربة ويمنيون (عرب) أو اسبان أو بولنديون، كيف يمكن أن تجمع هذه الأقوام والعناصر المتعددة في صف عنصري واحد ضد الأخرين، وهم مجاميع مختلفة العنصر؟

إذا أخـــذنا بهذا التحليل فقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تناقضاً غـــير منـــسجم بـــين تـــواجد عناصر من أقوام عديدة وبين وصفهم بالعنـــصرية الا أن هذه الحجة لا تلبث أن تتلاشى عندما نختبر موقف الـــصهاينة من العرب سواء كانوا فلسطينيين أو غيرهم، فمن أولويات الـــشواهد على العنصرية الصهيونية في إسرائيل قانون العودة، فإن عاد الـــيهودي إلى "أرض المـــيعاد" فذاك هو العلو، أما العربـــي صاحب الأرض الـــتي احتلتها إسرائيل بعد عام 1948 فيمر بسلسلة طويلة من الاستقـــصاءات حـــتى يصبح مواطنا من الدرجة الثالثة، واذا سافر إلى الخـــارج وبقي أكثر من عام ولو يوما واحدا سقط حقه في العودة إلى بلـــده وأهلـــه وأرضه، كما أن استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي لا تخفي موقف الإسرائيليين من العرب القاطنين بين ظهرانيهم. فالتعصب العنـــصري ضد العرب يعتبر سياسة عميقة الجذور في إسرائيل، وليس موقفا لجماعات معينة، فاحكام الرقابة العسكرية على العرب، وحملهم تـــصاريح المـــرور، ما هي الا أشكال أولى للتفرقة. وفي ظل القوانين الإســـرائيلية يعتبر الاستيلاء على الأرض العربية شرعيا بمقتضى قوانين صـــدرت في بدايـــة قـــيام الدولة الإسرائيلية، كما أن تأجير الارض

الزراعية "للعدو العربـــي" هو وباء يجب استئصاله على حد تعبير أحد التقاريـــر الإســـرائيلية. والتفرقة العنصرية مظهر آخر من مظاهر الحياة فالـــتعذيب الإســـرائيلي للعرب لا يقتصر على نسف المنازل والسجن بالاشتباه، ولكن في تعدد أساليب التعذيب كاطلاق الكلاب البوليسية علـــى المـــساجين العرب وأيديهم مغلولة وراء ظهورهم. وتصف لنا تقاريـــر لجـــنة العفـــو الدولية، وهي لجنة محايدة وموثوق بها، أشكال الـــتعذيب التي تتضاءل أمامها الأساليب النازية. فبين الوسائل الشديدة الفعالـــية العقاب الجماعي والمذابح التي لا تبقى ولا تذر ولا تفرق بين الـــرجال والنـــساء والأطفال، لارغام الأخرين على ترك الأرض، ومن المفارقـــات أن المقاومـــة العربية للاحتلال الصهيوني تصفها الكتابات المـــؤيدة للـــصهيونية بأنها معادية للسامية!. أما أشكال التمييز اليومية الأخـــرى في مجـــالات خدمات الاسكان والتطبيب والتعليم فيجري التمييز ليس بين اليهود والعرب فحسب ولكن بين اليهود أنفسهم إلى درجـــة تحطـــم المقـــولة التي يروج لها الفكر الصهيوني والتي تزعم أن الصهاينة في إسرائيل بصرف النظر عن خلفيتهم العنصرية هم مواطنون لهـــم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. حقيقة الأمر تبدو في كثير مـــن كـــتابات القـــادة الإسرائيليين وهي أن اليهود الشرقيين "اليهود السود" غير مرحب بهم، فهم عبء على الكيان الصهيوني المعد لخدمة فـــئة معيـــنة من اليهود الغربيين، إنها هجرة يصفها بن جوريون نفسه "بالهجرة غير المقصودة" إلى إسرائيل.

الشخصية الإسرائيلية

أمـــا الاشكالية المعرفية الرابعة فهي الشخصية الإسرائيلية، ما هي ومـــم تتكون..؟ كانت التحولات الاجتماعية التي خاضتها المجتمعات

الغـــربية منذ عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى هي المسؤولة عن ظهـــور ما سمي في التاريخ الحديث بالمسألة اليهودية، وهذه التطورات طرحت عدة أفكار لحل هذه المسألة منها الاندماج في المجتمعات الغربية واعـــادة صـــياغة اليهودية، والحل الثاني يدعو إلى حركة تنوير ضمن الديانـــة اليهودية، أما الحل الثالث فهو الدعوة الصهيونية القومية والتي يختلط فيها الاسطوري بالعلمي وتمتزج مع الأطماع الاستعمارية. الواقع الـــيهودي الإسرائيلي في أيامنا يثبت بما لا يقبل الشك هذه التصورات الطـــوباوية، والمـــرتبطة بطقوس وطموحات لا يمكن أن تعيش إلا في أجواء الأزمة، فالشخصية الإسرائيلية اليوم متعددة الأهداف لا يربطها الا واقع الاستفادة من الارض العربية الفلسطينية لا غير. فالأيديولوجية القومية التي بنيت عليها الدولة الصهيونية والقائلة أن ليهود العالم تاريخا قومـــيا موحداً لا ينقصهم سوى المكان الواحد، قد اهتزت من أساسها بعـــد أن انهالـــت موجات المهاجرين اليهود من شتى بقاع العالم على إســـرائيل في الخمـــسينيات والـــستينيات، فالتعددية السلبية والمتناقضة واضحة المعالم في المجتمع الإسرائيلي، فهناك الإسرائيلي الأبيض في مقابل الإسرائيلي الاسود، وهناك الإسرائيلي الاشتراكي في مقابل الإسرائيلي الـــرأسمالي، وهـــناك الإسرائيلي المتدين في مقابل الإسرائيلي العلماني، وهـــناك الاشكناز في مقابل السفارد، وهناك أيضاً السابرا. وكل هذه التـــصنيفات ليـــست ثابتة ومطلقة، جوهر العقيدة الصهيونية هو الغاء الـــزمن والظروف الاجتماعية والخلافات الثقافية وخلع صفة الاطلاق علـــى الشخـــصية الـــيهودية (الإسرائيلية) وفي كل كتاب أو منشور صـــهيوني نجد محاولة لتكريس هذا المفهوم غير العلمي. جون لافيين في صـــدر كـــتابه الذي أشرنا إليه من قبل يسوق لنا قولا مفاده "عندما حاولـــت أن أزور حائط المبكى (قبل 1967) وكان وقتها بيد العرب

كان دليلي رجل إسرائيلي ذو لهجة بولندية ثقيلة فقلت له مازحاً: هل أنت بولندي؟ أجاب الرجل باعتزاز: لا أنا إسرائيلي. فقلت له: اذن أنت سابرا (جيل اليهود المولودين في فلسطين) قال: لا أنا إسرائيلي قدمت منذ يومين لإسرائيل" هذه القصة وأمثالها لتأكيد سقوط الزمن واختلاف الثقافة وتلاشي الغربة لدى القادم اليهودي لإسرائيل، فهو يذوب مباشرة في المجتمع الجديد.!!

ولكن هل هو كذلك؟

والجواب: "لا" فالشخصية الإسرائيلية ليست موحدة فهي متنوعة تظهر تنوعاتها بوضوح اما من خلال التجمعات الاجتماعية أو العرقية، كما أنها ليست واحدة عبر الزمن، كما يريد لنا الفكر الصهيوني أن نعرف.

الاشكناز والسفارد

ومن المجموعات الاجتماعية والسياسية والعرقية المميزة في إسرائيل اليوم مجموعتان هما الاشكناز والسفارد، وأيضاً المفهوم التاريخي لهاتين المجموعتين غير دقيق. يشار إلى الاشكناز عموما في الكتابات العربية على أنهم اليهود الغربيون والسفارد - على أنهم اليهود الشرقيون، وذاك في مجمله صحيح في الوقت الحاضر بكل ما يعنيه من مضامين الانفتاح والعقلانية لدى الغربيين والمحافظة لدى الشرقيين، ولكن هذه المفاهيم تاريخيا مختلفة، فالاشكناز الذين ينتمون إلى التشكيل الحضاري الجرماني يوصفون في أوروبا في عصر التنوير بمصلحي الثياب القديمة، وقد كانوا غالبا فقراء منعزلين يعيشون في مناطق هامشية ويقومون بأعمال هامشية، في الوقت الذي ينتمي السفارد إلى أصل لاتيني اسباني برتغالي

ويتسع المفهوم ليستوعب يهود البحر الأبيض المتوسط، وكانوا من الأثرياء الذين يعملون في تجارة الجملة والتجارة الدولية والأعمال المصرفية. وفي ابان المائة والخمسين سنة السابقة لبزوغ القرن العشرين حصل تغيير تدريجي في المفهومين أدى إلى إختلاف جذري، فالاشكناز الذين رفضوا الاندماج في القوميات الاوربية البازغة في القرنين الثامن والتاسع عشر وجدوا ضالتهم في الفكرة الصهيونية التي تتبنى الأفكار القومية الخاصة بهم، وأصبح مفهوم الاشكنار يطلق على اليهود الغربيين ذوي الفكر الصهيوني والذين أسسوا الكيبوتز (تجمعات العمل) على الارض الفلسطينية، في حين تحول مفهوم السفارد إلى اليهود الشرقيين، وفي الوقت الذي نظر فيه السفارد إلى الاشكناز في فرنسا قبل الثورة الفرنسية باحتقار وأكدوا أصولهم العرقية التي ادعوا أنها تختلف عن الاشكناز انقلبت الآية في إسرائيل إلى درجة أن بعض المفكرين الصهيونيين يطلقون لفظ (يهودي) ليقتصر على الاشكناز اليهود البيض وحدهم الذين يعتبرون أنفسهم قد اجتازوا صراعاً مريراً مع الحياة في أوروبا، وهو صراع لا يستطيع البقاء فيه سوى الأكثر ذكاء والأكثر قوة.

واذا كان الاصل في التفرقة بين الاشكناز والسفارد هو الانتماء لمذهب يهودي والاختلاف في طقوس دينية وانتماء عرقي، فإن الاختلاف اليوم في الواقع الإسرائيلي اقتصادي اجتماعي وجغرافي. فاليهودي الايطالي أو الفرنسي الذي يعتبر سفارديا من حيث المذهب الديني لا يعتبر كذلك من الناحية الاجتماعية

فالشخصية الإسرائيلية اليوم مبنية على تركيب عرقي طائفي اقتصادي تحاول الايديولجية الصهيونية تخطيه بطرح مفهوم السابرا، والسابرا هو مصطلح يعني الجيل اليهودي الذي ولد على أرض

فلسطين، هذا المصطلح أيضاً مر بتحولات فهو لفظ يعني (التين الشوكي) وقد ظهر أول ما ظهر في مدرسة هرزليا الثانوية في تل أبيب في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة إبان فترة الانتداب البريطاني على فلسطين. وكانت المدرسة تضم آنذاك شبانا يهودا من مواليد فلسطين إلى جانب آخرين نزحوا مع آبائهم من أوروبا، وكثيراً ماكان أولئك الأوروبيون الذين قدموا من حضارة أكثر تعقيدا ونشأوا في ظروف أكثر يسرا يتفوقون في الدراسة على زملائهم من ابناء اليهود من مواليد فلسطين، وكان الآخرون يلجأون لتعويض شعورهم بالنقص إلى تحدي أولئك الاقران بنوع من النشاط الخشن يرد لهم اعتبارهم وكان ذلك بتقشير ثمرات التين الشوكي بالأيدي العارية. ومن هنا سموا بالسابرا

الا أن المصطلح نفسه تغيّر ليعنى الشباب من أبناء الصفوة الإسرائيلية الغربية، أبناء الاشكناز مواليد الكيبوتز، وهي الشخصية الأساسية المخططة في إسرائيل التي نواجهها نحن العرب اليوم، وهم نتاج الثقافة والفكر الغربي وعلى الرغم من أن سكان الكيبوتز في إسرائيل لا يتجاوزون أربعة في المائة من السكان فإن نسبة اليهود والضباط بينهم حوالي 16% حتى أنه في حرب يونية 1967 كان ربع القتلى والجرحى من سكان الكيبوتز. ومن المهم القول ان تجمعات العمل في إسرائيل (المستوطنات) ليست ذات مواصفات اجتماعية أو فلسفات سياسية موحدة بل مختلفة المشارب السياسية والاجتهادات الدينية لكن يجمعها خيط واحد هو احتلال الأرض، وحتى الاشتراكية الصهيونية نجد لها اعتذاريات كثيرة في الادب الصهيوني السياسي والاجتماعي - فاشتراكية حزب العمل هي اشتراكية ديمقراطية من أجل ربط السوق الإسرائيلية بالسوق العالمية كما يؤكد جون لافيين في كتابه السابق الاشارة إليه.

كمـــا يحدثنا التاريخ الحديث أن الصهيونية لم تتورع من التعاون مع النازية[1]، ولم يعد سرا أن نشاطا منسقا بين النازية والصهيونية قد بدأ مباشرة قبل الحرب العالمية الثانية لنقل اليهود خارج المانيا وتهجيرهم إلى فلسطين.

وبعد

فـــان الاشـــكاليات المعـــرفية الأربعـــة التي تواجهنا لفهم العدو الإسرائيلي الصهيوني إشكاليات معقدة لا يجوز فيها التبسيط، وإذا كان لا بـــد من الاستشهاد بفكر العدو نفسه لفهم موقفه فإن مقولة مناحيم بيجين لها دلالة بالغة في هذا الصدد.

لقـــد قال: "انني أؤمن بالتوراة وأضع ثقتي في الفانتوم" ذلك هو عقـــل عـــدونا الأساسي والحضاري، مزيج من الايمان الخرافي، وتعلق شـــديد بنتاج التكنولوجيا الغربية الحديثة. يهدف إلى تمزيق العرب إلى دويلات عرقية وطائفية..

فماذا أعددنا له...؟! وماذا نحن فاعلون.؟

---

(1) الجماعات المسلحة الصهيونية – قبل الحرب الثانية – كانت تشتري السلاح من المانيا النازية.

(49)

ما هو أفضل من "سفن الحرية"

هذه المياه تعود من جديد إلى شبه مجاريها بين تركيا وإسرائيل أو تكـــاد، ندرة من العقلاء، سياسين ومحللين عرب، انـــزعجوا لاحتمال حدوث خلل عميق في صلب العلاقات التركية الإسرائيلية، من منظور المصالح العربية. على رأس هؤلاء العقلاء الرئيس بشار الاسد، الذي قال في السادس من شهر يوليو الحالي ومن مدريد في مؤتمر صحفي مشترك مع رئيس الوزراء الاسباني ثبتيروا **"قطع العلاقات بين تركيا وإسرائيل مـــن شـــأنه ان يزعزع استقرار المنطقة"**. نادر من انتبه في العمق لهذا الأمر. بقية الزفة، اشترك فيها الجميع تقريباً، ورقصت طربا على دفوف انتصار تركيا للعرب في الصراع مع إسرائيل، واستبشر القوم ان تركيا قادمـــة من أجل دعم الصف العربـــي دون ابطاء ودون طرح اسئلة. ذلـــك مـــع الاسف هو التقليد العربـــي في التفكير السياسي، طبع لا يمكن اصلاحه بالتطبيع، حتى يتوقف أحد عن الرقص ليطرح سؤال من هو العريس؟؟.

لا اريـــد ان اقلـــل من الخلاف الإسرائيلي التركي فهو خلاف حقيقـــي، ولكـــنه محسوب من طرفين، من طرف المصالح التركية ومن طرف المصالح الإسرائيلية. فتركيا لم تصفر (حسب تعبير وزير خاريتها المحبـــبه) بعد مشكلاتها لا الداخلية العالقة بين نظريتين في الحكم، تكاد تـــصطدمان، وكـــذلك لم تصفر مشكلاتها العالقة بأوروبا، أو حتى لم

تصفر علاقتها بالاكراد في الجنوب التركي. فدخولها إلى ما نسميه نحن العرب "بالقضية" هو دخول محسوب بالمصالح ومؤطر بها، قد نختلف في الاسباب، وهي كثيرة، ولكننا لا نختلف في المقاصد وهي محدودة. إسرائيل من جانب آخر لا تريد ان تفقد - إلى وقت غير منظور - علاقة طويلة ممتدة مع تركيا، كانت أحد أسس استراتيجية إسرائيلية قديمة فحواها "حاصر أعداءك بأصدقاء" أي كلما كان الطوق الجغراسياسي المحيط بالعرب صديقا لإسرائيل تحققت امنية إسرائيل في الضغط عليهم.

من جهة أخرى فإن البعد الأوروبي - الأمريكي - مهم للحكم القائم في انقرة وإسرائيل كانت ولا تزال تلك "دالة" على الطرفين الأوروبي والأمريكي، اللذان تنظر اليهما انقرة من منطلق المصالح الاقتصادية وأيضاً استراتيجية.

الاشكالية التي بدت بين تل ابيب وبين انقرة اشكالية محسوبة من الطرفين. فقط كثير من العرب، خاصة الشارع العربي ومنظروه، وجدو لقلة حيلة أو لوهم مترجى، ان هناك "طرفاً مسلماً ومهماً" جاء إلى نصرهم دون توقّع، ففاضت الأقلام لاقناع ما لم يقتنع أن التحرير قادم على يد أبناء "عثمان" كان ذلك خرافة كما هي الخرافات الكثيرة التي تعشعش في عقول كثير منا، سياسية واجتماعية لا فرق.

غير صوت الرئيس بشار الاسد لم نسمع صوت انذار مبكر للنظر بشكل أعمق لما يحدث، حتى ذلك الصوت وذاك التصريح الهام الذي اشرت إليه لم ياخذ حقه في المتابعة، لأن الجميع يريد تخليل شيئ غير ذاك.

في فورة اسطول الحرية تداعى عدد كبير من السياسين والنشطين لكسر الحصار عن غزة، كما فعل الاتراك! إلا أن الوعود والتهديدات

ذهبت ادراج الرياح، ليس لأن القائلين بها لم يكن جادين، بل لأن قراءة نتائج اسطول الحرية "الاول" تبين لكل من يريد القراءة الجادة، أنها انتهت لتكريس كون "غزة" ڤيتو للاجئين، مع تحسن طفيف في المعيشة، لا تحويلها مكان للمقاومين، لأن حبل سرة المقاومة هي "تدفق سلاح وخزائن اموال". كانت الأصوات المتنادية لركوب "سفن الحرية" تقول نحن قادمون لغزة من أجل مساعدات "إنسانية"، ادوية والعاب اطفال!!. في السياسة كما في غيرها من الانشطة الإنسانية، قد تكون النيات صافية والحماس بين، إلا أن السياسة - كما يعرف أي طالب مبتدئ - تقرر بالنتائج ولا تحسب بالنيات أو تحسم بالحماس. والنتائج تقرأ الآن وفي تسلسل ممل. هي ذا تركيا تصفي العالق من الامور مع إسرائيل، وهذا بابندريو رئيس وزراء اليونان، على صعوبة وضعها المالي، تريد أن تدخل على الخط، لجذب بعض الهوى من الشارع العربي وممثليه، وهي دولة بالمناسبة لها ثارات ظاهرة أو خفية مع تركيا! وهذه غزة تتحول أو تتأكد من جديد أنها "مكان للاجئين" ربما بحال أفضل، ولكن لا أكثر من غزة لاجئين؟ لأن جميع الاطراف تريد أن تساعد في "الإنسانيات" لا مد حبل السرة!

الآلام التي ولدتها وتولدها القضية الفلسطينية للعرب آلام مبرحة، ونزيف الطاقات تجاهها نهر لا يتوقف عن السريان، إلا أن معظم ردود الفعل من جانب العرب كانت في الغالب عاطفية وكلامية، ومن الجانب الآخر عقلانية عملانية. أفضل ما يمكن أن تقدمه تركيا أو أي صديق صدوق من الدول والجماعات يهتم حقيقة بالقضية الفلسطينية هو قول واضح لجميع القوى الفلسطينية، وعلى رأسها حماس، ان أوجدوا لكم طريقاً للتفاهم فيما بينكم يا فلسطينيين. إن التفاهم بينكم هو جسر خلاصكم، الذي كان ولا يزال غير متوفر. في كل تطورات

القضية وتاريخها الطويل. لو قرأنا فقط كتاب باتريك سيل الأخير، رياض الصلح، واطلعنا على الشقاق بين "الأسر الفلسطينية" فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكانت بينهم حروبا شعواء، والتي تحولت اليوم إلى تيارات وقوى، سوف يعرف أحد اعمدة الضعف الفلسطيني التاريخية "الشقاق بين الاخوة الاعداء". من تونس إلى رام الله، ومن الخليج حتى المغرب، وفي معظم سني القرن الماضي الي اليوم، وإلى كل المحطات الفلسطينية، كان هذا الشقاق ولا زال المساعد الاكبر والاهم لنصرة العدو، بجانب طبعا التفوق العلمي والمناصرة الدولية. ان اخذنا الموضوع من الناحية التراثية لتذكرنا القول القرآني ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَ﴾ وان قاربنا الموضوع من ناحية التفكير السياسي الحديث لتذكرنا قول لينين "ان كان هناك حزبان شيوعيان في بلد واحد، فاحدهما خائن" وان تذكرنا الادبيات السياسية العملية لاستمعنا إلى القول الذي شاع في الولايات المتحدة "خلافاتنا حول السياسة تنتهي عند شاطئ البحر" بل لو حكمنا بسيط عقولنا لقلنا ان شقاق الفلسطنيين نعمة كبرى لعدوهم. في موضوع سفن الحرية وما دار حولها ونتج عنها لربما قد خسرنا تركيا - لفترة قد تطول - كوسيط موثوق بين الطرفين العربي والإسرائيلي، كما خسرناها باحتمال ان تكون جسراً لتقارب الفلسطينيين الأمر الذي كان يمكن أن يقود إلى أول طريق السلام. الرابح في هذه المعادلة الصفرية هي إسرائيل. فقد تخلصت من قبول وسيط معقول متفهم للمحيط السياسي والثقافي، كان من الصعب ان يؤثر فيه داخلياً. على عكس الوسيط الأمريكي، الذي - مهما صفت النوايا- عليه مداخل ضغط إسرائيلية من جانب التحكم في أصوات الناخبين في الانتخابات المختلفة والدورية.

في المحصلة كان الافضل كثيرا من "سفن الحرية" التي انتهت إلى ما انتهت إليه، ان يبذل جهد جاد وحقيقي وصارم لجلب رؤوس القوى الفلسطينية مع بعضها، وإن كان بعضها - استدراكاً - صاحب مصلحة خاصة يصعب تذليلها لصالح المصالح العامة. جلب هؤلاء إلى مكان ما من الحد الادنى التوافقي لوقف هذه الشقوق والتصدعات بين اهل القضية قد يؤدي لتحقيق مصالح أفضل للفلسطينيين، ذلك أول الطريق، وقد يكون استمرار الوساطة التركية بين العرب وإسرائيل يفتح ابواب السلام. أما تسيير السفن فلن يحقق نتيجة حتى لو حشدت اساطيل تحمل كل ادوية العالم والعاب اطفاله، سوف تحقق الاخيرة تصفيق البعض الكلامي، وتحقيق مصالح سياسية جماهيرية محدودة، واضحت "سفن الحرية" ظاهرة لمن يريد ان يسترزق سياسياً على حساب هذه القضية المفترى عليها، وهي ليست المرة الأولى مع الاسف لن تكون الاخيرة.

(50)

القبائل لا تصنع ديمقراطية

حـــيرة الولايات المتحدة في كل من العراق وافغانستان وفي غيرها مـــن مناطقـــنا الجغرافية، حيرة لم تجرى على قوة دولية سابقة، بسبب بـــسيط، جـــرى تجـــاوزه بشكل متعسف هو ان "القبائلية لا تصنع ديمقراطية" على النمط الغربـــي. سوف تتعب أمريكا حتى لو حشدت ثلـــثا حكـــومات العالم في كابول من أجل تدارس مخرج لها من هناك، وحتى لو اجرت انتخابات كل عام في العراق، وهكذا في معظم، ان لم يكن كل، مناطق الشرق الاوسط المعتمدة في تركيبها الاجتماعي على القبلـــية، الـــذي جذرته في الممارسة أكثر وأعمق الدولة الريعية العربية المعاصرة.

المرحوم احمد حسن الزيات (دبلوماسي مصري) عايش استقلال الـــصومال، حكى لنا القصة التالية ذات المغزى العميق، قال أنه اراد ان يـــستكمل الـــشكل الحـــديث للدولة الجديدة فطلب من الاحزاب ان تـــسجل نفـــسها بشكل رسمي، فجاءته مجموعة صومالية وقالت نحن "حـــزب دحلـــة ومرنيلة" سأل الزيات رحمه الله وماذا يعني اسم هذا الحـــزب، قالـــوا أنـــه يمثل قبيليتين صوماليتين صغيرتين اسمهما "دحلة ومـــرنيلة" رفض الزيات تسجيل الحزب الجديد، فالاحزاب تختلف عن القبائل، قال لهم ذلك، عاد إليه نفس الاشخاص بعد ايام من الاستمهال وقالوا لقد أسسنا حزباً جديداً، ولما سأل عن اسمه قالوا أنه الآن يدعى

"الحــزب الديمقراطي المستقل" سأل من جديد، وهل هناك حزب اسمه الحــزب الديمقراطي، حتى تميزون انفسكم ب "المستقل" قالوا لا ولكن حزب دحلة ومرنيلة يحتاج إلى الحروف الثلاثة ليستقيم!!

القبــيلة في الــصومال والسودان وافغانستان بل وحتى في مصر، ويحضرني مقاله كتبها استاذ الاجتماع في مصر السيد ياسين في الأهرام بعــد الانتخابات عام 2005 قال فيها أنها انتخابات "قبلية" كانت شبه مفاجئة لي، ولكنها بعد حين كانت الحقيقة.

أخــيراً نــشر كــتاب بعنوان "الحصان القوي" لكاتب صحفي أمريكي هو لي سميث مراسل الويكلي ستنندر في الشرق الاوسط، قال فيه شيئ ملفت للنظر، وقد يكون اكتشافاً متاخراً لسوسيولوجيا الشرق الاوســط من قبله، قال ان الغرب انقسم بعد الحرب العاليمة الأولى - في نظــرته وتعامله مع شعوب الشرق الاوسط - إلى مدرستين، الأولى الفرنــسية التي رات ان شعوب هذه المنطقة (قبائل ومذاهب وطوائف) وقررت ان تتعامل معهم كذلك، أما الثانية البريطانية فوجدت ان هناك اعلبية سنية في المنطقة فتعاملت معها وقياداتها كنخب قادرة على ترسيخ الاســتقرار. يقــول الكاتب ان أمريكا اتبعت المدرسة الانجليزية حتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 فانقلبت إلى المدرسة الفرنسية، هكــذا يؤكد! وهو امر يحتاج إلى تفكير عميق هذا الأمر يؤكده مقال آخــر نشر في الفورن افيرز الشهيرة عدد "يوليو وأغسطس" الحالي في الأســواق، تحــت عنوان "الدفاع عن نجاح في افغانستان"، يطالب فيه مؤلفــوا المقــال الثلاثة إلى العودة في افغانستان إلى ما سموه "الشرعية المحلــية" التي شتتها أصلاً، كما يرى المؤلفون، الاحتلال السوفيتي، قبل أكثــر من ثلاثين عاما، ودخلت بعدها افغانستان في اضطراب سياسي شديد حيث انتهكت "الشرعية المحلية" القائمة على نخب قبلية وطائفية.

المشاهد من احداث العراق هو ذاك، أي ان "الدولة المركزية" ليست مطلوبة في التصور المستقبلي للعراق، بل التعامل مع كيانات إنسانية متفرقة، وتحت ذريعة الحرص على التعددية أو غيرها من الشعارات. تصب هذا المطالبات بكيان "كردي" في الشمال، وسني في الوسط، وشيعي في الجنوب، وما المنظور من حال التجاذب الخطر لتشكيل حكومة عراقية الا بسبب ذلك الانفصام بين نخب تحن إلى دولة مركزية وبين قوى تؤكد المناطقية والطائفية. وهذا ما حصل - ويحصل - كنتيجة في السودان فالجنوب والشمال ليس نهاية القصة السودانية، على مراراها، بل أيضاً الغرب السوداني وربما الشرق السوداني أيضاً... في اليمن وفي الصومال وهكذا حتى في الدولة العربية التي تبدو مركزية، فإن نذر "القبلية" والمناطقية" و"الطائفية" هي الأكثر تعبيراً وان اختلفت التسميات. حتى في بلد كلبنان فإن "الأحزاب" هي في الحقيقة إما مناطقية أو فئوية أو طائفية في الأغلب، هذا في لبنان "المنارة العربية"!! كما يراها البعض عن بعد!! والأكثر غرابة أنه حتى "الممارسات الديمقراطية" على هزالها، جذرت الانتماء القبلي، الطائفي، والمناطقي، وتغلبت على بذور بناء الدولة.

فكرة الديمقراطية كما يعرفها الكثير قائمة على "المساواة" بين اناس أو المواطنين في كيان اسمه الدولة وهي أي المساواة ليست قيمة من قيم "القبلية" أو "الطائفية" أو "العرقية" فهي أي الاخيرة في كل تجليتها تراتبية حتى النخاع. فكرة المساواة تناقضها فكرة التعصب السائدة، وهي سائدة لأن "عضو القبيلة" أي كان مظهرها الحديث يوحى له من الزعامة أو يؤكد لنفسه أنه متفوق على الآخر هو "غير الآخر الدوني"، ليس بسبب قدراته أو إمكانياته، كما هو في المجتمع الصناعي وما بعد الصناعي الحديث، ولكن فقط بسبب انتمائه العرقي، المذهبي،

والمناطقـــي، الطائفي، أي بسبب علاقة الدم والدماغ والنسب. فكرة المساواة على بساطتها ومركزيتها في الممارسة الديمقراطية يمكن أن يختبر نـــبذها علـــى اشارة المرور، كل يوم في أي مدينة عربية، فكم راكب مركبة أوقفه شرطي لسبب ما على الاشارة، فإذا بمن خلفه يزعق ببوق طويل للتنبيه، أنه شخص مهم يجب ان لا يتاخر في الطريق بل يفسح له مهمـــا كانـــت العقبات امام من سبقه في الطابور!! هي فكرة بسيطة ولكـــنها تـــنم عـــن عدم قبول المساواة في مدننا العربية. لهذه الظاهرة تفسير، فنحن في مجتمعات مشمولة بالقبلية في ظاهرها مجتمعات حديثة وفي حقيقـــتها تـــراتبية في البـــناء الاجتماعي. ألا نرى أن الكثير من "الجرائم" تحل في "مجلس عشائري" وكذلك الخلافات السياسية. المرشح في الديمقـــراطيات الغربية يقال له Candidate وهي كلمة مشتقة من Candidatus أي لابـــس الابيض، الذي يدل على الطهارة. ترى كم مرشح في كل ما نسمية "ديمقراطية" في بلادنا على وسعها من شنقيط إلى راس الخـــيمة يرشح نفسه معتمدا على "الطهارة" لا على "المهارة" في خـــداع الناس وإثارة حميتهم واسواء غرائزهم! الديمقراطية تمنع ان يـــرى البعض نفسه ملاكا أو اله، وكم منهم اليوم في بلادنا يرى نفسه كـــذلك. سمـــوها مـــا أردتم في الممارسة القائمة ولكن بحق العقل، لا تسموها ديمقراطية فالقبيلة لا تنتج ديمقراطية، هما على خط متناقض.

تواريخ هامة في الكتاب

- احتلال الكويت 2 أغسطس 1990 وتحريرها فبراير 1991
- انتخابات "بوش وكيري" الرئاسية فى أمريكا 2004
- الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان 2000
- الاعتداء على الرئيس مبارك فى اديس أبابا 1995
- مؤتمر السلام بمدريد بين العرب وإسرائيل 1992
- اطلاق صدام حسين صواريخ على إسرائيل 1991
- نفجيرات لندن 7يوليو 2005
- فوز 4 سيدات كويتيات بعضوية البرلمان الكويتى مايو 2009
- الحرب اللبنانية الإسرائيلية 2006
- سيطرة حماس على قطاع غزة يوينه 2007
- المبادرة العربية للسلام 2002
- التعديلات الدستورية فى مصر مارس 2007
- نجاح حماس فى الانتخابات التشريعية الفلسطينية يناير 2006
- الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول سبتمبر 2005
- الحرب العالمية الأولى (1914-1918)
- الحرب العالمية الثانية (1939 - 1944)
- مقتل عدي وقصي صدام حسين 23 يوليو 2003
- الإنسحاب الإسرائيلي من غزة أغسطس 2005
- وفاة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان 2 نوفمبر 2004

الدكتور محمد غانم الرميحي

- حاصل على دكتوراه في العلوم الاجتماعية من جامعة درهام Durham بشمال شرق انجلترا سنة 1973 بتخصص اجتماع سياسي وتنمية اجتماعية، استاذ الاجتماع السياسي في جامعة الكويت.
- لديه كتابات في علم الاجتماع السياسي والتغيير الاجتماعي في منطقة الخليج العربي وفي المجال الثقافي. ألف أكثر من خمسة وعشرين كتابا ونشر أكثر من مائتي مقال ودراسة. شغل أيضاً منصب عميد مساعد في كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت.
- كما شغل منصب رئيس تحرير لصحيفة أوان وهي صحيفة كويتية يومية سياسية. ورئيس تحرير مجلة العربي لمدة سبعة عشرة سنة، وهي مجلة شهرية معروفة ومؤسس مجلة العربي الصغير، ورئيس تحرير لعدد من الاصدارات منها عالم المعرفة والثقافة العالمية وعالم الفكر. وكان الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.
- الدكتور الرميحي عمل كعضو في عدة لجان مختلفة، وكان عضو الهيئة الاستشارية لمجلس الوزراء، عضو في عدد من اللجان العاملة في التعليم العام والتعليم العالي، عضو بمركز الدراسات بالجامعة الأمريكية في الكويت وعضو بمجلس الأمناء بالجامعة الأسترالية.
- موقع الشخصي على الشبكة العالمية.
- موقع الشخصي على الشبكة العالمية.
- موقع الشخصي على الشبكة العالمية www.alrumaihi.info

أولويات العرب..
قراءة في
المعكوس

خمســــون مقـــــالاً
يـبحث عن الحـقـيقـة

الدكتور محمـد الرميحي

• كاتب ومفكر كويتي، رأس تحرير عـدداً مـن المـجلات والصـحف، وأسـتاذ الاجتماع السياسي في جامعة الكويت، له مساهمات بحثية ونشر عـدداً من الكتب الفكرية والسياسية.

أنظر www.alrumaihi.info

إن السرّ في تجنب النقاش حول الأولويات العربية هو تـدني سقـف الحريات، فمتـاح لـك كعربي أن تناقـش – وربمـا تشتـم – إن أردت السياسـة الأمريكيـة وحتـى السياسيـين الأمريـكان، إلا أن الحديـث عـن حديقتـك الخلفية دونـه أسـوار من الترهيب أو الترغيب.

في المقـالات الخمسـون التي سـوف يطالها القارئ الكـريم هنا في هـذا الكتاب، وهي مقـالات كتبت في أوقـات سابقـة وحرّرهـا كاتبها بعد ذلـك، في هذه المقـالات سيجـد القـارئ أن الكثير مـن المشكلات العربية لا زالت تراوح مكانها، وكأنها تعيد تفريخ القضايـا من جديد. كما سـوف يجد أن الكثير من الأفكار التي كانت تنبوئية – إن صحّ التعبير – قد تحققت. ليس لأن الكاتب يرى في بلورة مسحورة، بل لأن تحكيم العقل والقراءة الصحيحة للأحداث هـي التي جعلت مـن المتوقع ممكنـاً. فالمقالات هنا هـي مجموعـة مـن المنقطـع المتصـل في شؤوننـا العربية.

وما هذا الكتاب إلا محاولة للتذكير لا غير...

من المقدمة


الدار العربيـة للعلوم ناشـرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



ISBN 978-614-01-0110-4
9 786140 101104

تصميم الغلاف: سامح خلف